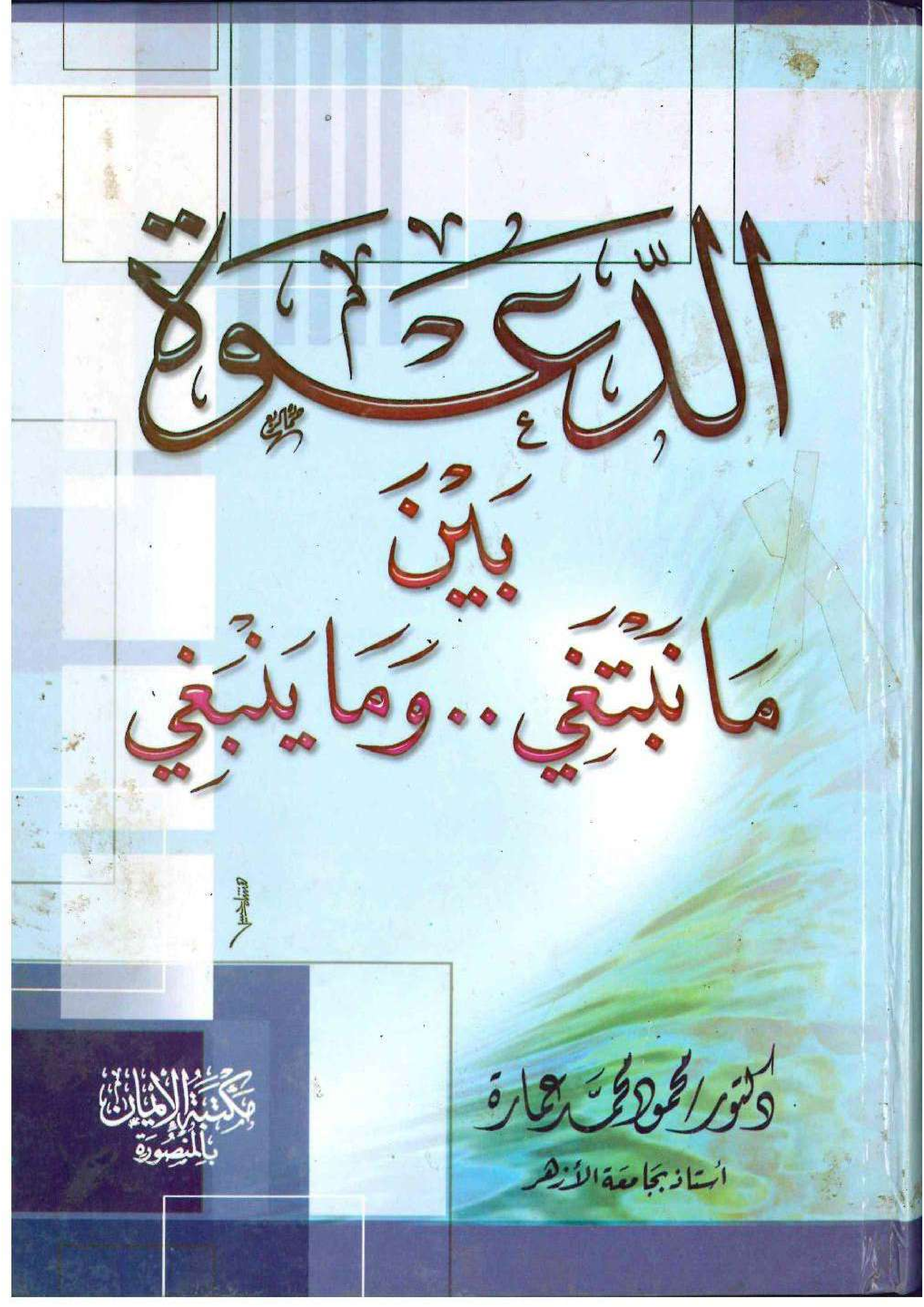

الدعوة
بين
ما نبتغي.. وما ينبغي
دكتور محمود محمد عمارة
أستاذ بجامعة الأزهر
مكتبة الإيمان بالمنصورة

الدعوة
بين
مانبتغى . وماينبغى

دكتور

محمود محمد محمد عماره

أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان ـ المنصورة

٠٥٠ / ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

رقم الإيداع
٢٠٠٧/٨٦٤٢٢

مكتبة الإيمان - المنصورة

٠٥٠ /٢٢٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

على مدى نصف قرن أو يزيد .. ومن بورسعيد إلى أسوان مرورًا بكل محافظات مصر .. كانت لى لقاءات عبر دروس كنت فيها معلمًا ومتعلمًا فى نفس الوقت .

ولقد لقيت من سفرى هذا عجبًا .

أجل : رأيت .. وسمعت :

رأيت وسمعت فى مجال الدعوة مواقف وممارسات كان لابد من التعليق عليها : ومنها على سبيل المثال :

هذا الداعية المزهو برأيه .. زاعمًا أن الصواب حكر عليه .. هذا الذى يفتح النار على كل من يخالفه : فزلّ وانكبّ وما لقى ما أحب !!

ثم التهاون بعلماء مجاهدين وازدراء مواقفهم .. إلى داعية يتخذ من الحاكم عدوًا .. بينما زميله يرى من مصلحة الدعوة أن تكون له بالحكام صلة ما ..

ثم تسمع ثورة على الفن وأهله بحسبانه يهدم ما يبنى الدعاة ..

إلى غير ذلك من المشاهد التى احتشدت فى الذاكرة والتى لم تعد تحتمل ثقلها . فكان لابد من تسجيل رأيى فيما سمعت . وفيما رأيت .. فكان هذا الكتاب .. الذى أضع به عن كاهلى إصرى .. وأفرغ على صفحاته ما استكن فى قرارى من أحداث وأحاديث .

وكثيرة هى الأحداث التى نراها بأعيننا .. وأكثر منها تلك الأحاديث التى نسمعها بآذاننا ..

ولكن مرور الأيام وكرّ العى .. ينسينا هذه الأحداث .. وتلك الأحاديث..

ولا يبقى منها إلا الأعمق فى الدلالة .. والأسبق فى سلم الأولويات .

وهو ما سجلناه ليكون هذا الكتاب الذى بين يديك ..

والذى جاء تصحيحًا لبعض الممارسات فى حقل الدعوة .. حول الداعية والمدعو . وضوابط الحوار ..

ألا إن الحياة مدرسة :

مدرسة حافلة بالدروس والعبر .. نتعلم فيها ما لا نتعلمه من الكتب .

فقد أذهب إلى محافظة ما .. لإلقاء درس واحد .. ولكننى ذاهبًا آيبًا : أسمع وأرى .. أسمع عشرات الدروس .. وأرى آثارها .. فأحاول تسجيل ما سمعت وما رأيت ..

ثم .. وفى النهاية أضعه بين أيدى الدعاة خبرة يمكن أن تكون دليلاً على جانبى الطريق الطويل ..

وذلك ما أحاوله الآن .. وعبر هذه الصفحات مستفيدا بتجارب من سبقنى على درب الحياة الطويل .

ومنهم القائل : علمتنى الحياة كثيرًا ومازالت برغم تقدم العمر تعلمنى أمورًا جديدة .

علمتنى الحياة أن الطبيعة البشرية ليست شرًا محضًا ولا خيرًا محضًا وإنما هى خليط بين الأمرين . حقًّا قد تزداد نسبة هذا هنا وتزداد نسبة هذا هناك ولكن يبقى الإنسان وهو يحمل فى جنباته العنصرين جميعًا حتى مع اختلاف النسب التى يبدو أحيانا واسعًا . فهناك نفوس بشرية تسمو حتى لكأنها لا تحمل شرًا قط وهناك نفوس أخرى تتدنى حتى كأن لا خير فيها .وكلا الأمرين غير صحيح .. وقد ترى إنسانًا تحسبه شريرًا ممعنا فى الشر ثم إذا بقدر من التفهم والمعاملة الحانية تجعل ذلك الشرير وكأنه أصبح إنسانًا آخر . والعكس أيضًا صحيح .

وعلمتنى الحياة ألا أنتظر كثيراً من أحد ولا حتى من أقرب الأقرباء . فإنك عندما تنتظر ولا يتحقق ما تنتظره تصاب بصدمة على حين أنك عندما لا تنتظر شيئًا ويحدث غير ما توقعته فإن أثر ذلك يكون طيبًا . . إن الوفاء فى الدنيا قليل . . حقًا هو موجود . ولكنه نادر ، ذلك لأن الوفاء التزام وعطاء وهما أمران أصعب على النفس البشرية من الانفلات الذى لا يعرف عطاء ولا التزامًا .

وعلمتنى الحياة أن التوازن هو خير كبير . . هو ما عبر عنه الأقدمون بالوسط الفاضل . ومع ذلك فالإنسان مهمًا يكن متوازنا فهو معرض فى حالات كثيرة إلى ما يقال له النزوات أو الانفعالات . . وهى نوع من فقد التوازن . . والعاقل هو من يحاول أن يستعيد توازنه وألا يترك حبل النزوات أو الانفعالات يذهب به بعيداً .

وعلمتنى الحياة أن الندم على ما فات غير مجد وإن كان لا يخلو من درس وعبرة ، إن ما فات فات ولن يغير منه الندم ، ولكن الندم إذا كان مصحوبًا بنوع من الدرس والتحليل والوعى قد يفيد الإنسان ويجنبه فى المستقبل أن يعيد فعل ما ندم عليه .

وعلمتنى الحياة أن الآمال الكبيرة والأحلام العريضة تبدو كذلك وهى لم تتحقق فإذا تحققت أو تحقق بعضها عادت إلى حجمها الطبيعى بغير انبهار . وما أصدق العبارة التى تقول (سعيت ثم سعيت وأخيراً لم أجد تحت القبة شيخًا) قد أجد تحتها شيئًا ولكن يقينا لن أجد تحتها ما كان يصوره الخيال .

وعلمتنى الحياة ألا أتسرع فى الحكم على شىء خاص على النفس البشرية . فالنفوس البشرية سراديب مغلقة ومعرفتها ليست سهلة ومن المجازفة أن نلقى بالأحكام دون معرفة وتأن واختبار .

وعلمتنى الحياة أن تكون كما أنت ولا تحاول أن تظهر بغير حقيقتك فإن ذلك سُرعان ما ينكشف وكم من الناس لا يكفون عن ترديد عبارة أنهم صرحاء أو أنهم

موضوعيون وهم فى الحقيقة لا صلة لهم بالصراحة ولا بالموضوعية وأنهم بعد خطوة أو خطوتين سينكشفون للناس .

وعلمتنى الحياة أن كثيرا من الحكم التى يرددها من نعتبرهم من عامة الناس أو تلك التى كانت تقولها أمهاتنا ـ من غير علم ـ هى خلاصة تجارب الدنيا . (امشى عدل يحتار عدوك فيك) أو غير ذلك من حكم الدنيا البسيطة والصادقة ، هذه الحكم هى منارات هادية فى وعثاء الطريق .

وعلمتنى الحياة أن السعادة الحقيقية قد تكون فى سماع كلمة صغيرة صادقة أكثر منها فى صفقة مالية تحقق ربحًا ضخمًا ، وقد تكون فى نظرة حانية محبة أكثر منها فى كثير من مظاهر الحياة وصخبها . وكل ذلك يتوقف على ما تريد من الحياة .

وعلمتنى الحياة أن التمسك بالقيم واحترام النفس والبعد عن المغانم الرخيصة تعلى من قدرك عند نفسك وعند الآخرين ، حتى وإن لم يصرحوا بذلك .

وعلمتنى الحياة أن وقت الراحة لازم لحسن أداء العمل وأن النظام يضاعف الحصيلة أضعافًا مضاعفة .

وعلمتنى الحياة أن الكلمة الصادقة والمخلصة تجد طريقها إلى القلوب بيسر وسهولة ، وقد يخاف كثير من الناس أن يعبروا لك عن تأييدهم أو موافقتهم على ما تقول ولكنهم فى داخل أنفسهم ينطوون لك على احترام وتقدير . بل ويدعون الله « أن يكثر من أمثالك » حتى ولو لم يكونوا هم من أمثالك !

وعلمتنى الحياة أن « اللغة » ليست مجرد وسيلة للتعبير والتخاطب وإنما هى ـ على الأخص فى فترات الغربة ـ وعاء الثقافة والحضارة وأداة الاتصال النفسى والعاطفى والإنسانى . إن اللغة أكثر كثيرًا من أن تكون مجرد أداة تخاطب وتعبير .

وعلمتنى الحياة أن المسافة كثيرًا ما تكون بعيدة بين القول والعمل . . والمتنبى

هو الذى كان يقول :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويختلف الخلق جراها ويختصم

والمتنبى الذى يقول ذلك لم يعرف فى الواقع طعم النوم الهانئ وإنما عاش حياة كلها توتر وصراع ورغبة فى السلطان وانتهى به الأمر إلى دفع حياته ثمنًا لهذا الوهم الذى كان يسعى وراءه .. وليته اكتفى بعبقريته الفذة التى حباه بها الله .

ولكنه لم يقنع .. وكذلك كان الثمن هو التعاسة والتغرب ثم القتل فى البيداء .

وعلمتنى الحياة أننى أستيقظ أحيانا فأحس كأنى لم أتعلم شيئًا قط وأن علىّ أن أبدأ التعلم من جديد .

ومن هذه الدروس التى تعلمتها :

أننا نتكلم عن مبادئ الإسلام .. ثم لا نعمل : فهناك دعاة يرتبون مبادئه على مزاجهم :

فيقدمون المتأخر .. ويؤخرون المتقدم :

والنتيجة : انصراف الناس عنهم !

لقد كان هناك خلل فى نظرتهم إلى الحاكم .. وإلى المحكوم :

إن من واجب الدعاة :

١ ـ اقترابهم من مواقع السلطة « تحت مظلة السياسة ».

٢ ـ ثم الاستماع إلى شكوى الناس .

٣ ـ وتقدير الرأى الآخر .

ذلك بأن السلطة تحترم الداعية الملتحم بالجماهير .. فينبغى أن يكون لنا وجود مكثف فى دنيا الناس . لنفرض على السلطة احترامنا .

٤ ـ الوعى بالتطور بعد أن تغيرت كل النظريات .

٥ ـ التجدد : مواكبة للحياة . .

٦ ـ عدم تجريم الحضارة التى نستعمل ثمراتها كالكهرباء مثلا .

٧ ـ ثقافة موسوعية .

٨ ـ تجربة عملية .

٩ ـ إحساس حاد بما ندعو إليه .

وقد يكون أخوه الفلاح أشد منه إحساسا بحكم خبرته وتجربته . . ويبقى الداعية المثقف أقدر على التأثير وعلى سلامة التعبير .

ألا وإن من أسلحة الداعية تتلخص فى :

١ ـ براهين مقنعة .

٢ ـ أسلوب مهذب .

وبهما معا يسكت نيران العدو وبهما معا أيضًا ، يستغنى عن أمرين :

أ ـ التجريح . ب ـ والمديح .

أى يستغنى عن العنف والتملق .

ومن أسلحته أيضًا : معرفة المدعو ، وهكذا كان أبو بكر ـ رضى الله عنه :

أ ـ عرف الأنساب .

ب ـ وكان غنيًا لا يأكل بالدعوة . وإنما يأكل من عمل يده ، إلى جانب كونه : جميل المنظر . عذب الحديث . الأمر الذى حمل قريشًا على التحذير من مجالسته . وقاية من جاذبيته . كما فعلت مع « عتبة بن ربيعة » والوليد بن المغيرة .

من عوامل نجاح الداعية

قدرة فائقة قادرة على تصوير أعماق النفس الإنسانية عن طريقين :

١ ـ الوصول إلى أعماقها .

٢ ـ القدرة على تقمص شخصية الآخرين لتشعر بأنهم ناس مثلنا : من لحم ودم وليسوا من صنع خيال المؤلف .

٣ ـ تقدير الإنسان كمخلوق كرّمه ربه سبحانه .

لقد أراد أرسطو أن يجعل الناس :

إما سادة : يولدون كذلك .

أو عبيدًا : يولدون أيضًا كذلك .

ولقد ترتب على ذلك ظن خاطئ هو : أن المجتمعات لا تقوم إلا بتدبير من الخارج .. بواسطة قوة تمثل مركز الدائرة ... وبذلك تحكّم القياصرة !!

وترتب كذلك ... ومحظور على الأبناء التحول عن حرف آبائهم باسم القانون!!

ومعنى ذلك : أن الفقير ما وجد إلا ليُحكم .. والقوى ما وجد إلا ليَحكم؟!!.

• • •

ثـــورة الإســـلام

وجاء الإسلام ثورة انتزعت هذا الحق المزعوم .. وجعله مُلكًا مشاعًا بين الناس جميعًا .

فللشعب الكلمة الأولى والأخيرة فى اختيار من يمثله .. وله كذلك رأيه فى مستقبل أمته . وعلاقاتها بالعالم الكبير : هذا الرأى الذى يطرح اليوم .. ليكون

غدًا مشيئة واجبة التنفيذ . . بعد أن كانت فى عهود الظلم حبرًا على ورق .

وهكذا تقوى الأمة بالإسلام :

الإسلام : الذى كان دون الأديان جميعًا يحمى أهله . . بينما غيره : يحميه أهله .

وعن قوة الإسلام يقول « مونتجمرى » : [من مناطق آسيا الشاسعة . . قد تأتى مرة أخرى قوة غازية : ويجب أن يستعد الغرب لمجابهتها] .

ولقد كان الإسلام قوة . . نعم . . ولكنه لم يكن غازيًا . . وإنما كان فتحا للقلوب . . وهو ما فات « مونتجمرى » التنويه به !!

ولقد كان المجاهدون . . يقاتلون من أجل انتصار الحق . . الذى كان هواهم معه . . حيثما كان . . المهم أن ينتصر على الوثنية الباغية .

ونقرأ دليلا على ذلك قوله ـ عز وجل : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٢ ـ ٤].

وفى هذا بيان للقوة الحقيقية التى :

١ ـ لا تستمد القوة إلا منها .

٢ ـ ولا يكون النصر إلا بها .

٣ ـ وأن التزود بما أمرت من مبادئ . . أمضى سلاح للنصر .

٤ ـ وحدة المشاعر ضد الوثنية التى كان علمها .

٥ ـ يعلمون ظاهرًا : قشرة المادة .

٦ ـ ويتركون الآخرة التى يولد العلم بها الحس الأخلاقى . . ونقاء الضمير الحس الأخلاقى الذى نهى عن قتل الأبرياء فى الحرب . . والضمير الحارس على كل قيمة ، فى السلم والحرب على سواء .

٧ ـ ما فى الآيات الكريمة بما يمكن أن نسميه اهتمام المسلمين بالتغيرات الدولية المنسجمة مع الحق الذى يؤمنون به .. ويجاهدون حماية لها .. ولم يكن جهادهم أبدا عدوان أو تصفية لحساب قديم .

• • •

من أخلاق العسكرى المسلم

فى حرب فارس :

صالح « أبو عبيدة » أهل « كسكر » فجاؤوا إليه بطعام شهر .

فسألهم : هل أكرمتم الجند بمثله ؟!!

فقالوا : لم يتيسر . وإنا لفاعلون .

فقال : لا حاجة لنا به : بئس المرء « أبو عبيد » إن صحب قومًا من بلادهم واستأثر عليهم بشىء !!

والله .. لا آكل إلا ما يأكل أوساطهم !!

• • •

هدف الدعوة

لا يرغب الإسلام فى احتلال البلاد . ولا إذلال العباد .

كل ما يريده هو : تنبيه العقل بالبرهان : ليصحو .. ثم يكتشف ، وإيقاظ القلب بالحب .. لتكون الأخوة .. ثم تنشيط الإرادة .. لأنها أداة تنفيذ ما تيقنه العقل . وأحس به القلب .

ثم بعد ذلك يترك العقل حرًا .. والقلب حرًا .. وذلك بالإيمان الذى يعمر الديار ، عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

ومن سنته ﷺ نقرأ :

طلب ﷺ من قريش أولاً أن يعترفوا بأن القرآن ليس من جنس كلام البشر .. تحكيمًا لذوقهم الأدبى ..

وضمن ذلك :ما دام كلام رب العالمين .. فقد وجب عليهم الإيمان بما يدعو إليه ، ومنه : الاعتراف بأنه نبى ولما طال الرد . واشتدت الخصومة قطع عليهم الطريق بقوله عز وجل : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾ [الإسراء:٨٨] .

إن قليل القرآن وكثيره سواء فى إثبات إعجاز القرآن .

ومن تحداهم قادرون على التمييز بين كلام الخالق وكلام المخلوق .

ولكن .. مازالوا يشوشون على القرآن .. حتى أوشكوا أن يصلوا بباطلهم إلى ما لم يدركه المسلمون بحقهم ؟!!

حتى لقد بلغ مكرهم مداه حين شككوا فى الشعر الجاهلى وهو واحد من أدلة قرآنية القرآن .. فالشعر ديوان العرب : يتجلى فيه مزاجنا وتقاليدنا .. كما تتجلى الصورة فى المرآة .

فأين عقولهم أمام هذه الحكمة فى الدعوة ؟

فعندما ناداهم من فوق « الصفا » ، لم يقل ﷺ لقومه : إنى رسول

الله إليكم جميعًا .. فاتبعونى .. وإلا كان قاهرًا لهم ..

ولكنه من باب العقل يستدعيهم : محمد صادق ، وكل صادق لا يكذب فمحمد لا يكذب .

ثم بعد ذلك قال لهم: « **إنى رسول الله إليكم جميعًا** » .

من عوامل نجاح الداعية :

أ ـ **الانسجام مع الفكرة :** ولا يتم ذلك إلا بمعايشتها: طُلب من « نجيب محفوظ » أن يكتب عن « حرب أكتوبر » فقال : يكتب عنها من شهدها !

ويذكرنا هذا الموقف بما قرره « العقاد » حين قال : لا يكتب شعرا عن الصحراء .. إلا ساكنها .

ب ـ **ضرورة معرفة أحوال الناس :** مع عدم الاغترار بمدح من يطلبون الإطالة.

ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة : فى قوله : « **إن منكم منفرين** » بينما نحن مطالبون بأن نحبب الناس فى الله الذى لا يُحدّ غناه ولا تعدّ عطاياه متجاوزين قطاع الطريق من المنفرين .. ذاكرين قولهم : يا رب : لو دعوتنى إلى النار لأجبتك فكيف وأنت تدعونى إلى محبتك ؟!!

ولاحظ أنه عليه السلام :

أ ـ لم يصرح باسم معاذ ـ رضى الله عنه .. ولا باسم أبّى ـ رضى الله عنه.

ب ـ ولقد كانﷺ يصلى المغرب بالأعراف . والفجر : بالسجدة والإنسان، ثم خفف مراعاة لأحوال الناس .

جـ ـ الذكاء : سرق الرجل « الأوز » .. ثم دخل المسجد بعد أن أخفى جريمته ..

وعبثا حاول الناس معرفته .. دون جدوى ولكن شيخ المسجد قال : يسرق

أحدكم . . ثم يدخل المسجد وعلى رأسه ريشة ؟!! فلما تحسس رأسه . . عرفه الناس !! .

ومن واجب الداعية استثمار المواقف كلها لحساب دعوته :

قيل لأحد الصالحين : ممن تعلمت الحكمة ؟ قال : من الحمقى !! كلما أخطأوا . . تجنبت خطأهم !.

● ● ●

معرفة أصناف المدعوين

١ ـ منهم : ناضج العقل . . تكفيه مجرد المقارنة من مثل قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧] .

٢ ـ ومنهم : من يحتاج إلى شرح مستفيض .

٣ ـ ومنهم : عقلية جامدة لا يخاف إلا صاحب القوة من السلاطين .

● ● ●

القدوة

إن المسلم الذى لا يطبّق الإسلام : كرجل يمسك بيده طرف ثيابه ، فما انتفع بها . وما حمته : لا من البرد ، ولا من الحر .

● ● ●

من خداع الوجدان

وقد تتعاطف مع الغير . . لأنك راض عن نفسك . . وقد تنقم منه . . لأنك ساخط على نفسك . . . وهكذا : تنعكس مشاعرك على الآخرين !!

وقد لفت نظرى . .

أ ـ شدة حساسية الإنسان . . . الإنسان الذى يتردد بين الحق . . والواجب بين : ما ينبغى . . وما يبتغى هو . .

ثم لا يتردد فى الانحياز لما يبتغى . . غافلاً عن حق الآخرين .

ب ـ وبعد اللقاء فى المسجد . . نعود إلى الدنيا التى نفىء إليها .

ثم نلتقى حول المأدبة فتكون دروس عملية . .

وكنت أقول لمن دعانى : المئات التى أنفقتها على مائدة ليس فيها يتيم واحد كان الأفضل ادخار نفقاتها لتذهب إلى البطون الجائعة .

وما أكثرها . . بدل هؤلاء الأغنياء الذين تطعمهم وهم طاعمون !

ولكنه مصمم على سلامة قراره . . والذى ترتب عليه من السلبيات ما يذهب بالحسنات . .

وحول المائدة يحدث الآتى :

أولاً : نقد بعض الواعظين . . نقدًا يتحول فى النهاية إلى . . مدح مطلق لواحد . . أو ذم مطلق لزميله .

مع أن الإسلام يرفض ذلك . . يرفض الإفراط . . صعودًا . . منعًا للاستبداد . . كما يرفض التفريط : هبوطًا . . منعًا للظلم . . فكلاهما بُعد عن سواء الصراط .

إن العامىّ إذا نافق . . فقد كذب .

أما العالم فإنه إذا نافق . . فقد أضاق إلى الكذب . . الغش والخيانة !

إن الداعية : لوح من البلور . . يُظهر النور . . نفسه .

أما غيره : فلوح من الخشب . . يُظهر النورُ حقيقته الخشبية . . لا غير !!

وأحيانا كنت أجد الخطيب المغرور . . والذى يدفعه لون من الحساسية إلى

ازدراء هذا المسؤول . .

وكنت أقول له . . ما دامت الإمكانات غير متكافئة . . فليكن التواضع شرعتنا .

ما أنت إلا كزرع عند خضرته بكل شيء من الآفات مقصود
فإن سلمت من الآفات أجمعها فأنت عند كمال الأمر . . محصود!!

وربما قال لى : إن « جندب بن زهير » قال للرسول ﷺ : إنى أعمل العمل لله تعالى . . فإذا اطّلع عليه أحد . . سرّنى ؟

فقال له ﷺ : « **لك أجران أجر السر .. وأجر العلانية** » .

وكنت أعود به إلى آى القرآن الكريم لنجد فيها ما يشفى الغليل . ويصحح المفاهيم . . قبل أن تتداخل القيم :

قيمة الاعتزاز . . بقيمة الغرور ، أو قيمة التواضع . . بمعنى الهوان .

يقول الله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فالبشر من البِشر . . وهذا سر التعبير به . دون « الإنسانية » لما التصق بالإنسان من نقص النسيان :

وأنا مثلكم : لست جنسًا غريبًا . . ولست نسيج وحدى ، ولكنى مثلكم أنتم بالذات :

بشر . . لتكون الأسوة ممكنة . . يوحى إلىّ : لتتحقق الثقة بما أقول .

وتتراءى من خلال ذلك قيمة التواضع . . لا سيما فى تعاملنا مع الحكام . . ما دمنا نقول ما نعتقد أنه الحق .

أما بعد :

فإذا كنت عبر هذه الصفحات فى مقام الناقد . . فقد أكون فى بعضها

منقوداً . .

فكثيراً ما أستمع إلى ما سجلته . . أو أقرأ ما كتبته فأقول : لو كان كذا لكان أفضل !!

وإذا كنت حاد الطبع أحيانا . . عكس ما أقرره فى هذا الكتاب . . فقد كانت هذه الصفحات حكم القاضى بعد ما زايله الغضب . . ليجىء الحكم أقرب إلى الصواب . .

وتلك واحدة من فوائد هذا الكتاب . . إلى جانب ما حفل به من نقول . . سجلتها مما أقرأ وما أسمع : مما لا يسمح به اللقاء العابر . .[١]

وعلى الله قصد السبيل .

د / محمود محمد محمد عمارة

---

(١) ربما كرر المؤلف الحديث عن بعض القضايا . . والحق أنه : « التقرير » وليس «التكرير » تقرير ما سبق . . لتعدد المواقف . . مشفوعا بزيادة إن شاء الله تعالى.

أيها الداعية المسلم .. توكل على الله .

ويحملك على التوكل : ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] .

فوضوح الحق من شأنه أن يؤكد ثقة الداعى بربه ثقة تحمله على التفويض للمقتدر - عز وجل . واستصغار كيد الأعداء

• • •

من مقاصد الأمر بالمعروف

أولاً : إقامة حجة الله على خلقه . وذلك قوله عز وجل : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] .

ثانيًا : خروج الآمر من عهدة التكليف : وذلك قوله عز وجل : ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٦٤] .

وثالثًا : رجاء نفع المأمور. . وذلك قوله تعالى بعد ما سبق وفى نفس الآية ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وكان ذلك ردًا على من حكى القرآن قولهم : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤] .

وقوله ﷺ : « **بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر .. حتى إذا رأيت شحا مطاعًا . وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة . وإعجاب كل ذى رأى برأيه .. فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائكم أيامًا ، الصابر فيها كالقابض على الجمر : للعامل فيهن أجر خمسين رجلا . يعملون مثل عملكم** » ا ، هـ [١] . أخرجه الترمذى وصححه .

« وهذه الصفات المذكورة فى الحديث : من الشح المطاع . والهوى المتبع مظنة

---

(١) أضواء (٢/ ١٧٥ ، ١٧٦) .

لعدم نفع الأمر بالمعروف .. فدل الحديث على أنه : إن عدمت فائدته . سقط وجوبه » ا. هـ (١) .

● ● ●

(١) أضواء (٢/ ١٧٥ ، ١٧٦) .

الفصل الأول

الداعية فى معترك الحياة

الخطوة الأولى على طريق التغيير :

تبدأ الخطوة الأولى عندما يرى المسلم المنكر واقعًا . .

والتعبير النبوى الشريف بصيغة الماضى «**من رأى منكم منكراً** » .

ربما يفيد : إذا رأى المنكر الذى تم فعلا . . وتوفرت أركانه . .

أما المنكر المتوقع . . فللداعى معه شأن آخر . . إنه متروك لحكمته التى توجه فى الإطار الإسلامى الداعى إلى الإبقاء على البيئة نظيفة . . وعدم خوض معركة فى غير ميدان .

وكذلك المنكر الذى يقتصر ضرره على صاحبه إذا ارتكبه فى الخفاء :

ولا بأس هنا من هذا الاستطراد :

١ ـ إذا وقع المنكر فعلا . . فالأمر متروك للحاكم الذى يقدر العقاب المناسب.

ويبقى دور الواعظ : عتابا يمنعه من العودة . .

٢ ـ ولكن ما هو الحكم إزاء المنكر :

أ ـ الواقع الآن .

ب ـ والمتوقع حدوثه .

● ● ●

المنكر الواقع :

دور الداعية التذكير والتحذير :

وكمثال على ذلك : وقوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠] .

١ ـ الدعوة منوطة أساسًا بالرجال فهم القادرون على تحمل مسئولياتها .

٢ ـ جاء « من أقصى » ولم يمنعه بعد المسافة .

٣ ـ ثم إنه جاء « يسعى » والسعى فى اللغة يعنى سرعة المشى .

٤ ـ فإحساسه بالمسؤولية كان حادًا وفعالاً فأرشد قومه بلا تسويف .

٣ ـ المنكر المتوقع :

يحتمل التأخير ـ اللهم إذا أحس الداعية أن فى وقوعه خطرًا لا يمكن تلافيه لو وقع .

• • •

الداعية .. والواعظ

إذا كان الواعظ محدود المسؤولية .. من حيث كان جمهوره من المسلمين مثله .. فإن الداعية يتحرك فى ميادين أوسع :

من حيث إنه يواجه المسلم وغيره : وهنا .. وهناك ..

ومن أجل ذلك .. كانت مهمته أصعب !

الواعظ .. طبيب

وما دام الواعظ يتحرك فى بيئته . ويخاطب أهل ملته .. فهو فى حاجة إلى قدر من الحيوية يحرك به الجامد .. ثم إلى قدر من الذكاء يمكنه من قلوب

سامعيه، الذين قد يرون أنه لا يقدم لهم جديداً . . بالإضافة إلى أنه لا كرامة لولى فى وطنه .

وإذن . . فما أحوجه إلى جهد مضاعف . . يهز به الوجدان :

يقول الأستاذ البهى الخولى :

[أيها الواعظ : حذار من الوعظ الجاف الذى لا حياة فيه .

وحذار من الوعظ الركيك . . المفكك . الذى لا غرض له .

وحذار أن تقف موقفًا لا تنوى أن تخرج منه بصيد .

قد يكون الوعظ السلبى ضروريًا فى وقت ما . . ولكنه على كل حال ضار فى أوقات النهضات . وإرادة التخلص من الفساد العام .

فإذا استوت النهضة على أمر الله . . وتخلصت الأمة من الفساد . . جاء دور الوعظ . السلبى . . الذى يحذر . . ويزجر . . ويمنع . . لا الذى يثير ويغير . وينقل .

وتكون مهمة الواعظ حينئذ أشبه بالطبيب ، الذى يقوم على رعاية الجسم السليم بالوقاية] (١) .

ثم قال مؤكداً أهمية دوره :

[إن مهمة الواعظ هى : تغيير ما بنفوس الناس . حتى يغير الله ما بهم من فساد .

وكل وعظ لا يرمى إلى هذه الغاية . ولا يبلغ هذا الهدف . . فهو جهد ضائع . و عمل باطل . . فلا تكن كذلك .

إن الذى يقبل على الناس فى حذر وخفة فلا يمسهم إلا مسًّا رقيقا ، كما

(١) تذكرة الدعاة (٣٣، ٣٤) .

يخشى عليهم أن ينكسروا . . ولا يريد بما يسوق إلى الناس من قصص إلا أن يجلس الناس من حوله . ثم يخرجوا وقد أسعدهم بوقت قضاه معهم فى مؤانسة . ومتعة عاطفية بريئة . .

هذا وعظ سلبى . . لا شأن لك به .

أما رسالتك أيها الواعظ تقتضيك أن تدخل على مشاعر جمهورك فى حكمة :

فتحرك فى وجدانهم . واستثر عواطفهم إلى الله .

فإذا تأتى لك ذلك . ولانت نفوسهم لقولك . فاصنع منهم ما تشاء صنعه . . أَبِن لهم عن غرضك . . وابعث بآمال قلوبهم إلى ما تحب أن يصلوا إليه . . فإنهم مستجيبون لك إن شاء الله] (١) .

● ● ●

الواعظ والممثل

يقول المجربون : قد يكون الممثل أشد تأثيراً من الواعظ : لماذا ؟

لأن الممثل : يجعل المتخيلَّ حقيقة . . ولما كان كل إنسان له آمال يود تحقيقها . . فإن الممثل ينوب عنه فى تحقيقها . .

أما الواعظ : فقد يجعل الحقيقى متخيلا . . ولكننا نقول :

إن الممثل قد يتملق عواطف المشاهد ، أما الواعظ فهو دائن يطالب المدين بحقه !! ودعوته تدور على محور الحق أولا وأخيراً وليس فى خطته أن يتملق عواطف الجماهير .

وفى هذا يقرر الأستاذ البهى الخولى ، مؤكداً أن تحول الواعظ إلى ممثل . . يحبط عمله .

---

(١) نفس المرجع .

يقول العقاد فى ذلك :

[لابد أن ينتقل الوعظ من المحاكاة إلى الابتكار . .

ويخرج من حفائر الموت . إلى ميادين الحياة .

ويخاطب الناس خطاب الإقناع ، بعد أن خاطبهم طويلاً خطاب الإلزام . .

وأن يعمم الإقناع فى خطاب العقل البشرى : فلا يقصره على من يؤمن بالقرآن والسنة من المسلمين .

بل يجعله مقنعًا . . خليقًا بالبحث والنظر فى رأى كل صاحب عقل وتفكير] (١) .

إلى جانب يقظته . وسرعة بديهته . وقدرته على تجاوز المفاجآت :

يعينه على ذلك : أن يفهم قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فلا تلق التبر لمن لا يعرف قيمته وقد تتعب نفسك . فتكون على غاية ما يكون الوضوح . . ولكن خصمك جاحد معاند فتلمس جذوره أولا :

فإن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعظه . . وإلا . . فلا .

لا تلق التبر لمن لا يعرف قيمته !

والمقدمة . . وتبقى المقدمة مدخلاً لابد منه . . لماذا ؟ قد يكون شعورك مرهفًا . لكن المستمع ليس كذلك فارفعه إلى مستواك . .

بمقدمة ، تشوقه . . تفتح مشاعره لك . .

إن المشاعر بيوت مغلقة . . وكما أننا مأمورون بالاستئناس قبل دخولها . . فكذلك المشاعر . .

---

(١) الرسالة (٤/ ٣٢٩) .

فوجئ الشيخ [1] يومًا بموقف حرج .. فماذا صنع ؟ يقول :

[ودعيت إلى إلقاء محاضرة فى هذه الكلية ، فلم يرد أن يقدمنى إلى السامعين على العادة فى مثل هذا الموقف ، وأحسست كأنه كره أن يعترف أمامهم بأنه كان تلميذى .

فكان جوابى على ذلك أننى بدأت المحاضرة بحمد الله على أن جعل من تلاميذى الذين كانوا يقعدون أمامى ، من صار أستاذًا كبيرًا ، أو عميدًا فى كلية ، أو قاضيًا فى محكمة ، وأن منهم فلانًا ، وأشرت إليه ، ليعلم الناس جميعًا أنه كان من تلاميذى .

ما أردت من ذلك التعالى عليه ، ولا أردت الفخر بأننى درسته ، وليس ذلك من شيمى ولكنى وجدته لا يزال بحاجة إلى درس آخر من الدروس التى كنت ألقيها عليه وعلى إخوانه ، فألقيت عليه هذا الدرس فى الوفاء وفى كرم الأخلاق] .

ثم استطرد الشيخ قائلاً : [فرب تلميذ فاق أستاذه . عمل الأستاذ يا أيها القراء مثل واد بين جبلين ،فى وسطه جدول صغير ، لا يستطيع السائح أن يصل من جبل إلى جبل حتى يقطع الجدول ، وليس على الجدول جسر يجتاز الناس من فوقه ، فقام عليه من يجيز المسافرين ، ينقلهم من ضفة إلى ضفة حتى يصل بأحدهم إلى الجانب الآخر، ثم يؤم الجبل صُعُدًا ، فيبلغ منهم ناس عاليه وهو لا يزال فى مكانه .

هذا مثال الأستاذ ، فإن أنا قلت إن فلانًا وفلانًا كانا من تلاميذى فإنما أعنى السبق الزمنى التاريخى ، ولست أعنى أنهم يبقون التلاميذ دائمًا وأبقى الأستاذ دائمًا] .

● ● ●

(١) المرحوم الشيخ على الطنطاوى

الداعية ... والفنان

تمهيد :

يقولون : هن أخوات ثلاثة :

العلوم . . والفنون . . والسلوك .

فأما العلوم . . فقانونها : الحق .

والفنون . . فقانونها : الجمال .

وأما دنيا السلوك . . فقانونها : الخير .

وعلى رءوسهن تقوم الحضارة . . كما يقوم المثلث على أضلعه الثلاثة . . تلتقى الأضلاع على الرءوس . . ولكنّ واحداً منها لا يلغى الآخر] [١] .

● ● ●

مسئولية الداعية

فى حياتنا مجموعة من الفنون وعليها تدور حياتنا . . من زراعة . . وصناعة . . وتجارة . .

وهى تبدأ أولا عملية . . ثم تنشأ عنها قواعد . . تصير علما يُستودع كتبًا . .

والفن . . هو العنصر الأول . .

والفنون قسمان : مفيدة . . مثل الزراعة والصناعة . . وجميلة كالحديقة يصفها مفتون بجمالها فيقول : رأيت حديقةٍ غناء . . وهكذا الرسام . .

موقف الأديب :

ولكن الأديب حين يصفها بعين خياله . . فإنه ينقل إلينا إحساسه بها . . فكأنما نعيش فيها : نستروح نسيمها . . وننشق عبيرها .

---

(١) مجلة الهلال . سبتمبر ١٩٧٠م . د .زكى نجيب محمود

والجمال .. والفكرة من عناصر وجود الأديب وهما وسيلتاه لإبلاغ ما يريد..

أما الموسيقى .. فإننا نستمتع بمعزوفته .. وإن لم نفهمها !!

ألا إن المعانى معروضة فى الطريق .. وكل إنسان يعبر عنها بأسلوبه الخاص..

وقد لا يكون لواحد منهم دين يعتنقه ويصدر عنه .. ولكن ذلك لا يمنعه من الوفاء بحقوق وظيفته ..

وظيفة الداعية :

ودون هؤلاء جميعًا يأخذ الداعية موقعه الريادى القيادى ..

وإذا كان هؤلاء يخاطبونك .. ثم لا يدعونك .. فإن الداعية دونهم جميعـًا.. يدعوك .. ويدعوك .. إلى الدين القويم .. وما يثمره من خلق كريم .

أما الذى يدعوك إلى الحقيقة العلمية الكونية أو الفنية فوظيفته تنتهى عند : مجرد البلاغ .

أما الحقيقة الدينية : فبلاغ .. ثم مطالبة بالعمل بها .

ومن هنا كانت أهمية المسؤولية المنوطة بالداعية .

الإحساس بالمسؤولية من أسس السعادة فى الإسلام .. وعلى هذا الأساس قامت نظرية الإسلام التربوية التى طلبت الاعتماد فى السعى على الإيمان والعمل الصالح .

● ● ●

إمكان المصالحة بين الفن والدعوة

أجل . . فى الإمكان التكامل . . بدل التقاتل . . لنتعاون فيما اتفقنا عليه. . بدل أن تذهب طاقاتنا أباديد . .

وفى تاريخنا شاهد على إمكان هذه المصالحة . . أو هذا التواصل والتكامل .

قال المتنبى :

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب

ويا ليت الذى بينى وبينك عامر   وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود. . فالكل هين   وكل الذى فوق التراب تراب

وقد أخذها « الصوفيون » فترنموا بها . . وحجتهم أن الأحق بذلك هو الله عز وجل . . وليس الخليفة . .

والسؤال الآن :

لماذا لا نوظف « الفن » لخدمة الدعوة ؟

إن فى الحياة قيمًا أخلاقية . . يؤمن بها كل البشر . . فلماذا لا نتعاون على التمكين لها فى قلوب الناس ؟؟ وتلك مسؤولية الدعاة .

• • •

هذا أوان الجد

ألا إن لحظات الخطر أقدر على جمع شمل الأمة أكثر من لحظات السرور . . وليس هناك خطر أكبر مما يتهدد أمتنا اليوم فلابد من أن نتحد فى مواجهة الخطر الداهم . .

لقد عرفت أجسامنا معنى التكيف . . احتفاظًا بسلامتها فكيف تغيب عنا آيات الله فى أنفسنا ؟

كيف لا نتحد .. وكل ما حولنا يعزف لحن الوحدة .. حتى يبقى ؟!

ومن إشارات بعض الباحثين هنا :

أجسامنا .. لا تخلط بين العدو .. والصديق .

ميكروب « التيفود » يستطيع قتل ميكروب « السيلان » إذا وجدا فى جسد واحد ؛ لأن التيفود يرفع حرارة الجسم .. إلى حد يقتل ميكروب السيلان .

ولكن : هل يقبل الجسد المصاب بالسيلان .. أن يدخله التيفود .. ليخلصه منه ؟ كلا ..

لأن التيفود يعيش بالتهام خلايا الأمعاء .. فوجوده مدمر .. ولا يمكن أن تقبله لمجرد أنه عـدو عدوها .. ما دامـت مصالح هـذا التيفود متناقضة مع أجسامنا .. وحياتها مرتبطة بالقضاء عليه .. وحياته مرتبطة بالقضاء عليها !

ومع هذا .. فالأجساد على وفاق مع ميكروب آخر .. يعيش فى المعدة يلتهم بعض الفضلات التى لا يستطيع الجسم هضمها .. فالجسم يستفيد منه . لأنه يخلصه منها .. وأيضاً يفرز مادة يتغذى بها الجسم وهو يستفيد من الجسم .

أجسامنا تفهم من هو الصديق .. وهو ما تتفق مصالحها معه .. وتفهم أن عدوها من تتناقض مصالحها مع مصالحه ..

ترى : لماذا لا تفهم عقولنا ما لا تفهم أجسامنا ؟!

ليكن معلومًا بالضرورة أن الإسلام لا يحرم الفن .. وإنما يحرم الرذيلة .

[فالفن الملتزم .. ينمى المشاعر الإنسانية ويحضنا على المحاسن .. أما أن تتحول المرأة المسلمة فى محراب الفنون مثلا إلى صديقة لرجل أو عشيقة لآخر وخادمة له تحت شعار الحب والهيام .. وتتفشى عندنا الغواية ؟؟ فأين الشرف .. والعفاف .. والعرض المصون الذى يسجله الغرب لنا ويود أن ينقله إلى رحابه ؟!

لقد خلت بلادنا من الفاحشة قرونًا طويلة رغم انتشارها فى المجتمع الغربى

بشكل طبيعى . فهل تعود إلينا مع أبناء رذائل الحضارة الغربية المرموقة ؟

والشعر .. والنحت .. والتمثيل .. والموسيقى .. وغيرها من الفنون الراقية لا يعاديها ديننا .. ما دامت قد تجردت مما يسىء إلى العقيدة ..

فقد مارس أبناء الإسلام كافة الفنون فى تعبيرها عن النفس البشرية .. وأبدع بنوه أشكالا متنوعة من الشعر والموسيقى والتصوير والنحت والرسم والعمارة .

وكان ذلك أبلغ تعبير عن هوية وذاتية عريقة عريضة اتسعت لكل الخصوصيات الحضارية للأجناس والأمم . التى دخلت فى دين الله وتباركت بسنته .

والإسلام لم يمنع الصورة ولكنه منع تقديسها . ولا يحرم السينما والفيديو مادامت النية في استخدامها خيراً .

إن الفن ليس عيبا .. وإنما هو .. علم مفيد للناس .. إذا كان يحمل رسالة مضمونها أن ترتقى بالحياة إلى الأفضل .

وهو يكون كذلك إذا لم يتعارض مع القيم وحث على الفضيلة والطهر .. وأسهم فى حل المشكلات .. وميز الخبيث من الطيب] ؟! [1]

• • •

بل الداعية .. أسعد حالا

يقول واحد من فلاسفة الغرب : [إن القدر الأكبر من سعادة الإنسان إنما ينبع من داخله هو وليس من الظروف المحيطة به] .

ألا وإن الفلاح البسيط .. يرى من كوّة جداره الشمس ضياء والقمر نوراً .

ومن خلال هذه الكوة نفسها تهب عليه نسمات تحمل إليه عبق الزهور ..

(١)عن كتاب : المسلمون وتقليد الأجانب (٢١٧) للدكتور عاصم عجيلة .

بينما جاره الغنى فى قصره لا يحس بذلك .

إن السعادة ليست فى المكان . . وإنما هى فى داخل الإنسان .

والإنسان بالدرجة الأولى هو : الداعية التى لابد أن يرضى بما قسم الله . . . وإن بدا غيره أوفر مالاً .

إن الثروة العقارية . . تنهار .

والثروة المالية . . تضيع .

ولكن الثروة الأخلاقية باقية .

[فلنتأمل هذا القصر العالى . . يتولد على مدخله الليل والنهار . . كيف تعاقب عليه سلطان بعد سلطان . . بكل ماله من أبهه عاش ساعته الموعودة . . ثم مضى إلى غايته . . إن الباب الذى دخلنا منه هو الباب الذى سنخرج منه . . ولو كنا قد جئنا كالماء . . فإننا سنمضى كالريح . .] .

لكى يبقى الداعية سعيداً :

أيها الدعاة . . هذا قدركم . .

إن أمتكم آخر الأمم . . وأنتم آخر أمتكم . . تسوقون الناس . . والساعة تسوقكم والساعة أدهى وأمر . .

والمنتظر ان يلحق الآخر بالأول .

لن تنالوا ما تحبون . . إلا بترك ما تشتهون . .

ولن تنالوا ما تأملون . . إلا بالصبر على ما تكرهون . .

تأتى الأمور بالصبر . . والمستعجل . . ينقلب . . وينكبّ على رأسه .

ورأيت بعينى فى البادية : أن المتأنى أحرز السبق على المعجلين .

وقد عجز الجواد السريع من شوط . . وكان الجمَّال ما زال يسوق على

مهل!!

فيأيها الدعاة .. تريدون إدراك المعالى رخيصة ؟!

لابد ـ دون الشُّهد من إبر النحل .

تقدموا .. والمستقبل لكم .. وليراجع الأحفاد صحائف الأجداد .. مراجعة يجدون بها ما أبْلت الأيام من قوانا .

ولكم فى أهل الكهف أسوة حسنة .. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ [الكهف: ١٠]

والشاب الناشئ فى عبادة الله عز وجل يساوى « الإمام » أى : رئيس الدولة العادل .

وربما كان هناك من يسأل .. ما للدعوة والفن .

وبالتالى .. ما للفنان والداعية ؟!

وأبادر فأقول : كان الفنان زمان .. كان يسمى شيخًا ..

الشيخ سيد درويش . الشيخ زكريا أحمد ..

وأخيراً : الشيخ سيد مكاوى ..

بعد هذا التمهيد نتساءل .. ما الذى نريد أن نقوله تحت هذا العنوان ؟

والجواب : أننى فى رحلاتى .. ومن خلال مشاهداتى كنت أسمع هجومًا على الفن ولكنى كنت أرى كثيراً من الإيجابيات فى حياة الفنان ..

وعلى كثرة ما يحصيه الناس من سلبيات تجعل من حياة الفنان سبهللا .. إلا أننى حاولت اختراق هذه الحياة .. لأسجل بعض الإيجابيات .. التى يحق بسببها أن يقول الفنان إنه : يخدم بها نفسه وأمته .

ثم لأنتهى إلى هذا السؤال : ماذا على الداعية أن يفعل .. ليدعى حقًا أنه يخدم دعوته ؟

وماذا فى حياة الفنان مما يمكن أن يكون له فيه قدوة وأسوة ؟!!

من إيجابيات حياة الفنان

أ ـ قوة الإحساس بالفكرة . . والحماس لها .

ب ـ عندما يفرض الفنان احترامه على من يريد استغلاله مجانًا .

جـ ـ وجود المستمع .

د ـ التضحية فى سبيل المبدأ .

هـ ـ إعداد الولد ليكون امتدادًا لأبيه .

و ـ أهمية « الديكور » فى التمكين للفكرة .

ز ـ استغلال الفن فى عملية الإصلاح الاجتماعى .

ح ـ الاندماج فى الدور .

قوة الإحساس بالفكرة :

كان « عبد الوهاب » يعيش فى الأحياء الشعبية أيامًا . . قبل أن يصوغ اللحن الجديد !

ليتهى إلى قوة الإحساس بما يريد عمله . .

ثم ليكون أقدر على التعبير عنه . . بل التأثير فى غيره . . وإلا . . فإنه وفى غياب الإحساس . . كيف يؤثر فى الناس ؟! إنه لا يؤثر إلا المتأثر .

إن « الديوث » لا يحسن الكلام عن العرض .

وإنما الإنسان الحساس . . الشاعر . . الذى ينقل شعوره إلى الآخرين . . وإلا فهو مجرد وزّان !!

ذكاء الفنان :

كان « الرسام » يبيع لوحاته فى نفس المكان الذى يرسم أحد مشاهده .

وكان ذلك أدعى إلى تزاحم سكان هذا المكان . . ليتزاحموا على لوحاته . . التى تصبح ذكرى عزيزة لديهم . .

وبذلك استطاع أن يتملق عواطفهم لتسويق بضاعته !

وقبل ذلك كان يرصد الواقع بدقة . . لتجىء لوحته طبق الأصل تمامًا .

وقد عانى فى سبيل ذلك ما عانى . .

ومن أمثلة ذلك :

أنه أراد أن يرسم زورقًا فى يوم عاصف . . فطلب من « البحارة » أن يربطوه بساريته . . ومكث على ذلك أربعة أيام حسومًا . . أحاط فيها خبرا بكل دقائقه !

العمل فوق العواطف :

فى مذكرات الفنان « يوسف وهبى » يرحمه الله : أن أمه ماتت . . لكنه وبعد نصف ساعة من رحيلها كان على خشبة المسرح يؤدى دوره . . مستعليًا به فوق آلامه وكذلك فعل زميله « استفان روستى » .

ولم يكن حب العمل هذا حكرًا على الرجال . . ولكنه كان كذلك عند النساء فقدت الابنة البكر للفنانة « علوية جميل » . . وكسرت ساق زميلتها « نجمة إبراهيم» ومع ذلك . . فقد كانتا حريصتين على أداء دورهما . . كأن شيئًا لم يكن !!

وقد أسمع من يقول : وهل كان حرصهم على مواقيت الصلاة وأدائها . . على نفس المستوى . . ولكنى أقرر . . أننى أترك ذلك لهم . . فلا أحاسبهم على أمر بينهم وبين الله عز وجل . . غير أنى فقط أؤكد على قيمة « حب العمل » وكيف كانت فوق مستوى العواطف الشخصية . .

وفى بيئة محكومة بهذه العواطف .. تبصرة وذكرى لكل مقصر فى عمله من دعاة الحق ..

ولكن الذى نقوله هنا : أن للدعاة فى هذا الباب .. ما يأخذ بالألباب ..

مات لأبى يوسف ولد .. فلم يغادر الدرس .. وترك الجيران يدفنونه ! وبقى فى درس شيخه أبى حنيفة !!

وكان « القزوينى » يلقى درسًا كل يوم ومعه ابنه « محمد » وذات يوم .. لم يحضر معه .. لأنه مات .. فلما أُخبر فى الدرس .. لم يظهر عليه تأثر وقال للناس : إن محمداً دُعى فأجاب .. فمن أراد الصلاة فليحضر ..

الفنان يفرض احترامه:

فرض ممثل المسرح احترامه على من طلبه .. فقد رفض مواصلة التمثيل .. حتى يأخذ بقية أجره .. والذى يحدده هو !!

وذلك واحد من قوانين الاقتصاد .. والذى عبر عنه صاحب « مكتبة » فى «تلا » حين قال لى : لا أستطيع بيع كتبك كما تريد بثمن تكاليفها فقط لأن العرض الرخيص من شأنه أن يزهِّد الناس فى السلعة !!

وقلت له : وكان التاجر فى قريتى يرفض المساومة على السلعة بعد أن حدد ثمنها الغالى .. وكان يقرر معتزاً إذا لم يدفع فيها الثمن .. فسوف يلقى بها فى البحر !!

وفى مجال الدعوة شيء من هذا القبيل .. ونذكر هنا قوله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المجادلة : ١٢] .

وربما جاز لنا أن نقول : إنها بالإضافة إلى أن التصدق دليل على الصدق .. فهى من ناحية أخرى .. تخفيف من الله عز وجل حتى يتفرغ ﷺ للبلاغ ..

وربما يذكرنا ذلك بما يفعله الطبيب اليوم من المبالغة فى ثمن « الكشف » إرادة التخفيف من حدة الزحام .

وربما كان ذلك واحداً من الدروس فى حياتى .. فقد تلح أطراف كثيرة فى دعوتى لإلقاء درس .. لأننى لا أكلفهم أجراً ... فهم من مغرم مثقلون .. وكان لابد من المطالبة بهذا الأجر .. على الأقل لأتمكن من أداء مهمتى فى حدود إمكاناتي .. وليكون للفقراء فيه نصيب !!

وجود المستمع :

يقول عبد الوهاب : لا يكفى .. كلمات .. ولحن .. وصوت .. ولكن.. لابد من مستمع..

وقد يكون شاهداً على صحة ذلك .. ما أراه أحيانًا من احتشاد المستمعين.. وما يشير إليه من رغبة فى الاستماع .. ثم ما أراه أحيانًا ..

حين يكون « المدرّج » واسعًا .. والطلاب فيه مجموعات متفرقة .. مجرد « بقع » تعطيك معنى الملل .. والزهد فيك .. وفيما تقول !!

عندما يجد الفنان نفسه :

كان الفنان حريصًا على أن يكون ممثلا مسرحيا .. لماذا ؟

لأن جمهور المسرح معه : يسمعه .. ويراه .. بخلاف جمهور « السينما ».

ومعنى ذلك أنه منطلق من سنة نفسية هى : أن نشاط المتكلم وعطاءه .. إنما يتم على قدر إقبال السامع عليه ..

ولما كان مُشاهد المسرحية يرى ويسمع .. فهو أكثر إقبالاً .. وبالتالى أكثر عونًا للممثل على مزيد من العطاء والتوفيق .

وفى هذا المعنى يقول الشيخ « على طنطاوى » :

[وكلما جلت المناسبة ، وكثر السامعون ، وكان بينهم أهل الفكر والعلم

والمنصب ، جادت خطبة الخطيب ، وزادت بلاغته ، وانجلى بيانه ، وهذا الذى يرهب غير الخطيب ، ويمنعه أن يعتلى المنبر ويكلم الناس ، هو الذى يرغب الخطيب المتمرس ، ويدفعه إلى الكلام ، ولو أنى حين أتكلم وحدى فى الإذاعة ، فتنقل كلامى إلى عشرة ملايين أو يزيدون . لو أنى على منبر أرى أمامى عشر معشارهم ، أقوم بينهم ، أخاطبهم وأنا أراهم . . لو كان ذلك لسمعتم منى غير الذى تسمعونه الآن حين أتحدث فى الإذاعة أو الرائى] ا. هـ .

اختلاف الأمزجة :

وبعدما صار الفنان « ممثلا » مرموقًا . . قرر أن ينقل نشاطه إلى « الشاشة البيضاء » (السينما) بدل المسرح . .

فلما سئل عن سر هذا التحول قال : رواد « الشاشة البيضاء » شعبيون . . فهو متجاوبون معه . .

أما رواد المسرح: فهم من الطبقة الأعلى . . ويحتاجون إلى خطاب خاص . .

ولنا أن نقول : وللناس فيما يعشقون مذاهب !!

التضحية .. فى سبيل الدور :

لقد قبل الممثل « أحمد زكى » أن تجرى له فى وجهه عملية جراحية تجعله أشبه « بجمال عبد الناصر » الذى قرر أن يمثل دوره فى الحياة .

بل إنه كان يرفض أن يناديه أحد : « يا أستاذ أحمد » ، بل : يا ريس . . ليمكنه وعلى المدى الطويل من أن يتقمص شخصية الرئيس !!

إعداد الولد :

« بيكاسو » الرسام . . كان والده مدرسا للرسم ، وكان مدرسًا مغموراً .

وكان ولده « بيكاسو » وهو صغير . . كان كلما بكى وضع فى يده «فرشاة» . . فصار رسامًا . . عالميا . . ومليونيراً .

وبذلك يعايش الطفل « جو » الفن .. الذى تتنامى فيه موهبته ويكمل استعداده ..

ومن المفيد أن نذكر هنا ما قاله المرحوم « ثروت أباظة » : كنت تلميذًا للفنان التشكيلى « صلاح طاهر » ولكنه مع نبوغه فى فنه لم يجعلنى رسّامًا !!

الاندماج فى الدور :

يقول الفنان معبرًا عن تمثله دوره تمامًا .. وكيف كان عمله جزءًا منه : [إن الرسام يرسم اللوحة وإذا رأسه يطل منها] ا. هـ .

وكان الفنان يحب الموسيقى .. ولكنه أثناء عمله: يفضل أن تكون الموسيقى من ذلك النوع الخفيف .. والذى لا يأخذه من عمله .. من فنه بعيدًا بعيدًا .

لأنه مستغرق فى عمله ولا يحب النغم القوى .. الذى يشجيه حتى لا يسترخى .. فتهتز « الريشة » فى يده !!

بل إنه ليعتذر إذا دعاه داع بالهاتف .. لأن الكلام ينتزعه من دوره الذى لن يتم لو رد على طالبه !

تحدث « مخرج مسرحى » فقال : إذا كان الجو مرحًا .. كانت الظلال كذلك.. صارخة .. متنوعة .

وإذا كان الجو جادًا .. كانت الظلال قائمة .. بمعنى :

أن الجو الذى تنطلق منه الكلمة له آثاره .. فى الإقناع .

وقد عكف « الموجى » سنة كاملة ليلحن « قارئة الفنجان » وحبسه عبد الحليم خمسة وأربعين يومًا لينجزها !!

الفن والإصلاح الاجتماعى :

الشاعر « محمد مصطفى حمام » كانت له موهبة فى تقليد الأصوات ..

(تمثيلها) ولقد استغلها فى الإصلاح بين الناس .. كانت بين « العقاد » وبين « محمد توفيق دياب » خصومة .

فاتصل الشاعر « حمام » بالعقاد مقلداً صوت « دياب » واعتذر له .. ثم اتصل بدياب كذلك .. وتم الصلح بين القمتين .

وأخيراً ...

فإن الفنان يحاول أن يثبت وجوده دائمًا .

ذهب « بيتهوفن » ليعزى صديقًا له فى وفاة ولده .. فعجز لسانه عن الكلام. فعبّر عن حزنه بأصابعه على أوتار « البيانو» فكانت مقطوعة الحزن المعروفة .

ولنا هنا تحفظ ...

أشار « عبد الوهاب » إلى رأس الفنان لما غضب يومًا . وقال قد يأخذ الله من هنا مشيراً إلى رأس الفنان قد يأخذ جزءاً يسيراً .. ثم يضيف إلى « الصوت » أضعافًا ؟

ولكن الداعية إن لم يواجه جمهوره بكامل عقله .. فلن يفلح معه عوض .

وإذ يغنّى الفنان حريصًا على أن يكون من حوله مئات من أنواع الزهور .. فإن الداعية يمارس وظيفته فى أصعب الظروف .. فقد يحمل واحد حذاءه ثم يمضى مخلفًا فى حلق الشيخ شجى ومرارة !!

ومع ذلك فهو مكلف أن يقول .. وأن يقول شيئًا مقبولاً !!

● ● ●

خطورة دور الفنان

الفنان له إلى الكون نظرتان :

الأولى : تأمل الجسم الذى بين يديه .

والثانية : استنباط ما فيه من عبر ودروس .

إنه لا يقف عند السطح : عند النص .. ولكنه يغوص فيه ليستخرج ما وراء السطور ..

فإذا كان الفنان مغنيًا تضاعفت خطورته .. ذلك بأن للصوت الجميل تأثيره العميق .. حتى قالوا : إن الصوت الجميل .. يأخذك منك .

وفى النهاية .. يعيدك إليك !! وفى تعبير لواحد من الوالهين .. قال : سقونى .. وقالوا : لا تغنّ .. ولو سقوا جبال شَرْوى ما سقونى .. لغنَّت !!

وعن خطورة الأغانى : يقول عز وجل : ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ...** ﴾ [الإسراء: ٦٤] .

فالكلمة المغناة لها أثر خطير من حيث اشترك فيها : مؤلف ، وملحن ، ومغن .

كلهم متميزون .. وكل فى تخصصه .

ولهذا السبب قال « نزار قبانى » : لم أشتهر إلا بعد أن غنت لى « نجاة » «أيظن » .

ويا ضيعة عشرين ديوانًا !! أو كما قال !!

ومع هذا : فالفنان .. إنسان .. والفنانون إخوة .

قصارى ما فعله « عبد الوهاب » لما لحن لأم كلثوم ..

لم يكن ناقمًا ولا حاقدًا .

وإنما قصارى ما فعله أنه ركَّز فقط على عنصر « الموسيقى » .

حتى إذا استمع الناس إلى أم كلثوم يتحدثون لا عن صوتها وإنما عن «الموسيقى » وهكذا تكون المنافسة الشريفة .. والتى تضيف إلى الفكرة رصيدًا من

التميز والجودة .

وفيه عنصر الخير : لما غنى « محمد عبد الوهاب » « الدنيا سيجارة وكاس » هاجمه واحد من الأئمة قائلاً : إن أباه « شيخ » وكيف يفعل ذلك ؟!!

وسارع عبد الوهاب إلى الإمام مقسمًا أنه ما شرب لا هذه .. ولا تلك .. والكأس التى يتغنى بها هى كأس « عرق سوس » عند الحاج على .. وليست من عند الخواجة !!

ونسى الإمام أن يقول له : ولكنك بهذا تحرّض الناس على الشراب !!

ورحم الله الوالد الذى منع ولده من شتم « كلب » حتى لا يتعود لسانه البذاءه.

أما فى الإسلام فلقيمة العفة مكانتها .

لحق الصحابة « بالظعينة » : فتشوا رحلها .. فلم يجدوا الرسالة .. فهددوها بتفتيشها .. فغارت على عرضها .. وقالت : حوّلا وجهكما عنى !!

ثم أخرجته من عقيصتها ! وهكذا .. خافت على عرضها .. بينما هى مشركة .

وذات يوم .. وجدوا عجوزًا تركب بعيراً .. ومعها مزودان ..

وكانوا قد خرجوا يبحثون عن ماء للرسول ﷺ فى غزوة ..

فسألتهما .. لما أخبروها عنه: أهذا الصابئ ؟!

ثم جاءوا بها للرسول .. وأناخوا بعيرها .

فأخذ من كل مزود قدرًا من الماء فى إناء . وقرأ عليه . ثم رده فى المزادة . وقال : اسقوا دوابكم .. واشربوا .. وتوضؤوا ..

ثم موّن الجيش من المزادتين اللتين بقيتا كما هما حتى قالت : إنهما والله

لأشد امتلاء من ذى قبل .

وكان المسلمون يغيرون على جيرانها إلا على حيِّها ولم يكن به مسجد ولا أذان ـ إكرامًا لها . [وكان ﷺ إذا بيت لقوم : تسمَّع الأذان . فإن سمع ، كفّ] .

وقال ﷺ : « **اجمعوا لها** » فجمعوا لها من التمر . . ثم عادوا بها إلى حيّها مكرمة .

فقالت لقومها : لقد جئت رجلاً :

لئن كان ساحراً . . فهو أكبر السحرة . . وإن كان نبيًا . . فهو صادق . .

وقالت : أرى الناس ـ تعنى المسلمين ـ يغيرون على من حولكم . . دونكم . . فأسْلَمُوا .

وفى بلد أوروبى : (فى لندن) دخلت فرقة موسيقية أحد المساجد . . ثم بدأت تعزف فى القبلة !

وتقدم المسلمون بشكوى إلى القاضى الذى حكم بأن يدرس هؤلاء الفنانون الإسلام على مدى ستة أشهر .

وتم ذلك فعلا . . فأسلم منهم أربعة !!

ولكن قنوات الإعلام . . فى خدمة الفن ؟!!

قنوات الإعلام المعادية . . كأنما هى كلاب مسعورة . . تمثل كل منها مذهبا من المذاهب تروج له . . وتدعو إليه . .

وعلى الداعية أن يكون حذرا . . حتى لا يكون نهبًا لها .

وبعض قنوات الإعلام فى خدمة الفن الذى يتملق عواطف الجماهير وغايته فقط : الإثارة ، وخاصيته النفُور من كل ما فيه رائحة الإسلام . وقد تشاهد برامج ترفيهية تزاحم البرامج الجادة وتحتل أرضها . . وبلا مقاومة تذكر . .

وهكذا يتحول الإعلام المعادى إلى ثعبان أسود . . لا يهدأ حتى يفرغ سمّه فى جسم برىء . .

ثم نتساءل عن « سامرى » العصر ؟ ماذا يريد ؟!!

أ ـ يريد ـ كأخ له من قبل ـ أن يصنع لنا عجلا !! فماذا نحن فاعلون ؟

أن نتأمل ما نرى . . ثم لا ننعزل عنه . حتى لا يتمدد فى الفضاء الرحيب وفى غيابنا . . ولا بأس من أن نفيد من إيجابياته . . ليكون للدعوة حضور مكثف . .

إننا إن لم نهزم اللهو . . فإننا على الأقل نكسر من حدته .

خطورة القمر الصناعى

يدخل بيتك . . وبلا استئذان . . ليؤثر فيك . . لا اقتصاديًا . . ولكن عقائديًا . . عن طريق برامج ترفيهية . . وأثناءها تضرب العقيدة . .

ووقع الغافلون . . أو المغفلون فى الشرك . . وكانت هناك موانع صواعق من آى القرآن .

من مثل قوله تعالى : ﴿ **وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ** ﴾ [آل عمران: ٧٣]] ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم** ﴾ [البقرة: ١٠٩] .

والحل الإسلامى :

١ ـ تأصيل حقائق الدين والكشف عن وجه الإسلام الإيجابى تحصينا للمتلقى .

٢ ـ تنمية الإحساس بخطر التبشير عن طريق جهاز متخصص .

إنه الاستعمار الأجنبى :

أ ـ يضحى بالقادرين من أهل مستعمراته ليبقى هو .

ب - ينهب خاماتها . . ثم يصنعها ويبيعها لها بأغلى ثمن .

جـ - قد يبيعها أسلحة ولكن بدون قطع غيار .

د - يصدر أدوية منشطة . . وهى قاتلة ببطء فى نفس الوقت .

هـ - إعلام موجه لزعزعة العقيدة .

و - الويل للمغلوب من الغالب .

أما فى الإسلام :

١ - لا يقاتل المسلم إلا من قاتله .

٢ - يدعو المحارب قبل القتال إلى الله .

٣ - يرفع أول جثة إسلامية تنزف دمًا لعل العدو يرتدع . . فلا يكون قتال .

٤ - لا يقتل طفلا ولا امرأة ولا شيخًا ولا غلامًا ولا يقطع شجرًا .

٥ - لا يؤخذ برىء بمذنب .

٦ - يفى المسلمون بعهودهم .

حتى وإن أمَّن أحدهم قومًا وفوا « ... **يسعى بذمتهم أدناهم** » .

ثم نقرأ لواحد من الباحثين قوله مؤكدًا هذا الخطر الذى يجب أن يُتقى ويحذر :

[إن نظرة واحدة حولنا . . ليس فى مصر فقط بل فى معظم البلدان العربية والإسلامية . . تفاجأ بأن هناك بدعا جديدة لم نعرفها من قبل . تفاجأ بأن هناك ظاهرة الاستسلام لعالم الرغبات والشهوات والسلع الاستهلاكية والترفية والعرى . . تفاجأ بأن هناك ظواهر مستحدثة تقود المجتمعات الإسلامية إلى الإصابة بأمراض اجتماعية ليس لها علاج!!

وليس صحيحًا أن هذه الظواهر المستحدثة مستوردة من الحضارتين الغربية أو

الأمريكية .. وإذا اعتقدنا ذلك ، وحاولنا ترويج مثل هذا المفهوم الخاطئ فإننا أشبه بمن يبيع سلعا مغشوشة يخدع بها المشترى ثم يسخر من عقليته بعد البيع .. لقد أمضى الغرب أربعة قرون فى بناء حضارته الحديثة ، وشيد الحصون العلمية التى انتقلت به إلى عالم آخر .. عالم التقنية الحديثة والتكنولوجيا ، وفتش الغرب فى كل علوم العلم والمعرفة .. وطورها .. وأخذ منها ما يتناسب مع بناء حضارة قوية تقول للعالم « نحن هنا » والحضارة الأمريكية لا يزيد عمرها على مائتى عام وبضع سنوات ، وقامت على أكتاف جنسيات مختلفة فى الدين واللون واللغة . ويقال : إنها قامت على أكتاف أكثر من ثمانين جنسية عبرت المحيط الأطلنطى للوصول إلى أمريكا ، وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية .. أصبحت الشرطى الوحيد فى العالم .. ليس بفضل قوتها العسكرية فقط ولكن لأنها تملك مفاتيح التكنولوجيا والتقنية الحديثة فى الصناعة والزراعة والاقتصاد والفضاء ، إلى آخر شتى مجالات الحياة !!

هذه الشعوب لم تعربد .. ولم تسكر حتى الثمالة . ولم تسىء استخدام معنى الحرية .. والحرية عندها ليست إباحة .. أى افعل ما أشاء ! هذا غير صحيح .. الحرية هناك لها حدود لأنها فى ظل منظومة يعيش فيها الفرد وسط الجماعة ، والجماعة تعيش داخل دولة ، والدولة تعيش داخل قارة .. وهذا مثلا أدى إلى قيام الاتحاد الأوروبى .. ومن قبله السوق الأوروبية المشتركة وجرى توحيد العملة بين دول القارة ، وإقامة برلمان أوروبى مشترك .. وهذه المؤسسات .. لم تأت من فوق بل جاءت من الفرد ، وقامت عليه لأن هناك انتماء حقيقيًا للبلد .. ولا علاقة له بالشعارات .

وهناك واقعة بسيطة جدًا .. أرويها إذا جاءت المناسبة ، كنت فى زيارة إلى مدينة فرانكفورت الألمانية . وتوجهت إلى أكبر محل تجارى لشراء بعض الملابس ؟ ورحت أسدد الحساب وقدمت لعاملة الخزينة دولارت !! وفوجئت بها تقول : «لو سمحت .. إذا قمت بتغيير العملة خارج المحل فسوف تحصل على سعر أفضل

منا ، وفهمت أن سعر التغيير فى المحل التجارى أقل من سعر التغيير بمحلات الصرافة بالخارج .. ولم أفكر لحظة وطلبت منها تغيير العملة لإعجابى بأمانتها الشديدة ! .. ومثل هذا التصرف .. يعد من أساسيات الأديان السماوية ، والدين الإسلامى .. دين معاملة ، وسيدنا رسول الله ﷺ قال : « **من غشنا فليس منا** » ومثل هذا التصرف لا علاقة له بالتكنولوجيا والتقنية والعلم ، ولكنه سلوك نشأ عليه وأصبح أسلوب الجماعة ، وانتقل إلى الدولة ، وفى معظم الدول الإسلامية يفتقد الكثيرون هذا السلوك الذى يعد أحد أساسيات الدين الإسلامى .

إذن .. الحضارة الغربية التى تشد أنظارنا جميعًا ، ونتلهف عليها ، ونطير إليها سعداء .. ليست فى إطلاق الرغبات والشهوات كما يتصور البعض .. إنها وليست الحضارة الغربية وحدها .. بل أى حضارة محترمة ، هى فى مفهومها العام سلوك ونظام وقيم ومعان ، وأسس ومبادئ ، ومنظومات وطبيعة حياة !

والحضارة الإسلامية فى صدر الإسلام قامت على هذا المفهوم العام ، ولذلك صمد الإسلام فى بداية الدعوة وانتشر فى الجزيرة العربية وعبر البحور والمحيطات .. وغزا جميع دول العالم ، وأصبح هناك مسلمون فى كل مكان، وللأسف عشنا على هذا التراث ، وأفرطنا فى التغنى به ، والتزمنا فى خطواتنا.. ليس بالمضى إلى الإمام .. ولكن الإصرار على الاستمرار « محلك سر » وربما خطوة أو خطوات للخلف .. ولذلك نرى العالم يتقدم حولنا . ونغمض أعيننا لحظات ثم نستيقظ من الغفوة . ونفاجأ بأننا تخلفنا أكثر .. ولا يوجد أمامنا سوى الانبهار بالعلم والتكنولوجيا والتقنية . ونضطر مع هذه الظروف إلى التغنى بأمجاد الأجداد وغزوات الأسلاف .. وهذا رد فعل مباشر للانبهار الذى يصيبنا ! وإصرارنا على التمسك بالأطلال التى نجلس عليها فى ساحات الفخر البالى ، والحماس المتهرئ ، ومواقع التراخى والاستسلام لأحلام الماضى واليأس المريح !!

أقول هذا لأن هناك أفرادًا فى هذا المجتمع أداروا ظهورهم لنا ولك ،

وابتكروا ظواهر غريبة جدا على المجتمعات المصرية والعربية والإسلامية كما أنها لا تمت بصلة للمجتمعات الغربية والأمريكية .. إنها ظواهر أقرب للجنون ، وأشبه بالمرض الخبيث الذى إذا أصاب الجسد .. فقل عليه « عليك رحمة الله » !!

إننا يجب أن نتخذ موقفًا صريحًا وواضحًا ضد هذه الظواهر الغريبة على المجتمع المصرى ، خاصة أنها فى بدايتها ، ومثل هذه الظواهر لا تقع تحت دائرة الحرية المكفولة لكل شخص ، لأن الحرية لا تعنى الإساءة إلى الآخرين أو إزعاج الغير بمثل هذه التصرفات !

وإذا كنا غير قادرين على محاكاة الغرب فى التقدم والعلم والتكنولوجيا .. فهذا لا يعنى أن نبتكر ظواهر غريبة جدا عنا حتى يقال إن هناك اختراعًا أو انفرادًا أو يقال « المصريين أهمه » .

إن التقدم والعلم والتكنولوجيا لا تمنح لشعوب غير قادرة على التعامل معها بالمفهوم الصحيح ، ولا تنقل فى زجاجات وأجهزة ومعدات ، إننا يجب أن نعيد النظر فى أسلوب حياتنا ، ويجب أن نعيد إحياء الأرض التى أهملنا رعايتها .. وهذه الأرض إذا أعددناها جيدا .. فسوف تصبح صالحة للزراعة ، وتصبح صالحة أيضًا لنمو بذور العلم والتكنولوجيا والتقدم .. والأرض التى أقصدها هى الإنسان المصرى .. وهو وحده القادر على إعادة صياغة الحضارة المصرية للحاق بالأمم المتقدمة] ا. هـ .

سمع الداعية من يقول لصاحبه : إن التصوير .. حرام .

فقال له : ألا ترى وجهك فى المرآة !!

ثم .. إن العلم ثبت الصورة فيها .. فبهت الذى أفتى !!

قال صاحبى : أما عندك ما تقوله تعليقًا على هذا الموقف ؟!

قلت : الحكم بالحل . . والحكم بالحرمة شيء خطير . وقد تجرأ « المفتى » هنا على ما كان يتحرج منه علماؤنا . فقد كانوا لا يجرؤون على الإفتاء بالحل والحرمة بل كانوا يقولون عن الحلال : هذا جائز ، وعن الحرام هذا غير جائز .

ويخافون أن يحكموا . . بأن هذا حلال وهذا حرام !!!

● ● ●

الداعية والسلطان

كان لسلفنا الصالح وجهات نظر مختلفة .. فيما يتعلق بالسلطان .

قيل لسفيان الثورى : ألا تذهب إلى السلطان تأمره وتنهاه ؟

فقال : البحر إذا هاج .. من يسكِّنه ؟!

ولأن الإمام مالك من أنصار . التردد على السلطان .. حتى لا يستأثر به مستشار خائن .. لأنه كذلك .. فقد فسر رأى سفيان بأنه يريد السلطان المتغطرس الشموس!

أما أبو حنيفة فقد كانت خطته البعد عن السلطان .

لأن السلطان .. من لا يعرف السلطان ؟!

المهم .. أنهم اختلفوا .. وأهم منه أنهم كانوا يتناصحون !

ورحم الله أيام زمان :

كان الناس يفعلون .. ولا يقولون .

ثم صاروا يقولون .. ولا يفعلون .

ثم أصبحوا اليوم لا يفعلون .. ولا يقولون !

جاءنى صديقى يسعى راغبًا إلىّ أن أكون شفيعًا له .. عند المسئول الكبير ليساعده فى الحصول على « هاتف » .

وقد ألبسنى من المديح ثوبًا فضفاضًا .. فتعثرت فيه .. ولابد أن أقف .. أعنى أن أتلعثم حرجًا من طول ما مدح !

وذهبت إلى المسئول الذى كنت أحبه .. لما تمتع به من فضائل أكدت دائمًا أنه رجل غريب فى دنياه .. فالمسافة بين قوله وعمله .. كما يقولون : تدخل الإبرة فيها بصعوبة !!

فى الوقت الذى كانت المسافة بينهما عند غيره واسعة واسعة : ترمح فيها الخيل !!

ودخلت عليه مكتبه . . وكالعادة كان موقفى منه موقف العاجز عن التعبير من حيث كانت اللغة أضعف من أن تنبئ عما فى الضمير من تقدير . . وكان موقفى معه على ما يقول الشاعر :

رأى الهلال فحياه بغيــر فم أحلى التحيات أخلاها من الكلم !

وفى أيــام قلال . . كان الهاتـف عند صـديقى . . الذى طلـب منى أن أبلغ « صاحبى » شكره !!

وقلت له : المفروض أن تبلغه أنت . . فقال : لا أحب أن تكون لى صلة بمسئول ؟!!

وقلت له : وكيف رضيت لى . . ما لا ترضاه لنفسك !!

مع العلم بأنك ـ عن طريقى ـ كنت على صلة به .

هذه الصلة التى يشهد بها رنين الهاتف فى منزلك !!

ثم أين السنّة . . يا أهل السنة !!

أين سنة « القلب » دليلاً على سنة « القالب » !!

فالرسول ﷺ يقول : « **من أعطى عطاء .. فوَجدَ .. فَلْيجزْيه .. فإن لم يجد .. فليثن فإن من أثنى فقد شكر . ومن كتم فقد كفر ...** » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

والثناء على فاعل الجميل مقدور عليه ميسور : قال ﷺ : « **من صُنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً . فقد أبلغ فى الثناء** » رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

ولقد كان من أهمية شكر من أسدى إلينا معروفًا أن كان ذلك سبيلا إلى شكر

الله عز وجل .

وذلك قوله ﷺ : « **إن أشكر الناس لله تبارك وتعالى أشكرهم للناس** » رواه أحمد ورواته ثقات .

وهكذا يعلمنا الرسول ﷺ صناعة الوفاء ، الوفاء : الذى هو إدام المجتمع المسلم .

ولكن بعض الناس - سامحهم الله - يستثنون من هذه القاعدة من كان مسئولاً ! !

ورضوا بأن يكونوا للنكران مثلا . يقال فيه : إن فلانًا كتاب فى نكران الجميل . . لا يجد الناس منه إلا نسخة واحدة .

وإذا كان الوفاء : وإذا كان رد الجميل فى الإسلام غير ملوّن . . فإن هؤلاء يسيئون إلى الإسلام ، حين يجعلون الوفاء تابعًا لهواهم .

على ما قيل : إن يوم النصر يجوز فيه ما لا يجوز فى غيره وكذبوا فيما قالوا

فإن المرأة التى تزل يوم العيد كالتى تزل يوم المأتم .

والناس يزدرونها من غير أن يسألوا عن تاريخ زلتها ؟!

وفجأة دَهَمَنا الفتى عائدا لتوّه من معركة بينه وبين مسئول جاء له فى أمر . .

ثم علا بصوته فوق صوته . . وانتصر عليه ؟!

ولقد صادف هوى فى نفس صاحبى ناكر الجميل . .

ثم أخذه . . ومضى . . مضى به إلى المسجد . . ليؤديا صلاة لم تحقق نتائجها فى واقع الناس .

ومضيت أنا إلى تاريخنا المجيد . . أبحث عن بعض المواقف التى كان فيها العلماء والأمراء على أوفى ما يكون التكامل . . والتجانس . .

ولقد وجدت فى هذا الباب ما يشفى الغليل .. والعليل .

لقد حفل ماضينا بالرجل الخيّر .. والرجل الشاكر فكانت الحياة بهما رخاء .

على ما يقول شوقى :

وإذا الدنيا خلت من خـيِّر   وخلّت من شاكر هانت هوانًا !

نماذج وصور

لقد حفل تاريخنا الإسلامى بنماذج من هذه المواقف الشاهدة بما يؤكد تحقق مصلحة الأمة إذا التقى الحاكم والمحكوم .. وكيف كانت الحكمة سيدة الموقف . الذى يسفر فى النهاية عن خير محقق ينعكس على المجتمع كله : أمنا ورخاء .

كيف ندعو السلطان

فى « قنا » سألنى طالب من جامعة « جنوب الوادى » عن سر سكوت العلماء ، إزاء المنكرات ؟ قائلاً : أين غضبتهم .. المضرية ؟!

وسكت الطالب ، وإن بقى فى صدره « أزيز » ثورة مكتومة !

وحاولت أن ألطف من حرارة الصعيد فى كيانه فقلت له : أولاً : ما زال العلماء يتكلمون .. بدليل محاضرتى لكم !

ثم إنهم بعد الاتفاق معكم على أن « الإسلام هو الحل » لكن الخلاف فى الواقع . حول كيف يكون الحل : ومن رأيى .

وهذا ثانيا : أن الحاكم من ورائه جيش .. وفى يده أموال .. وأنت من ذلك صفر اليدين .

وإذن فالإمكانات غير متكافئة .. ونحن على ما يقول الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

وإذن .. فاللين .. فالحوار .. وليست الثورة هو سبيلنا إلى الإصلاح .

والأمر على ما قيل : [الدعوة إلى الله بطريقين : طريق اللين .. فهى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . وإيضاح الأدلة فى أحسن أسلوب وألطفه . فإن نجحت هذه الطريق فبها ونعمت .. وهو المطلوب . وإن لم تنجح تعينت طريق القسوة بالقوة حتى يُعبد الله وحده . وتقام حدوده . وتتمثل أوامره وتجتنب نواهيه . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] .

ففيه الإشارة إلى إعمال السيف . بعد إقامة الحجة . فإن لم تنفع الكتب تعينت الكتائب والله تعالى قد يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن] (١) هذا : إذا كان المدعو عدوا مؤذيًا مع الأخذ فى الاعتبار ما يلى :

[يشترط فى جواز الأمر بالمعروف ألا يؤدى إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر لإجماع المسلمين عى ارتكاب أخف الضررين . قال فى مراقى الصعود :

وارتكب الأخف من ضررين وخير من لدى استوا هذين

ويشترط فى وجوبه : مظنة النفع به . فإن جزم بعدم الفائدة فيه . لم يجب عليه كما يدل له ظاهر قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩] .

فإن كان المدعو ذا سلطان .. فيشترط لأمره :

١ ـ القدرة على نصحه .. من غير حصول ضرر أكبر ..

٢ ـ ولكن بالحسنى .. وإن لم يقدر .. فينصحه بقلبه .

٣ ـ فإن رضى بما يعمل السلطان .. فهو شريكه فى الإثم ..

وعندئذ تنتهى مهمة الداعية .. وبلا إراقة دماء .

وإليك بعض الصور :

شتم هشام بن عبد الملك رجلا .. فعاتبه الرجل قائلاً : تشتمنى وأنت أمير

(١) أضواء البيان (٢/ ١٧٥) .

المؤمنين ؟!

فرد عليه الخليفة : سامحنى .

فقال الرجل : لا . . لا أسامحك .

فقال الخليفة : هبها لله .

فقال الرجل : هى لله . . ثم لك .

وقد يظن المتعجلون أن الرجل هنا تضعضع أمام السلطان . ولكن نتيجة هذا العتاب تثبت أنه كان فى أفضل حالاته !

فقد كان لثباته وأدبه أثره حين أعلن الخليفة قائلاً .

والله . . لا أعود لمثلها أبدًا !!

وهكذا . . نجى الله الخليفة . . بل ونجى المجتمع كله من شر مستطير . . بهذه الحكمة البالغة !!

قال الخليفة لشاعره « وكان أسود » : اشرب كأسا معى . .

فاعتذر الشاعر قائلاً :

لستُ بذى حسب ولا نسب   كما وأنى لستُ قريبك

ولكنى   بأدبى وعقلى اقتربت منك . . فكيف تسلب عقلى بهذه الكأس ؟!

وكان من الممكن أن « يخجل » الشاعر من سيده الخليفة . . ويجامله .

لكنه آثر رضاء الله على رضاء الحاكم ..

والمهم : أنه لم يدخل معه فى مواجهة مباشرة ولكنه المنطق المعقول . . المسكت !

والشعراء على الطريق .

هجا أبو الهول الحميرى الفضل بن يحيى . . ثم أتاه . . راغبًا إليه . . فقال

له الفضل : ويلك !!

بأى وجه تلقانى ؟!

قال : بالوجه الذى ألقى به ربى . وذنوبى إليه أكثر ؟

فضحك . . ثم وصله !

وهكذا . . وبالمنطق الحكيم يعود الشاعر إلى أهله :

أ ـ بحياته .

ب ـ ثم بالمال . . .

باللين.. نحقق آمالنا

قال الرجل يستعطف الخليفة :

[ولم أظلم معنى بالتحريف ، ولا ملت فيه إلى التحوير ؛ وأرجو أن يبيض وجهى عندك بالرضا عنى ، فقد كاد وعدك فى عنايتك يأتى علىّ ، وأنا أسأل الله أن يحفظ عنايتك على ، كسابق اهتمامك بأمرى ، حتى أملك بهما ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذى قد أشبع كل جائع ، وكسا كل عار ، وتألف كل شارد ، وأحسن إلى كل مسىء ، ونوه بكل خامل ، ونفق كل هزيل ، وأعز كل ذليل ، ولم يبق فى هذه الجماعة على فقره وبؤسه ، ومره ويأسه ، غيرى ، مع خدمتى السالفة والآنفة ، وبذلى كل مجهود ، ونسخى كل عويص ، وقيامى بكل صعب ؛ والأمور مقدرة ، والحظوظ أقسام ، والكدح لا يأتي بغير ما فى اللوح .

خلصنى أيها الرجل من التكفف ، أنقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضر ، اشترنى بالإحسان ، اعتبدنى بالشكر ، استعمل لسانى بفنون المدح ، اكفنى مؤونة الغداء والعشاء] اهـ .

المجاملة الفاعلة :

وعندما دخل كثير عزة على « عبد العزيز بن مروان » فى مرضه فقال : [لو

أن سرورك لا يتم إلا بأن تَسْلَم وأسقم .. لدعوت ربى أن يصرف ما بك .. إلىّ.

ولكن أسأل الله لك ـ أيها الأمير ـ العافية ولى فى كنفك النعمة] .

فضحك الخليفة .. وأمر له بجائزة .

ولقد ذهب « كثير عزة » إلى قصر الخلافة .. وهو « كثير » وعاد وهو كثير أيضًا .. ولكن بمزيد من العطاء ..

ومن صور اللين :

السيف .. فى موضع السيف

وفى مرحلة من مراحل الكفاح .. قرر الإمام الحسين رضى الله عنه أن يواجه خصومه بالسلاح .. على رغم أنه كان فى فئة قليلة .. بينما السلطان صاحب عدة وعدد .. فعرض نفسه ورجاله لموت محقق ..

وقد نقده « ابن خلدون » حين قرر أن ذلك إلقاء للنفس فى التهلكة .

ولكن « عبد الرحمن الكواكبى » ينتصر للإمام الحسين حين انتصر له ولأمثاله مقررًا : [أنهم معذورون لأنهم يفضلون الموت كرامًا على حياة الذل التى كان يحياها ابن خلدون ! ولقد كانوا فى ذلك ككرام سباع الطير والوحوش التى تأبى التناسل فى أقفاص الأسر !!

ثم تحاول الانتحار مخلصًا من قيود الذل] .

إنها تحرم على نفسها متعة التوالد .. مشغولة بقيمة الحرية .. التى تتمناها .. فإن لم تجدها .. لم يعد للحياة معنى .. ومن ثم تقرر الانتحار !

ألا وإن (الهرة إذا حُبست وضويقت .. انقلبت لبؤة .. والبركان إن سُدت فوّهته .. كان الانفجار ... والشعب إذا استذل .. ثار .. فالنار ولا العار وللشهداء عقبى الدار] ا. هـ .

شجاعة المرأة العجوز

كانت المرأة « العجوز » تكثر من الدعاء للحاكم المستبد فلما أرسل يسألها عن سر ذلك . قالت : أدعو لك بطول البقاء . . لأنك إذا متَّ لن يأتى بعدك من هو شر منك !!

وهى قصة المريض : فقد حط الذباب على جرحه . فامتص دمه فلما جاء من يطرده . . منعه المريض قائلاً : إن هذا الذباب شبع من دمه . . فلن يشرب بعد ذلك .

أما الذباب الجديد . . فإنه لم يشرب . . ولكن سوف يشرب !

وتأمل موقف العجوز البدوية . . وكيف كان منطقها أقوى وأبقى ! على ما فيه من قسوة حازمة .

الاحتيال فى مواجهة الرجال :

وذات يوم : كان « الخليفة » يعاف دواء « الإسهال » ويرفض تناوله . . وفكَّر العالم . . فرآه يحب « العنب » .

وفى بستان الخليفة . . حقن شجرة عنب بدواء الإسهال . . فلما أكل الخليفة من العنب شفى بإذن الله .

فلماذا لا نتحايل فى الدعوة هكذا . . وبخاصة مع رموز المجتمع الذين يهتدى بهدايتهم خلق كثير ؟!

كان رجل نصرانى يختلف إلى الضحاك بن مزاحم .

فقال له يومًا : لو أسلمت ؟!

فقال الرجل : يمنعنى من ذلك حبى للخمر .

قال له : فأسلم . . واشربها !!

فأسلم . فقال له الضحاك : إنك قد أسلمت .

فإن شربت الخمر .. حددناك .

وإن رجعت عن الإسلام .. قتلناك .. وإن زنيت .. أقمنا عليك الحد بالجلد .

* * *

البرهان .. سيف قاطع :

تعلم الخليفة بالباطل .. ثم قال لرجل فى المجلس : لم تسكت ؟

قال : يدخل الرجل على السلطان بدينه .. ثم يخرج بدونه .

أخشى الله .. إن كذبتُ وأخشى بطشك .. إن صدقت !!

ولقد صدق الرجل مع نفسه ومع الخليفة .. فنجاهما الصدق : نجى الخليفة من الظلم . ونجى الرجل من الهلاك .

منطق بعض الحكام :

قيل لهرمز : [أى خطأ رأيت من وزراء أبيك .. حتى أمرت بسجنهم جميعًا؟ فقال : لم أعلم خطأ يوجب حبسهم . ولكنى عرفت أن مهابتى فى قلوبهم لا حد لها . ولا يعتمدون كلّيًا على عهدى . فخشيت أن يعملوا على إهلاكى .. من خوف إيذائى لهم .. فعملت بقول الحكماء حيث قالوا : خَفْ ممن يخاف منك أيها الحكيم . وإن كنت تفوق مائة مثله فى الحرب . لهذا تلدغ الأفعى قدم الراعى .. إذ تخشى أن يدق رأسها بحجر !

ثم قال : [ألا ترى أن القطّ حينما يصير عاجزًا عن الخلاص .. يقتلع بمخالبه عين النمر] ؟!

* * *

الحكمة فى مواجهة الطغاة

يقولون : اثنان لا يتهاونان دقيقة : شبح الضحية . . والضمير المذنب .

وقد يبدو الرجل « ثائرًا » : يبدو فى أول الأمر طيبا . . مخلصًا . . ولكن : لأنه عسكرى . . فخبرته بالسياسة ضيئلة . . ومن هنا يتورط فى أخطاء .

فلا يجد إلا السلاح لحلها : وهنا يتحول إلى طاغية متكبر « دكتاتور » .

وهكذا يتنامى معنى الطغيان فى قلب الحاكم . . ولكننا بتصرفنا نستطيع أن نعَلِّم أظافره . . بالذكاء والاحتيال . . ويكفى الله المؤمنين القتال .

طاقة القلوب أقوى :

وقلت لصاحبى : إن الضرب باليد : من عمل الجوارح . . وينصب مفعولاً واحدًا .

والظن . . وهو من عمل القلب . . ينصب مفعولين اثنين . .

ورأى البصرية : تنصب مفعولاً واحدًا . . بينما رأى العلمية . . تنصب مفعولين .

وإذن فالأمر . . أمر قلوب . . لا أمر جوارح . .

لأن طاقة القلوب أقوى . . وأمضى . .

والموفق حقا من تعامل مع القلوب . التى يُقاد منها الإنسان . . ولا يقاد من أذنه ولا من يده .

أما بعد :

فنعوذ بالله أن نكون من هؤلاء : الذين يذمون السلطان وهم أقرب الناس إليه .

إنهم بطانته . . حاشيته . . بل مستشاروه .

يذمون الدنيا . . وهم يرضعونها . .

يتميزون بشارة معينة .

يضمرون البدعة. . ثم يموهون بلحاء من الحق فوقها. . ومنهم ذلك الكاتب.

روى أن رجلا قال لعطاء : مزهوا بأخيه الكاتب .

إن أخي يضرب بقلمه . . ولا يعدو رزقه . فقال له عطاء : وأين الرأس ؟

يعني : من الذي يكتب له ؟ فقال : خالد بن عبد الله القسري !

فقال عطاء : فأين قول موسى . . فيما حكاه القرآن ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧] .

والمعنى : إن القلم في يد أخيك . . ولو كان من ذهب . . فلا قيمة له . . ما دام يمكّن به للباطل !!

• • •

الفصل الثانى

أسلحة الداعية

ولأن الداعية مؤمن بالله العزيز الغالب .. ولأنه معتز بوظيفته .. فهو من هذه المشاعر فى عز دائم ..

أما غيره .. فيشتكى .. يعنى يشتكى خالقه .. للمخلوق !!

وقد أعطى الذل من نفسه طائعًا غير مكره.. فهو غائب .. ليس له حضور بين الناس .

بينما نشيد الداعية الدائم والذى هو ينبوع قوته :

اللهم كن لنا مؤيداً . ولا تشمت بنا أحدًا .. ولا تجعل لأحد علينا يدا ..

ومن ثم .. أغناه الله تعالى عن كل من استغنى عنه .. وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً .

أجل : أغناه الله تعالى عن كل عشاق الدنيا .. كما أغنى إخوة له من قبل.. ومنهم : أبو العباس .. والذى تقلب فى فراشه ليلاً فقالت له أمه .. ما سر هذا الأرق ؟ فقال : لأن لى همة تخرق الجبال !!

ومنهم أيضًا ذلك الفتى الذى قيل له : لنا عندك .. حويجة .. فقال : اطلبوا لها « رجيلا »

والذى قيل له : جئناك فى حاجة لا ترزؤك .. فقال : هلا طلبتم لها سفاسف الناس ؟!!

إنها الهمة العالية .. والتى تشكل طوق النجاة إذا ما اضطرب السفين.. حتى إذا تحركت « الضفادع » وتجاوبت أصداؤها فى ظلمة الليل البهيم .. كان

صوتها دليلا عليها . . فاندفعت « حيّة » البحر لتنقضّ عليها ! .

وإذا كنا فى زمان تدعو فيه كل أمة إلى كتابها . . باذلة طاقاتها فى سبيله . . فكم يكون الداعية المسلم مسؤولا عن حماية الناس من أنفسهم . . ومن شياطينهم من الإنس والجن .

وإذا كان فى الأمم الآن من تقول للضابط : تذكر دائمًا أنك ضابط . . ليمنعه التذكار من الانحراف . . فإننا نقول للداعية: تذكر دائمًا أن الأمة ملخصة فيك . . فحافظ عليها . . وبين يديك من دروس التاريخ ما يعينك ويثبت قدميك على الطريق .

• • •

أسوة حسنة

فقد قيل للحسن بن على رضى الله عنه : إن الناس يزعمون أن فيك كبرا وتيها . فقال : ليس بتيه : ولكنه عزة المسلم .

ثم تلا الآية الكريمة : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨] .

ألا إن الإسلام يريدك عزيزًا . . لماذا ؟

لأن الإسلام عزيز . . ولابد أن يكون تابعه عزيزًا .

وهكذا كان المجتمع المسلم . . العزيز بإسلامه . . حتى قال عمر رضى الله عنه يومًا : أبو بكر سيدنا . . وأعتق سيدنا . . فصار العبد بلال الحبشى سيدا لعمر القرشى .

وتذكر الجيش : الذى خرج من دياره فى أرض الحجاز : [يقوده الفتى العربى : ابن الطائف الذى فارق منازل أهله فيها .

ومشى . . ومشى . . ومشى .

حتى جذع الأرض إلى موضع كراتشى اليوم :

كان الجندى : يشرى زاده بنفسه .

ويحمله على كتفه .

ليس فى الجيش مصلحة تموين .

وكان يشرى سلاحه بنفسه .

وراحلته : يشريها بنفسه .

أو يمشى على رجليه .

وكان يصبر على الحر والقُرّ .. والجوع والعطش .. وكان مع ذلك كله يدعى فى طريقه كل قوة تعترضه وكل قلعة . وكل حصن حتى بلغ الهند .

ذلك الفتى هو محمد بن القاسم الثقفى الذى لم يزد عمره يومئذ عن سبع عشرة سنة . وهو سن تلميذ فى الصف الثانى الثانوى] ا. هـ .

[إن الرياح تهب من مناطق الضغط الجوى المرتفع .. إلى مناطق الضغط الجوى المنخفض . كذلك ، فإن الحضارة تهب من البلدان المتقدمة على البلدان المتخلفة] .

وهكذا .. ينبغى أن تظل حضارتنا هى الغالبة .. المؤثرة . ولكن بطاقة الإيمان فى صدرك أيها الداعية ..

لابد من الكفاح : من المكابدة .. ودرس الطبيعة يقول لك : إن أرضا بلا تضاريس أرض بور .. قاحلة .. لا تمسك ماء . ولا تنبت كلأ .

وإذا كان الزمان قد فسد اليوم .. ورأينا من يعدُ ولا يفِى .. ويُستودَع فلا يؤدى .. فما زالت أمة محمد بخير .

لا تقولوا : خلا العرين ففيه ألف ليث إذا العرين أهابا

فأجمعوا كيدكم ثم روعوا حماه   إن عند العرين أسـدا غضابًا

استكملوا عدة النضال .. ثم خوضوا غمراته .. لقد نبت لكم « ريش » فهيا حلِّقوا مع النسور فى أجواء الفضاء .. تقدموا .. فالمستقبل لكم .

● ● ●

مدخل

قال لى صاحبى : لماذا آثرت هنا أن يكون العنوان : أسلحة الداعية .. ولم تقل مثلا : مكونات الداعية .

قلت له : وهذا واحد من أساليب الدعوة .. وهو « أسلوب الحكيم » .

ويعنى : تسليمك للمدعو بما بدأ به .. ثم تكر عليه لتبطله .

والمدعو هنا هو : هذا الشاب المشتعل حماسا .. معتقداً أنه فعلا يخوض معركة حامية .

وأنا أسلّم معه : بأنك فعلا .. فى معركة .. ومعركة حامية ..

ولكن يجب أن تعلم أنه إذا كنت تخوض معركة ساخنة .. فليس من أسلحتك : لا القنبلة .. ولا الرصاصة .. ولا الحزام وإنما هى الكلام .

إن أسلحتك من جنس « الحروف » وليست من فصيلة « السيوف » .

وإذا تبين لنا أن مهمة الداعية أخطر .. وأن معركته مع الباطل مستمرة .. فقد وجب عليه أن يسعى إلى الهيجاء بأسلحتها حتى لا تنتكس الدعوة فى شخصه لو أنه لم يعدّ للأمر عدته .

ومن هذه الأسلحة :

١ـ الإخلاص

ومن صور الإخلاص :

أ ـ كان ابن سينا إذا استعصت عليه مسألة علمية .. فلم يفهمها .. قام .. فتوضأ .. ثم صلى .. ثم عاد إليها ..

وبعد الصلاة .. يكون التوفيق ..

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ [المائدة: ١٠٦]

حيث يتوفر الجو الروحى الموحى بالصدق والتجرد .

ويعنى ذلك أن « ابن سينا » يعتصم بالإخلاص فى الشدائد والمحن . .

بمعنى : أنه « يتخلص » من كل مظاهر الدنيا . . مقبلاً على الصلاة . . التى تصبح معراجه إلى الصواب الذى يريده .

وفى تجسيد قيمة الإخلاص نقرأ هذا الموقف الرمزى : أنه ذات يوم دفع الصياد بكلبه . . يلهث وراء الغزال الشارد .

فقال الغزال للكلب : لن تلحقنى !

فقال له الكلب : لماذا ؟

قال الغزال : لأنك تجرى لغيرك . أما أنا فأجرى لنفسى !!

وعلى هذا المحور دارت أعمال صالحين : لم تكن مشكلة الرجل الصالح فى هل يتصدق أم لا يتصدق ؟ . . فهو من المتصدقين .

وإنما كانت مشكلته الكبرى هى : كيف يعطى المحتاج دون أن يجرح مشاعره؟ كيف يكون فى عمله مخلصًا ؟!

ولقد هداه قلبه إلى حيلة وهى : أن يذهب إلى المسجد . . حتى إذا قام المحتاج ليتطوع . . وضع « الصرّة » عند أقدام المصلين . . حتى إذا فرغوا من الصلاة . أخذوها . . وبلا حرج !

وهكذا يكون الإخلاص . . الذى يجعل للعمل قيمة .

روى أن رجلا قدم لصديق مالا . . وكان ذلك على الملأ . . فلما اعتذر عن قبوله سأله صاحبه : كيف ترفض مالاً جاءك من الله تعالى فقال : لأنك أشركت معه غيره ؟! فرفضت شركك ؟!!

الإخلاص أساس البناء :

إن المال الحرام وإن تُصدق به . . لا يقبل . . بل هو الزاد إلى النار .

ومحور العبادة . . حلُّ الطُّعمة . . لأنها الأساس . .

وإذا انهار الأساس . . تهاوى البنيان . . يقول عز وجل : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٩] .

ثمرة الإخلاص :

وعندنا تتخلق قيمة الإخلاص فى قلب المؤمن . . فإنه يكون أقرب ما يكون لله عز وجل . . والذى يتلطف به سبحانه فيرسل إليه من جنوده ملكًا يسدد خطاه . .

قال أبى بن كعب رضى الله عنه : لأدخلن المسجد فلأصلين . ولأحمدن الله بمحامد لم يحمده بها أحد . . فلما صلى . . وجلس ليحمد الله ويثنى عليه إذا هو بصوت عال من خلفه يقول : اللهم لك الحمد كله . ولك الملك كله . وبيدك الخير كله . وإليك يرجع الأمر كله : علانيته وسره . لك الحمد إنك على كل شىء قدير. اغفر لى ما مضى من ذنوبى . واعصمنى فيما بقى من عمرى . وارزقنى أعمالا زاكية . ترضى بها عنى . وتب علىَّ .

فلما قص على الرسول ﷺ ما حدث قال : « **ذاك جبريل عليه السلام** » .

وفى التمكين لقيمة الإخلاص نتساءل :

ما هى وظيفة الداعية .. إنها « النصيحة » ومادة « النصح » تدور على محور « النقاء . . والصدق » يقال : رجل ناصح الجيب . أى : نقى القلب .

والناصح : الخالص من كل شىء .

ونَصَحَتْ الإبل الشرب نُصُوحًا .

والتوبة النصوح : الصادقة .

وإذن فأول ما يتسلح به الداعية هو : **الإخلاص** . . إنسجامًا مع وظيفته .

ولقد تجسد هذا المعنى فى « بشر الحافى » .

يقول أحد الباحثين : « والتعفف شرط الولاية ، كما يقول أهل الصلاح .. وكما فى قصة الصياد الفقير والقطب الزاهد بشر بن الحارث الذى عرف باسم «بشر الحافى » لأنه كان يمضى إلى طلب العلم فى شبابه حافيًا إجلالا له ، فلقد شكا له ذات يوم صياد فقير من سوء حاله وعدم توفيقه فى الحصول على قوت أبنائه فطلب منه بشر أن يحمل شبكته ويذهب معه إلى النهر ، وهناك أمره الزاهد الكبير أن يتوضأ ويصلى ركعتين ففعل فأمره أن يذكر اسم الله ثم يرمى بشبكته فى النهر .. وغادره عائدًا إلى بيته فلم يمض وقت طويل حتى خرجت الشبكة بسمكة كبيرة لم ير لها الصياد مثيلاً من قبل . فحملها إلى السوق وباعها بثمن طيب واشترى لعياله طعامًا كثيرًا ورجع إليهم فأكلوا حتى شبعوا .

ثم تذكر الشيخ الطيب فنهض حاملا بعض الطعام والحلوى وتوجه إلى بيت بشر وروى له ما كان من أمره ثم قدم له الطعام راجيًا منه قبوله شكرًا وامتنانًا ، فابتسم بشر وقال له : يا فلان .. لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة .. فاذهب وكله أنت وعيالك!

بمعنى أنه لو كان ممن يقبلون مكافأة أو أجرا على عمل الخير لما استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائه لهذا الصياد بالرزق الوفير .

وهذا هو حالنا نحن البشر أيضًا يا صديقى . لو لم نتعفف عن بعض المتع العابرة والزائلة .. حتى ولو خيل إلينا أننا فى أشد الحاجة إليها فى بعض الأحيان لما نلنا « سمكة » احترام الأبناء وشركاء الحياة والأهل المقربين لنا ولا حبهم لنا واعتزازهم بنا .. ولما نلنا كذلك جوائز الاستقرار العائلى والهدوء والأمان فى سن الجلال والاحترام ، بل ولما حق لنا أن نتطلع إلى رحمة الله ونهتف داعين من أعماق قلوبنا : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] صدق الله العظيم .

إن المظاهر قد تخدعنا أحيانًا . . فلا تستبين ملامح الحقيقة الغائبة هناك فى ضباب من الشهوات والشبهات . .

والمفروض أن قيمة العمل . . ومركز الإنسان . . إنما ينطلق أساسًا من باطنه : من قلبه : من نيته . .

ألم تر إلى أصحاب الصخرة لما قرروا أن يتقربوا إلى الله بما عملوا من خير فى سالف أيامهم ؟

لقد كانت أعمالهم فى ذاتها ضخمة بالمقياس الاجتماعى . .

لكنهم لما سألوا الله الفرج لم يسألوه تعالى بحجم العمل ووزنه الاجتماعى . . لكن أحدهم كان يقول : اللهم إن كنت فعلت هذا العمل ابتغاء وجهك ففرج عنا!

فليس المهم حجم العمل .

وأهم منه : لمن تقدم هذا العمل .

ونذكر هنا موقف هذا الرجل الذى تميز بين الصحابة بشجاعته . . فى منازلة الأعداء . .

لكن الرسول ﷺ قال بشأنه : « **هو فى النار** » !!

ولقد تحركت غريزة حب الاستطلاع فى قلب صحابى جليل فتابع هذا البطل . . فى محاولة لحل هذه المعادلة الصعبة . .

إذ كيف مع هذه البطولة يكون فى النار ؟

ولقد كانت المفاجأة مذهلة عندما وجده يصاب بجرح . . فلم يصبر عليه فثبَّت سيفه بين ثدييه . . فمات !!

فكبر الصحابى . . ثم أخبر الرسول ﷺ الذى قال له : « **أنا رسول الله !** »

ولك أن تعجب من هذه المفارقة العجيبة . . إذا ما قلبت الصفحة فإذا أنت أمام

رجل يعلن إسلامه . . ثم . . وفى نفس اللحظة يدخل المعركة مخلصًا . . فيرزق الشهادة . . فيدخل الجنة . . مع أنه لم يصل ركعة واحدة ! . .

وهكذا .. درهم من الإخلاص . . أثقل فى الميزان من قنطار من العمل . .

إن « الإخلاص » يعنى : التخلص من كل ما سوى الله عز وجل من مظاهر الدنيا . . لأننا ندعو « إلى الله » وفى « سبيل الله » .

ومن الإخلاص : التخلص من كل مشاغل الدنيا . . لتكون القضية المراد إبلاغها هى الهدف الوحيد . . والشاغل الوحيد . .

ذهبت مرة للاستماع إلى محاضرة « **بالشبان المسلمين** » للمرحوم الدكتور أحمد الشرباصى . .

وفوجئت به يدور حول الجمعية . . وقبل المحاضرة بقليل . . سلم علىّ بفتور أفزعنى . . لكننى فهمت بعد ذلك أننى لم أكن موفقا حين اقتحمت عليه خلوته . .

فقد كان يرتب عناصر المحاضرة . . ويجمع شتات أفكارها . . ليدخل إلينا مستعدًا . . ممتلئًا بها . .

وهذا هو الطريق إلى تحقيق الأهداف الكبرى .

لابد من فراغ البال. . وتنحية المشاغل. . والتوجه بالكيان كله صوب الهدف.

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **غزا نبى من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فقال لقومه : لا يتبعنّى رجل ملك بُضعَ امرأة وهو يريد أن يبنى بها . ولما يبْن بها** ـ عقد عليها ولم يدخل بها فهو مشتاق ـ **ولا أحد بنى بيوتًا لم يرفع سقوفها . ولا أحد اشترى غنما أو خَلِفَات** [١] **وهو ينظر أولادها..**» [٢].

---

(١) خَلِفات : جمع خَلِفة ـ وهى الناقة الحامل .

(٢) متفق عليه .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ [الشرح:٧] وفرغت من شئون الدنيا فى نصب العبادة .

«لا صلاة بحضرة طعام ، ولا هو يدافعه الأخبثان » [1] .

ومن الإخلاص :

بصق « عمرو بن ودّ » فى وجه الصحابى !! الذى لم يقتل عَمراً .. وكان بإمكانه ذلك .. ويسأله عمرو بن ود .. لماذا لم تقتلنى .. وقد أتيحت لك فرصة العرب ؟!!

فرد عليه : لو قتلتك .. لكان ذلك ثأراً لنفسى .. ولكنى أريد أن أقتلك فى سبيل الله !

وكانت أم « سعد بن أبى وقاص » ﷺ تعلم أنه رقيق الحاشية عاطفى .. وبالتالى فسوف يعود إلى دينها يومًا ..

ولكنه فجعها بإخلاصه وثباته .. والذى ظهر فيما يلى :

١ ـ أرسل إليها .. ولم يذهب إليها .

٢ ـ ثم قال لرسوله إليها (يبلغك سعد) ولم يقل (ابنك) .

يبلغك أن : أبى الإسلام « لا أب لى سواه » .

قالوا فى الإخلاص : إن الإخلاص فى أدق معانيه هو : أن تتخلص من كل مظاهر الدنيا .. بمعنى أن تكون فى جيبك .. لا فى قلبك .. ليكون عملك لله وحده .. من غير نظر إلى تقدير الناس .

ومهما يكن العمل ضخمًا فى مرأى العين .. فهو لا يساوى شيئًا فى غياب قيمة الإخلاص ..

وخذ من حياته أدلة على مدى اطراحه رأى الناس فيما يفعل .. اتكالا على الله وحده سبحانه ..

(١) أخرجه مسلم (٥٦٠) كتاب المساجد .

ذات يوم .. نزل ﷺ عن ناقته - وهو فى زيارة - للجبهة الغربية فحمل خفيه على عاتقه ..

ثم خاض بحيرة ماء .. فماذا حدث ؟!

إن صورة الفاروق ﷺ فى أذهان الناس أنه « رافع درّته » يؤدب بها العصاة..

لكنه هذه المرة وفى رحلة له .. وعلى مشارف دولة الروم كان « يرفع نعليه » بينما يخوض النهر ..

فقال له أبو عبيدة : الروم يرونك كذلك ؟!!

فقال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة .. لجعلته نكالاً لأمة محمد !

لقد أعزنا الله بالإسلام .. فمهما طلبنا العز فى غيره أذلنا الله .

وهكذا كان منطقه الصارم الحازم والذى يعلم الناس .. أن صورة « النجم » وإن بدت فى النهار « تحت » فإنها فى الواقع « فوق » .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يبدو عاليا وفى طبقات الجو .. وهو وضيع

ولم تكن هذه بيضة الديك .. ففى حياته منها الكثير .

قال لغلام مرّ به يركب حماراً وكان واضعًا رداءه على رأسه من الحر : احملنى معك يا غلام .. فوثب وقال : اركب يا أمير المؤمنين .

قال عمر : لا .. اركب أنت .. وأركب أنا خلفك .. تريد تحملُنى على المكان الوطئ وتركب أنت على الموضع الخشن ؟!

فركب خلف الغلام .. والناس ينظرون إليه .

وهكذا يمضى على طريق السنة .. حتى فيما يتساهل فيه الناس .. فقد ورد

صاحب الدابة أولى بصدرها ؛ لأنه أرفق بها . وأعرف بمسالك الطريق .

وهكذا يبدو أمير المؤمنين . . رديفًا . . وعلى ظهر حمار . . والناس ينظرون ويتعجبون . . ولكنه ناظر إلى رب الناس !

وقد روى أنه وفى اللحظات الأخيرة من حياته بعد الطعنة الغادرة يسمع ابن عباس رضي الله عنه يشيد بحسناته ليخفف من كرباته . . فيرد عليه بقوله : (. . أما ما ترى من جزعى فهو من أجلك وأجل أصحابك . .) .

يريد أن ألمه ليس من الجراح ولكنها الخشية على الأمة أن تنشب فيها الفتن من بعده .

يقول الباحثون : [ولعل أغرب ما روى عنه أثناء ذلك أنه سمع فتى يطرى ماضيه فى خدمة الإسلام ، ولمح فى ثوبه طولا يتجاوز حدود السنة . فلم يصرفه اطراؤه عن أن يقول له يا بن أخى . . ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك . . وهكذا يوفى الفاروق ميثاقه لأمته ، فلم ينحرف قط عن النصح لها قيد عمره . . حتى انتقل إلى جوار ربه فى كنف صاحبيه] ا. هـ .

ومع كل هذه الأعمال الكبار . . فقد كان يشعر أنه على خطر عظيم . .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : دخلت على عمر حين طُعن . . فجعلت أثنى عليه . وقلت : مصَّر الله بك الأمصار . . وفتح بك الفتوح . . وفعل بك وفعل .

فقال عمر رضي الله عنه : بالإمارة تغبطونى ؟!!

فوالله لوددت أن أنجو كفافًا . . لا أجر . . ولا وزر !!

وفى ضوء هذا الرد الصارم نذكر بعض الناس اليوم : يُمدحون بما ليس فيهم . . فيفرحون . . فإذا قيل فيهم ما هو فيهم . . يغضبون . . وتعجبت . . حتى كدت لا أتعجب !!

ومن معانى الإخلاص : التخلص من مشاغل الدنيا . . ونكرر

فقد تكون في عملك مخلصًا .. ولكنك مشغول بأمور معاشك .. وعندئذ.. وحتى لا يكون الأداء مشوشًا يجب إرجاء العمل .. حتى تزول هذه العوائق .

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعنى رجل ملك بُضع امرأة .. وهو يريد أنْ يبنى بها .. ولما يبن بها .. ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها .. ولا أحد اشترى غنمًا .. أو خلفات[1] .. وهو ينتظر ولادها ...** » .

فغزا .. فدنا من القرية صلاة العصر .. أو قريبًا من ذلك .. فقال للشمس: « **إنك مأمورة . وأنا مأمور .. اللهم احبسها علينا . فحبست حتى فتح الله عليه** » .

النبى هو : يوشع بن نون .. والحديث : متفق عليه .

وفى رواية مسلم : « **.. فغزا .. فأدنى للقرية حين صلاة العصر .. أو قريبًا من ذلك** » .

ومعنى أدنى : أى أدنى جيوشه من القرية .

وفى الحديث : أن مهمات الأمور ـ ومنها الدعوة لا تُسنَد إلا إلى أولى العزم.. وفراغ البال لها .. ولا تسند إلى مشغول القلب بغيرها لأن ذلك يضعف عزمه .. ويفوِّت كمال بذله وسعيه فيه .

وإذن .. فلتكن للداعية غاية . ومع الجماعة تحت راية .. بالتخلص من شهوات الدنيا .. إنها حجارة قديمة فى أساس منزل يوشك أن ينهار .. فاعتبروا يا أولى الأبصار .

● ● ●

(١) خَلِفات : جمع خَلفة : الحوامل من النوق ، ويقال : سكت ألفا ونطق خلفا أى : سكت عن ألف كلمة صواب .. ثم نطق خطأ .

من شجاعة المخلصين

ومن ثمرات الإخلاص : الشجاعة الأدبية :

ويروى : أسّر أبو بكر لعمر ﷺ .. بإعطاء المؤلفة قلوبهم عطاءهم بعد وفاته ﷺ .

لكن عمر مزّق الخطاب قائلاً : كنا نعطيكم والإسلام فى حاجة إليكم واليوم ليس بيننا وبينكم إلا السيف .. بعد ما عز الإسلام .

فرجعوا إلى أبى بكر فى محاولة للوقيعة بينهما فقالوا : مزق عمر الخطاب .. ولا ندرى : أهو الخليفة أم أنت ؟!

فقال : هو الخليفة .. لو أراد ؟

وقطعت « جهيزة » قول كل خطيب !

● ● ●

طاعة الله عز وجل

قال الداعية لتلاميذه : أتدرون ما هو الداء ؟ الذنوب . والدواء : الاستغفار. والشفاء : القرآن .

● ● ●

من أخلاق الداعية

مشى « ابن أدهم » يريد الحج . قال له راكب : أين الراحلة .. فالطريق طويل ؟!

فرد عليه قائلا :

فى المصيبة : أركب الصبر .

وفى النعمة : أركب الشكر .

وفى القضاء : أركب الرضا ..

وإذا دعتنى نفسى إلى شىء .. علمت أن ما بقى من الأجل أقل مما مضى .

فقال له الراكب : سر بإذن الله .. فأنت الراكب وأنا الماشى !!

• • •

العفو

ومن أسلحة الداعية : العفو .. عند المقدرة :

إذا كان آثمًا من ارتبط بالخمر على نحو ما : شاربها كساقيها كالمعدّ لها ..

فإن كل من قال كلمة تمهد للعفو فهو مأجور .

هذا العفو الذى ينال به الداعية أضعاف ما ينال بشدته .

إن الناس ألوان : فالذى يغْلَط .. ثم يرجع .. لا يعد ذلك خطأ .. لأنه قد خرج منه .. برجوعه عنه ..

وإنما الخطأ .. عندما يصر المخطئ على خطئه .. ولا يرجع عنه ..

فذلك يعد كذابًا ملعونًا ..

ولكن .. يجب أن يظل الداعية ممسكًا بالخيط مهما تمادى المدعو فى جفائه .. مدركًا ما يلى :

١ ـ إذا كان المدعوون معينين .. ثم وعظهم مرة .. بعد مرة .. ثم تأكد له إعراضهم .. فلا تنفع الذكرى .

أما الواعظ العام .. فلا بأس من مضيه فى موعظته .. فقد تصادف نفسا مستعدة للهداية .

يقول تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] .

أيها الداعية : إذا رأيت رجلا فيه خصلة واحدة من الخير.. فلا تفارقه فقد

يصيبك من بركاته .

وتذكر ما روى عنه ﷺ : يقول الله عز وجل فى سورة طه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾ [طه : ١٠٨] .

كان الظن - وفى هندسة البلاغة - أن يقال هنا : وخشعت الأصوات للجبار . . لكنه عز وجل يختار من صفات الجمال : الرحمن : لماذا ؟ لأن وصف الرحمن يحقق ما يلى :

لعصاة المؤمنين : الأمل فى عفو الله تعالى ورحمته .

وللكفار : أن الله سبحانه المتجلى بالرحمة . . لن يحكم عليهم إلا بالعدل .

وهكذا منهج الإسلام : تنتقل بك الآيات من الحاضر . . إلى الماضى . . ثم إلى المستقبل . . حتى تظل على اتصال بالماضى اعتبارًا به . . وبالمستقبل استعدادًا له .

ثم هى تقول لبعض الدعاة : إن صفات الله تعالى لم نخبر بها ليتحول الإنسان إلى متأله . .

ولكنها : دعوة إلى الترقى فى مدارج الكمال والجمال .

متى يكون التشدد ؟

١ - فى فترات الانتقال .

٢ - تمهيدًا لسيطرة العقل .

٣ - الشهوة الحسية قوية . . والتساهل فيها أولا مفسد وهكذا :

أ - عملية ترويض الوحوش .

ب - وفطام الطفل .

القسوة الحازمة أولا . ثم نعود رويدا إلى الحياة العادية .

وهكذا : ينسى الطفل ثدى أمه .. ويألف الطعام .. ويألف الوحش مروّضه..

عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **قرصت نملة نبيًا من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه : أن قرصتك نملة .. أحرقت أمة تسبح** » (١).

إن الحق سبحانه وتعالى وهو الخالق القاهر الرازق .. ينتصر سبحانه للنملة التى لا تكاد ترى .. فكيف بالإنسان الذى كرمه الله تعالى ؟!

كان الملك الكامل قد تغير على بعض إخوته ، فكتب إليه وزيره « الصلاح » مستشفعًا : من شرط صاحب مصر أن يكون كما قد كان يوسف فى الحسنى لإخوته ساءوا .. فقابلهم بالعفو .. وافتقروا فبَّرهم وتولاهم برحمته !

يقول عز وجل : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

لابد من إصلاح ما أفسد العطار .

ذلك: بأنه فى البداية قد ينطفئ الحريق .. ولكن يبقى له وهج .. ودخان!!

ولابد من التخلص من هذا الدخن .. حتى تعود المياه إلى مجاريها ..

وعندئذ .. يصير الطريق ممهودًا أمام الداعية ليقول كلمته فى الظروف المواتية..

ومهما ظن الغشوم أنه حقق نجاحًا .. فإن العاقبة للتقوى .. للحق .. للعفو على ما يقول الشاعر :

هو الحق يُغفى .. ثم ينهض ساخطا   فيهدم ما شاء الظلام ويحطم

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ، وأبو داود .

وتذكر أنك من قوم كان العفو شرعة لهم ومنهاجًا :

لقد كان المسلمون يقاتلون الأعداء « نهاراً » فإذا أقبل الليل بعثوا إليهم الطعام .

تذكر دائمًا ما كان عليه سلفك : ما فعلوه .. وما قالوه :

أ ـ نوايا مخلصة . . وعقول متخصصة .

ب ـ كلما ارتفعت . . كلما رآك الحاقدون صغيراً .

جـ ـ لا يهمنا إذا كان القط أبيض أو أسود ما دام يأكل الفئران .

فاغفر لأعدائك : إنهم غرقى فى بحر من الأوهام : فأى شىء وجدوه .. تعلقوا به !

وإذا لم تغفر لهم . . فقد استوى الماء والخشبة . . فكن بالعفو محسنًا . .

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا   ما لم يروا عنده آثار إحسان

وبين يديك عبر ودروس :

أ ـ قال « الأحنف بن قيس » لولده :

إذا أردت أن تؤاخى أحدًا . . فأغضبه . . فإن أنصفك من نفسه . . وإلا فاتركه .

بل إنك كداعية . . ولمصلحة الدعوة . . لا تتركه ! لا تتركه نهبا للشيطان .

ب ـ قال رجل لأبى بكر رضي الله عنه : لأسبنّك سبا يدخل معك القبر . . فأجابه الصدِّيق : معك . . لا معى !!

جـ ـ وقال رجل لآخر : لو أسمعتنى واحدة . . لأسمعتك عشرا . . فقال له: وإن أسمعتنى عشرا . . فلن تسمع منى واحدة !!

وكان معاوية رضي الله عنه يقول : إنى لأستحيى من رجل لا يجد سوى الله علىّ

نصيراً .

وقيل : ما هبت رجلا أكثر من هيبتى ممن ظلمته . وليس له ناصر .

وكان كسرى ـ وهو صغير ـ كان معجبًا بمعلمه .

وذات يوم ضربه هذا المعلم ظلمًا . وأسرها كسرى فى نفسه ولم يبدها له .

فلما تولى الملك سأل معلمه : لماذا ضربتى ظلمًا .. يوم كذا ؟

فقال له المعلم : كنت أقرأ فى المستقبل أنك ستكون ملكًا . فأردت أن أذيقك طعم الظلم .. حتى لا تظلم !

وصدق القائل : إياك ودمعة اليتيم .. ودعوة المظلوم .

وكان من سماحتهم قول الداعية .. وقد أراد تصحيح بعض المفاهيم . أنا لا أعلِّم جاهلاً .. ولكنى فقط .. أذكّر ناسيًا .

● ● ●

الغفـــران

هو : تغطية الذنب .. بالعفو عنه .

ومنه قولهم : [أصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ] .

وهكذا أصحاب المروءات يغفرون .. مهما كان حجم الإساءة .. يغفرون.. وهم قادرون على رد اللطمة لطمتين والصاع صاعين !

قد يَخزُن الورع التقىُّ لسانـــه حذر الكلام .. وإنه لمفـــوّه

وهكذا يجب أن يكون الداعية .

الأحق بالغفران :

إن الضعيف لا يغفر .. وإنما يغفر القوى .. ويتسامح .. فيُبقى على الجسور بينه وبين من حوله ممتدة ..

في الوقت الذى ينسف التعصب كل الجسور . . الذى كنت ستعبرها غدا !!

وسوف يغزو المتعصب إحساس بالاغتراب وإن كان يعيش فى المجتمع : فليست الغربة أن تكون وحدك . . وإنما هى : إحساسك بالعزلة مع أن حولك ألفًا !!

ولا ينبغى أن يكون الداعية كذلك . . لأنه مطالب بأن يركب الصعب دائمًا .

فهو يتقى شر من أساء إليه . . بدوام الإحسان إليه ؟!

كلما زاده جفاء . . زاده . . وفاء . . وهذا قدر الرواد . . لأنهم قواد . . ولأنهم قواد . . فهم يتحملون ما لا يحتمل !

إنك داعٍ إلى سبيل ربك . . ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] .

ومن التى هى « أحسن » لا تعرض عنهم . . يأسا منهم . . ولا تقابل إساءتهم بمثلها .

وليس عليك إلا البلاغ . وقد بلّغت . ولست مسؤولاً عن نتيجة لا يعلمها إلا الله . فهو تعالى ﴿ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٧] .

وسلاحك : دقائق الحقائق ، وأسمى الرقائق . ومحكم الدلائل . وأحكم الوسائل . وليس العنف من أسلحة الدعاة كما قلنا .

وتأمل قوله عز وجل : ﴿وَلَا تَكُ ...﴾ [النحل: ١٢٧] بحذف النون أوجز فى العبارة . . إشارة إلى قرب الوصول :

وأبرح ما يكون الشوق يومًا   إذا دنت الديار من الديار

﴿ فِي ضَيْقٍ ﴾ [النحل: ١٢٧] التنوين للتحقير أى : فى أدنى ضيق .

فلا تستعجلوا قلقًا . . ما استعجله الكفار استهزاء .

وهكذا كان حكامنا .

قال المأمون يومًا : أحب العفو حبا أخشى معه ألا أثاب عليه .. ولو علم الخطّاؤون عفوى .. لتقربوا إلىّ بالجرائم .

• • •

البحث عن العفو

قال الشاعر « أبو تمام » :

من لى بإنسان إذا أغضبتُه وجهلت .. كان الحلم رد جوابه

وإذا رغبت إلى المُدام شربت من أخلاقه .. وسكرت من آدابه

وتراه يصغى للحديث بسمعه وبقلبه .. ولعله أدرى به!

• • •

الاعتزاز بالعفو

وقد أسمع القول الذى كان كلما إذا ذكَرَتْه النفس قلبى يُصدَّع

فأبدى لمن أبداه .. منى بشاشة كأنى مسرور بما منه أسمع

وماذا من عجب به غير أننى أرى أن ترك الشر للشر أقطع

وقال آخر :

أحب معالى الأخلاق جَهدْى وأكره أن أعيب وأن أعابا

وأصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من حبَّ السبابا

وأترك قائل العوراء عمدا لأهلكه .. وما أعيا الجوابا

ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

وأهم من ذلك كله : التخلق بأخلاقه عز وجل :

فهو سبحانه : الرحيم ، الغفور ، التوّاب ، العزيز ، الحكيم .

رحمته تعالى مخلوقة :

الجنة رحمة « **أنت رحمتي** » لأنها محل الرحمة . . أو محل من رُحم .

ورحمة هي صفته :

وهذه : عامة . . للخلق .

وخاصة . . بالمؤمنين . ﴿ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٤٣] .

والتوّاب صيغة مبالغة : فهو تعالى :

١ ـ يوفق إليها .

٢ ـ ويقبلها ولو نقضت وتكررت .

٣ ـ ومهما كان الذنب .

٤ ـ ولكل الخلق .

وهو تعالى العزيز :

عزيز :

أ ـ عزة المَنَعة : فهو منزه من كل نقص .

ب ـ وعزة الغلبة .

جـ ـ وعزة العظمة .

وهو تعالى حكيم :

أ ـ يُحكم صنعته .

ب ـ وحكمه صادق .

وتذكر قوله ﷺ : « **تخلقوا بأخلاق الله** » بمعنى : تخلقوا بما يحبه الله تعالى . . ولاشك أن العفو مما يحبه الله تعالى .

العدو النبيل :

وقد كانوا يطلقون على « صلاح الدين » « العدو النبيل » .

فلتكن بالعفو والتسامح نبيلاً .

● ● ●

فى نور القرآن الكريم

يقول عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١، ٢] .

اتصف سبحانه وتعالى بصفات الجمال .. والجلال .

والنهار مظهر جماله تعالى :لأنه [فى تمام ضوئه ، واعتدال جوه ، ونافع حرارته وحركته ، مظهر ومجلى هذا الجمال وهذا العطاء] .

والليل : فهو مظهر جلاله :

[بظلامه .. وسكونه .. ونومه] .

فكأنه تعالى يقسم بنفسه .. مشيراً سبحانه إلى ربوبيته للعالمين .. ومعينه للخلق أجمعين . على أنه تعالى: منذ اصطفاك .. لم يتركك . ومنذ أحبك .. لم يبغضك .

[فالعلم القديم .. لا يقبل التبديل .. والعناية السابقة.. لا تتغير : فلا ترك.. ولا بغض .. وإنما هو القرب] .

ومن زكاة « القرب » : أن تتقرب إلى عباده .. إلى عياله .. بالصفح والتسامح .

● ● ●

عـدله وفضـله

قال ابن عطاء الله السكندرى : « لا صغيرة إذا قابلك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله » .

قال ابن عباد : إذا ظهرت الصفات العلية ، بطلت أعمال العاملين .

فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه الله ومقته ، بطلت حسنته وعادت صغائره كبائر .

وإذا ظهر وصف الكرم والفضل لمن أحبه اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر .

قال يحيى بن معاذ ﷺ : إذا وضع الله عليهم عدله لم تبق لهم حسنة ، وإن نالهم فضله ـ لم تبق لهم سيئة .

ومن دعائه قوله ـ إلهى إن أحببتنى غفرت سيئاتى ، وإن مقتنى لم تقبل حسناتى .

وما أحسن قول سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ فى دعائه ومناجاته كان يقول : واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والإساءة لا تضر مع الحب منك.

وسيأتى فى مناجاة المؤلف ـ يقصد ابن عطاء الله ـ رحمه الله فى مثل هذا المعنى قوله : إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها ، هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أقالنى منها فضلك .

نخلص من هذا بالقول الثانى إذا قابلك الحق سبحانه وتعالى بعدله لم تبق لك صغيرة وعادت صغائرك كبائر وإذا واجهك بفضله نجوت .

قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩ ، ٥٠] وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد: ٦] .

حق الله .. وحق العبد

كان النهى عن شهادة الزور أشد من النهى عن الشرك . .

بدليل : « .. **وكان متكئًا فجلس ..** » .

وهكذا من رحمة الله بنا أن كان حق الإنسان قبل حق الدّيان !

وقد وعى سلفنا هذا الدرس : فاتخذوا الله صاحبا . . وتركوا الناس جانبًا . .

كان منهم السكوت . . وملازمة البيوت !!

• • •

من سماحة الإسلام

جاء فى « السنن الكبرى » للبيهقى :

قال عمر لأنس رضي الله عنهما : ما فعل الرهط الستة من « بكر بن وائل » الذين ارتدوا عن الإسلام ، فلحقوا بالمشركين ؟

قال أنس : فأخذت به فى حديث آخر : أى يشغله عنهم .

قال : ما فعل الرهط الستة الذين ارتدوا عن الإسلام ، فلحقوا بالمشركين من بكر بن وائل ؟!

قال : يا أمير المؤمنين . . قتلوا فى المعركة !

فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون !!

قلت : يا أمير المؤمنين ! وهل كان سبيلهم إلا القتل ؟

قال : نعم . . كنت أعرض عليهم الإسلام . . فإن أبوا استودعتهم السجن] [1] .

---

(١) السنن الكبرى (٨/ ٢٠٧) .

إن هدف الداعية الأكبر هو : أن يحبب الناس فى الله تعالى . وفى دينه القويم بالتسامح .

مثال : كان الوالى فى الشام يوقف من لم يدفع الجزية من أهل الكتاب فى الظهيرة . . عارى الرأس . . ثم يصب على رءوسهم الزيت . . ليمرض . .

وكان الخليفة عمر رضي الله عنه . وكان المتوقع أن ينسجم هذا التصرف مع طبع عمر الشديد .

ولكنه أرسل إلى المحافظ . . يقول له : إن الله تعالى بعث محمدًا هاديًا . . ولم يبعثه جابيًا !!

وإذا كان « المحافظ » لم يخل بواجبه الإدارى . . فقد أخل بواجبه الإسلامى . .

وكان عليه أن يعفو . . ليحسوا برحمة الإسلام . . فيدخلوا فيه . . بدل أن يضع فى أيديهم مسوغًا يؤكد الشائعات حول قسوة الإسلام . . التى هو برىء منها . .

• • •

التحريض على العفو

وفى طليعة ما يحملنا على العفو قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ... ﴾ [النساء:١٥٣] .

فقد عفا سبحانه وتعالى . . حتى عن اتخاذهم العجل بعد ما تابوا . .

فكيف لا يعفو المخلوق ؟!!

ولنذكر كيف كان سلفنا الصالح يتلقى قوله عز وجل : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾[الزمر:٤٧] . بدا لهم . . من عفوه تعالى ما لم يكن لهم فى

حساب إلى حد أن إبليس قد يطمع فى عفوه تعالى .. لما يرى من صور عفوه وكرمه عز وجل ..

إن بعض الناس يهمل مريضه .. حتى إذا مات وقف على قبره باكيًا ..

فلنحاول إعانة المريض بالمعصية .. لينهض .. ثم نوفر دموعنا .. التى تنحدر بعد فوات الأوان .

أما بعد :

فعلى الداعية إدراك ما يلى :

أن للإنسان ثلاث أحوال :

١ ـ أن يعرف الحق ويعمل به .

٢ ـ يعرف الحق .. ولكن لا يعمل به .

٣ ـ أو يكون جاحدا لهذا الحق .

ففى الحالة الأولى : يدعى بالحكمة .

والثانية : يلاحظ أنه يعرف الحق .. ولكن النفس والهوى والمصلحة تنازعه .

فهو يدعى بالموعظة الحسنة .

أما الجاحد : فيدعى بالجدل عن طريق مقدمات هو مسلم بها سلفا .

● ● ●

موعظة

رأى أحد الصالحين رجلا لا ينقطع عن المعاصى ، وقد غمره الله بنعيم ظاهر. وقد تعجب الناس من أمره !!

فقال لهم الرجل الصالح: لا تعجبوا من أمره [ربّ كريم ، وعبد لئيم] .

فسمع العاصى هذه الكلمة . . فتأثر بها . . وبكى وطلب من الرجل الصالح أن يدعو له بقبول توبته . . وغفران ذنوبه . .

فقال له : يا هذا أين أنت من فضـــل الله تعالى فى قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠] .

إلهى .. هب لى منك توبة . . أنال بها رضاك .

● ● ●

ومن خصائص الداعية الوضوح

يقولون : اتَّسم « الخطاب الكلامى » وهو خطاب علماء الكلام بالغموض من حيث اشتماله على مصطلحات لا يفهمها إلا الخاصة من أهل علم الكلام أنفسهم . . بينما خفى على العامة . .

وكان من أسباب ذلك أنهم اقتحموا مناطق محظورة مثل البحث فى ذات الله عز وجل .

وكذلك كان الخطاب الفلسفى الذى خاض أيضًا فى موضوعات عز على العامة استيعابها من مثل : « الفعل الفعال » ، و« العقل المنفعل » ، و« النفس الناطقة » ، و« النفس النباتية » وهكذا . .

ولم يكن « الخطاب الصوفى » بأقل منها غموضا ؛ لأنه لم يكن يحتكم إلى العقل بل كان جوهره هو : التذوق .

ومن ذاق عرف . .ولا يعرف الشوق إلا من يكابده . . ولا يكابده إلا القليل .

أما « الخطاب الدعوى » فإن من خصائصه الوضوح . ذلك بأن المدعو مطالب بالعمل بمقتضاه . . فلابد أن يكون ما يؤمر به أو يُنهى عنه واضحًا فى ذهنه كل الوضوح . . ليأخذ بعد ذلك الخطوة العملية إقبالاً عليه .

وإنما يتحقق ذلك بأمور منها : الوضوح.

ومن الوضوح :أن يكون الموضوع مما يدخل فى قدرة المستمع . . بعيدًا عن التعمق المفضى إلى الملل . . ثم إلى الزهد فى الوعظ جملة . . أو المؤدى إلى الشك أو اهتزاز العقيدة .

قال الإمام النووى فى التقريب وهو يتحدث عن آداب المحدث .

وليتجنب ما لا تحتمله عقولهم وما لا يفهمونه .

وقال الإمام السيوطى فى شرح « التدريب على التقريب ».كأحاديث الصفات

لما لا يؤمن عليهم من الخطأ .

والوهم والوقوع فى التشبيه والتجسيم يعنى لا تقال الأحاديث مجتمعة بل مفرقة فى مناسبات . فقد قال على رضي الله عنه : « تحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون » (١) .

ومن الوضوح : مراعاة سنة التدرج :

لما ضرب حمزة أبا جهل قال له : أتشتمه وأنا على دينه : يقول ما يقول !!

يقول حمزة رضي الله عنه : لما احتملنى الغضب وقلت : أنا على قوله أدركنى الندم على فراق دين آبائى . . وبتّ من الشك فى أمر عظيم . . لا تكتحل عينى بنوم ثم أتيت الكعبة . وتضرعت إلى الله فشرح صدرى . . فأسلمت .

وهكذا كان إعلان إسلامه بعد ما ضرب أبا جهل . .كان فورة انفعالية . . فيها رائحة التحدى . . تقف من ورائها عصبية القبيلة .

ومن أجل ذلك . . وبعد أن انكشفت الرغوة العائمة . . تبين له أن العادة مازالت متمكنة منه . . وأن الحنين إليها ما يزال يناوشه من قريب . .

وكان درسًا فى ضرورة بناء العقيدة فى جو هادئ . . يتنامى فيه اليقين حتى تضرب جذوره فى أرض النفس فلا يتزعزع بعد ذلك أبدًا . . .

وفى سيرته ﷺ ما يؤكد ذلك : فعندما التقى به النفر من الخزرج للمرة الأولى . . لم يزد على أن زين لهم الإسلام وحببه إليهم . .

فلما وفدوا عليه فى العام اللاحق . زاد على مبايعتهم على الأخلاق . . أن عاهدهم على أداء العبادات . .

ثم كان مسك الختام . . لما عادوا إليه ﷺ فى العقبة الثانية فقد بايعهم على نصرته بالجهاد . . وعلى الإيواء . . وأن يمنعوه مما يمنعون منه أهليهم .

(١) ثقافة الداعية ص٧١ ، رواه البيهقى فى الشعب عن المقدام بن معد يكرب .

شاهد من الطبيعة [1] :

تتسلل الأمور الحيوية فى دنيا الإنسان بحسب أهميتها على النحو التالى :

أولا: الهواء .

ثانيا : الماء .

ثالثًا : الأكل .

ولهذا جاء سبحانه بالهواء جودًا عامًا فى كل زمان ومكان .. وكان الماء دونه.. والقوت يأتى فى مرتبة أخيرة .

فكان العثور على الماء أيسر .. من القوت ولذلك قُدِّم عليه . فكذلك فى الدعوة :

إن حاجة الخلق إليها أشد من حاجتهم إلى دلائل النبوة .. ولهذا كما يقول ابن تيمية ـ يسَّرها الله تعالى .

فلنبدأ بها .. ولا نشغل المدعو بكلام لا طائل تحته .

تلك هى القاعدة .. أما إذا عاند المجادل ..

فالأمر هو :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ومن هنا .. قالوا فى مراعاة سلم الأولويات :

[ما اشتدت إليه الحاجة فى الدين والدنيا .. فإن الله يجود به على عباده جودًا عامًا ميسرًا .. فلما كانت حاجتهم إلى التنفس أكثر من حاجتهم إلى الماء..

وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل كان سبحانه قد جاد بالهواء جودًا عامًا .. فى كل زمان ومكان .. بضرورة الحيوان إليه ..

(١) من توجيهات ابن تيمية .

ثم الماء دونه . ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر .. لأن الحاجة إليه أشد ..

فكذلك دلائل الربوبية : حاجة الخلق إليها فى دينهم أشد الحاجات ..

ثم دلائل النبوة .. فلهذا يسرها الله تعالى وسهلها أكثر مما يحتاج إليه العامة][1] .

ومن العجيب أنك تسمع من يتحدث عن :

لون كلب أصحاب الكهف .

وفى البعض الذى ضرب به موسى من البقرة .

وفى مقدار سفينة نوح .. وما كان خشبها.

وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر .. إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن .. ما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم[2] .

أجل .. يجب مراعاة سلم الأولويات : بمعنى البدء بالأهم .

فإن طلب الأفضل أهم من طلب المفضول . والنهى عن الأسوأ أهم من النهي عن السيئ .

ألا إن ما يحتاج المسلمون إلى معرفته أولى وإلا فما فائدة معرفة البعض الذى ضَرب به موسى من البقرة ؟

ولون كلب أصحاب الكهف ؟ ومقدار سفينة نوح ؟ واسم الغلام الذى قتله الخضر ؟!!

● ● ●

---

(١) التفسير الكبير (٢/ ١٥٩) .

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٢٣٥) .

الوضوح .. من أسباب انتشار الإسلام

يقول « غوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : [لقد ساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره فى العالم.

ونفسر ـ بهذه المزايا ـ سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام.

كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية . فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام . كما نفسر السبب فى عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا . سواء كانت هذه الأمة غالبة أو مغلوبة .

● ● ●

من معالم الوضوح فى القرآن الكريم

تتضافر الآيات الكريمة . . لتوضح للناس معالم هذا الدين . . التى لا تخفى على كل إنسان مهما كان مستواه .

يقول الله عز وجل : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤] .

وقد التزم ﷺ بما كُلف به من البيان والإيضاح .

وذلك قوله عز وجل : ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] .

والكتاب الذى جاء به ليس فقط بيِّنًا فى ذاته ولكنه مبين .

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥] .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ [النور: ٣٤] .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ . . . ﴾ [النور: ٤٦] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٢٥] .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ١] .

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥] .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٥٣] .

ويقول عز وجل : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

والسبيل : الطريق وما وضَحَ منه [لسان العرب] .

جاء فى نظم الدرر : [سبيلى . أى : القريبة المأخذ .. الجلية الأمر . الجليلة الشأن . الواسعة الواضحة جداً ..

على بصيرة . أى : حجة واضحة من أمرى : بنظرى الأدلة القاطعة . والبراهين الساطعة] .

ومن الوضوح :

إذا كان هناك دليل واضح ودليل خفى .. فعلى الداعية اطّراح الخفى وإيثار الجلى .. وإذا كان هناك من الأدلة ما هو واضح وما هو أوضح .. اختار الأوضح عونا للمدعو على الاستجابة ورحمة به .

مثال :

وخذ مثالاً على ذلك من سورة الرحمن : فقد ذكرت السورة أوّلاً آيتين سماويتين قبل أن تذكر الآيتين الأرضيتين .

قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦] .

فبدأت بالأظهر سبيلا إلى إقناع المدعو .

بلا إعمال فكر ورويّة .. من حيث تكفى المشاهدة .. وبالعين المجردة .. لاستشعار قدرة الخالق عز وجل وعظمته .

إن الغموض فى دنيا السياسة .. قد يكون واردا .. ليظل الزعيم قابضًا على زمام أمته من خلال هذا الغموض .. الذى يُرْبك الشعب فلا يدرى متى يرضى الزعيم .. ومتى يغضب فيظل مرتبطًا به خوفًا منه .. وحذر بطشه كما أشرنا .

ولكن الداعية .. ينبغى أن يكون واضحًا .. مفهومًا .. نوره يسعى بين يديه.. ومعه المدعو .. على نفس الطريق .. إلى ذات الغاية .. وتلك هى غايته .. فليس هو تاجرًا .. وإنما هو ناصح أمين .

إن الداعية الواضح : إذا حدَّث .. كان أبلغ . وأحسن استماعًا إذا حُدِّث . ولا يمارى إذا خولف .

وأسلوبه : إن لم يكن فى غاية البلاغ إمتاعًا للقلب .. فهو فى غاية الوضوح إقناعًا للعقل .

أما فى الإسلام .. ذلك أن الداعية مطالب أن يعمل فى نقطة الضوء فرارًا من سلوك الفرق الضالة . والتى لا تعمل إلا فى الظلام .

فليكن رجلا قرآنيا وهو يدعو الناس إلى القرآن .. فالقرآن واضح ميسر لكل راغب فى الهداية : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ٣٢] ، ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ** ﴾ [الزمر: ٢٨] .

وفى مجال السياسة :

قد يكون غموض الزعيم من وسائل ربط أتباعه به كما قلنا .

هؤلاء الأتباع الذين لا يدركون متى يرضى .. ومتى يغضب ..

ومن ثم يظلون مشدودين إليه اتقاء شرّه .. وهو من ناحية أخرى يستثمر لحسابه هذه الوسيلة الوبيلة ..

أجل إنها وبيلة على قدر ما يترتب عليها من تحايل الأتباع للتفلت من هذا الوهم الكبير .. متى وجدوا إلى ذلك سبيلاً .. وفى هذا الجو العكر .. سوف تروج مقولات زائفة ..

وقد تجد من يقول لك : إن تعاملنا مع كل شىء كأنه حقيقة .. سوف يجعلنا نحس بالملل ...

ولو تعاملنا معه على أنه كذب .. سنعيش فى جو قاتم رهيب !!

وفى هذا الجو المشحون بالزور والبهتان .. تتداخل القيم .. بعد أن تُطمس معالم الحدود بينها ..

وإذا كان ذلك من وراء تصرف « بَشَر » يبحث عن كل ما ينفعه .. ولو على حساب مصلحة الأمة .. فإن الداعية المسلم .. مشغول بالدعوة ولو على حساب مصلحته هو .

● ● ●

الوضوح .. ومستقبل الدعوة

ومن شأن وضوح الداعية أن يحقق للدعوة ما يلى :

١ ـ لا تكثر حولها التأويلات والشائعات .

٢ ـ ولا ينسب إليها ما ليس فيها .

٣ ـ وحتى لا تضيع الحقيقة فى ضباب هذا الغموض .

فلا يثق الناس بها ولا بأصحابها .

وهذا الوضوح .. من أهم الفوارق بين الداعية والفيلسوف .

الفيلسوف : الذى يلف نفسه بما يشبه التعاويذ .. حتى لا يدرك التلاميذ قراره .. فى الوقت الذى يظل الداعية .. « قرآنيا » على مثل النخلة العالية !

عندما يكون الغموض مطلبا :

قد يلجأ السطحيون إلى « الغموض » سبيلاً إلى تحقيق مآربهم فى جوه المعتم. وليله البهيم .

حتى إذا جاء رد « المحق » قاصمًا . . قال الملحد : أنا لم أقل هذا .

أو قال : لم أرد ما تحكيه !

وربما تبجح فقال : إنك لم تفهم قولى . .

يريد بذلك : إغراء الحاضرين ليظنوا أنه حاذق . وأن غريمه جاهل مع أن غريمه فى الواقع هو المحق .

وقد يفرق فكرته فى طوفان من زخرف القول يخرج به عن موضوع الحوار. . بعيدًا عن نقطة « الإلزام» بحيث لا يستطيع « المحق » الإمساك به .

وقد يلجأ إلى « الإطناب » حتى إذا طال الكلام وانتشر صعب على المحق ملاحقته .

الأخلاق .. أولاً :

فى الاحتفال بيوم النصر . . وضع زعيم الأمة بين يدى الضابط المكرَّم « نيشان » و« صرّة مال » .

فأخذ المال وترك النيشان ؟!!

فلما استنكر رئيس الدولة ذلك . . قال له القائد : أما إيثار المال . . فإننى أسدد به دينا علىّ . وأما النيشان . . ففى المعركة المقبلة . . سأجتهد حتى أحصل عليه .

• • •

القراءة

إدمان القراءة :

بدأ « ابن تيمية » حياته شغوفًا بالقراءة .

وذات يوم عزم أبوه وأخوه .. وصفوة من أهله على سياحة فى أرض الله .. فعرضوا عليه أن يصحبهم .. ولكنه هرب منهم .

فلما عادوا .. لامُوه على تخلفه الذى ضاع به يوم من عمره ..

فقال لهم : أنتم .. ما تزيَّد شىء لكم ولا تجدّد . وأنا حفظت فى غيبتكم هذا المجلد !

إن العلم هو طليعة الواجبات فى حياة الداعية ..

العلم الذى يمكنّه من فهم طبيعة المدعو .. ومن ثم .. اختيار أنسب الطرق للوصول إلى أعماقه .

ومن تكريم الإسلام للعلم :

أ ـ أنه جعل العالم هو تلك الأسوة الحسنة . « **رجلا آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها** »[1] .

ب ـ وبالعلم يظل الإنسان حيا .. وإن مات : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث .. أو علم ينتفع به** »[2] .

وعلى هذا الطريق سار الشيخ محمد الغزالى .

فعندما التحق بمعهد الإسكندرية الأزهرى .. وجد نفسه بين مجموعة من رفاقه فى سكن واحد ..

وكان لابد ـ كالعادة ـ من توزيع العمل داخل السكن . واختار الطالب

(١) رواه الطبرانى فى الكبير .

(٢) متفق عليه .

« محمد الغزالى » أن يشترى المطلوب من السوق .. متجاوزا مهمة « الطهى » والنظافة لتكون من نصيب غيره من الرفاق . لماذا ؟

لأن العادة كانت جارية وقتئذ بوضع المشتريات فى « قراطيس » .

وكان فى هذه القراطيس أبيات من الشعر إلى نصوص من فصوص الحكم . كان فيها ثقافة ..

فكان يعكف عليها .. فيحفظها كلها .. ليشبع نهمه بهذا الغذاء الروحى قبل أن يشبع فيها رغبتها فى الأمن الغذائى .

إن ثقافة الداعية .. ينبغى أن تكون وافرة ومتنوعة .. وفى مملكة النحل شاهد ودليل .

لما تعدد غذاء النحل .. ماذا حدث ؟

١ ـ أنتج « شمعًا » يضىء الظلام .

٢ ـ ثم عسلا فيه شفاء من الأسقام .

وهكذا كان نتاج شيخنا الغزالى .

ولقد جاء هذا النَّهم بالقراءة المستوعبة انطلاقًا من قاعدة تقول : [إن المعرفة القليلة شىء خطير] .

ولذا قالوا : اشرب بعمق .. أو لا تشرب على الإطلاق من النبع الصافى .. يجب أن تعرف معلومات كافية عن موضوعك .. حتى ولو لم يكن هناك متسع لاستخدامها .

ومن دعابات « توفيق الحكيم » : أنه تخيل « العقاد » وقد دخل الجنة ، لكنه فوجئ به يخرج منها غضبان أسفا . فلما سأله عن سر غضبه ـ والمفروض أن أحدًا لا يتبرم بالجنة ـ ولكن العقاد يجيبه قائلاً : لم أجد فى الجنة كتبا ؟!

الكتب سجلّ :

كل ما فعلته الأمم . . راقد فى بطونها .

وهى مختلفة : فهناك ما تتذوقه . وهناك ما تلتهمه . وهناك ما تمضغه .

ولقد قالوا : إن بيتا دون كتب . . جسد من غير روح .

صعوبة مهمة الداعية :

إذا كانت قراءة الكتب سهلة . . فما أصعب قراءة الوجوه ! وذلك بعض ما يجب على الداعية .

وأقوى دليل على ما فى الباطن : العينان .

ومن عمر بطنه بالتقوى . لم تخطئ له فراسة .

الكتاب .. نعم الصاحب :

وخير مكان فى الوغى : ظهر سابح . وخير أنيس فى الزمان : كتاب .

ونعم الكتاب . . ذلك الأنيس .

إنه يزكو على الإنفاق . نديم صدق . . تصلح به الدنيا والآخرة .

قال الشاعر :

ملت للكتب وودعت الصحابا   لم أجد لى وافيا إلا الكتابا

صاحب إن عبته أو لم تعب   ليس بالواجد للصاحب عابا

أجل هو صاحب :

إن قصدته . . لم ترجع خائبًا .

وإن تركته . . فلا تسمع عاتبًا .

فأنت واجد فيه فائدة أبداً :

ومن ينقل الورد .. تظل رائحته فى يده .

وتلك سر قوة الكتاب :

إنّ تَوَقّفَ جيش .. ممكن .

أما مقاومة الفكرة .. فمستحيل .

والقلم :

صوت القلم أعلى .. لأنه صوت الحق . إنه غذاء العقول وغذاء البطون يفنى .. أما غذاء العقول .. فلا يفنى !

وقد يكلفك قلمك شططا .. ولكن .. لا بأس ..

فبعد آلام المخاض .. يكون سرور .. صاحب القلم قدم ما ينسيه آلام المخاض !

قال عبد الحميد الكاتب : القلم شجرة : ثمرها : الألفاظ . والفكر بحر : لؤلؤه : الحكمة [١].

ألا إن قلم الداعية الناجح يستمد خصائصه من نبع الصفاء .. الذى ينهل منه فرارًا من الكدر ..

من المفارقات :

قال مالك : تلقى الرجل فصيحًا .. وما يلحن حرفًا واحدًا .. ولكن عمله لحن كله !

حتى قال بعض الزهاد : أعربنا كلامنا .. فما نلحن .. ولحنا فى أعمالنا .. فما نعرب !!

وقد ترتب على هذا الانفصام بين القول والعمل .. أن استغلها أعداؤنا فى

---

(١) كتب عمر ﷺ إلى أبى موسى الأشعرى ﷺ : مُرْ ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا .

النيل منا .

وهذه أمريكا : شجعت الدعوة الفردية .. ثم دفعت بالنماذج الإسلامية الرديئة لتدعو .. ثم تنفّر الناس بفهمها المغلوط .. وسلوكها المعوج .

تمامًا كما تفعل فى باب السياسة : إنها تتغنى بالحرية والسلام .. ثم ترتكب ما يحبط ذلك بالدفاع عن إسرائيل .. واختيارها للمشاكسين من زعمائها .

فلنكن على حذر .. حتى لا نتورط فى الخطأ .. بل قد تورط بعضنا فى ذلك .. عندما تصدى للدعوة .. بزاد من الفقه قليل .. ويوشك أن ينفر الناس من الحق جملة !!

إن العلم يعنى : الفهم السليم لحقائق الدين والدنيا .

العمل الصالح : وصولاً للثواب .

والإسلام يربط بين العلم .. والعمل الصالح كثمرة له .

شمول المعرفة :

يقول عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ... ﴾[فصلت: ٥٣] .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠] .

ولقد تكررت مادة العلم فى القرآن الكريم ٨٨٠ مرة ومعظم ما ذكره عن العلم جاء فى سياق الكلام عن الكون مثل [آية فاطر] العلم الزراعى وغيره .

• • •

فضل العلم

كانت مجالس الحديث وسماعه حافلة بطلاب الحديث ورواته : ويذكر الحافظ الذهبى فى « تذكرة الحفاظ » ثم يقول : [فهؤلاء المسمون فى هذه الطبقة هم ثقاة الحفاظ .. ولعلنا قد أهملنا طائفة من نظرائهم .

فإن المجلس الواحد فى هذا الوقت . . كان يجتمع فيه أكثر من عشرة آلاف محبرة . . يكتبون الآثار النبوية . . ويعتنون بهذا الشأن . وبينهم نحو مائتى إمام قد بَرزوا وتأهلوا للفتيا] .

وفى الأغانى (١٦/ ٣٧) روى عن أشجع السُّلَمىّ قال : دخلت على محمد الأمين . . حين أُجلس مجلس الأدب للتعلم . وهو ابن أربع سنين . وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم فأنشدته :

ملك أبـــوه وأمُّه من نبعـــةٍ منها سراج الأمـــة الوهـاجُ

شَربتْ بمكة من رُبى بطحائها ماء النبـــوة ليس فيـــه مزاجُ

يعنى : النَّبعة فأمرت له زبيدة بمائة ألف درهم .

قال ابن كثير فى « اختصار علوم الحديث/ ١٢٠ : [وينبغى المبادرة إلى إسماع الوالدن الحديث النبوى . . والعادة المطردة فى أهل هذه الأعصار ، وما قبلها بمدد متطاولة . أن الصغير يكتب له حضور إلى تمام خمس سنين من عمره . ثم بعد ذلك يسمى سماعًا .

وبلغنا عن إبراهيم الجوهرى أنه قال :[رأيت صبيًا ابن أربع سنين . قد حمل إلى المأمون . . قد قرأ القرآن . . ونظر فى الرأى . . غير أنه إذا جاع بكى] .

كان « يحيى بن خالد البرمكى » يعقد امتحانًا للشعراء ليمنحهم الجوائز حسب إتقاقهم وكان يعهد ذلك إلى « أبان بن عبد الحميد اللاحقى » وكان ممن يتهم بالزندقة .

وفى الأغانى للأصفهانى (٢٠/ ٧١) : أن « أبانا » لم ينصف « أبا نواس » فما كان منه إلا أن هجاه بأبيات منها :

جادت يوما أبانا لا درَّ درُّ أبـــانِ

حتى إذا ما صلاة الـــ ـــلأولى دنـــت لأوان

فقام ثم بها ذو فصاحة وبيان
فكلٌّ ما قال قلنا إلى انتهاء الأذان
فقال : كيف شهدتم بذا بغير بيان
لا أشهد الدهرَ حتى تُعايِنَ العينان

فقلت : سبحان ربى ، فقال : سبحان « ما نى » .

إنها الثقافة الواعية المستوعبة :

والأمر على ما يقولون : كيف يعرف « أفلاطون » من لا يعرف إلا « أفلاطون » ؟!!

● ● ●

من ذاكرة الأمة

ذات يوم .. ثقل العلم على طالبه .. فعزم على تركه .

وفجأة .. وجد ماء ينحدر من جبل .. مارًّا بصخرة قد أثّر فيها .. فقال : الماء مع لطافته .. أثر فى الصخر مع كثافته ؟!

فقرر أن يواصل طلب العلم .. فأدرك مطلوبه ..

وقد قيل فى هذا :

اطلب ولا تضجرنْ من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا
أما ترى الماء بتكراره فى الصخرة الصماء قد أثّرا؟

وقيل لابن المبارك :

لو أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك أنك ستموت العشية .. فماذا أنت صانع ؟

قال : أقوم وأطلب العلم . . حتى الممات !!

[نحن نعيش العمر كله . . طلاب علم . كادحين إلى ما نستشرف له فى كل خطوة من جديد الآفاق والغايات وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة فى موضوعه .

وجهد طالب العلم لا يقاس بمدى ما قطعه من أشواط . .

وإنما يقاس بسلامة اتجاهه . . ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الممتد إلى غير نهاية ولا مدى] أمين الخولى .

• • •

من شروط المعرفة

١ ـ تحديد الهدف .

٢ ـ الرغبة فى بلوغه .

ولا يهم أن يكون هدفك بعيداً . . والأهم أن تراه واضحًا وثابتًا .

• • •

من عقبات تحصيل المعرفة

الخوف :

وإذا كان ولابد من الخوف : فعلينا أن نحسن التعامل معه ولا نستسلم له .

فمن المدعوين من كانت علته : جهله . . ومنهم الذين كانت علتهم فى إرادتهم . . ثم هناك من كان انحرافه . . بسبب تصوره . . فكيف نتعامل مع هذه العلل ؟

لن نلجأ هنا إلى التشقيق والتبويب . . وإنما هو الموقف المعبر . . والذى نحاول أن نتعامل معه بالأسلوب الذى يكافئه . .

من المفارقات :

كان « الشيخ » ينهى تلاميذه عن قراءة الصحف والمجلات حتى لا تفسد ملكاتهم .

ونقول : لا . . بل اقرءوها .

أولاً : ففيها المفيد .

وثانيًا : وغير المفيد : نرده أو نرد عليه .

وثالثًا : نقارنها بما جاء فى تاريخنا مُنَاقِضًا لها أو موافقا .

وبالمعرفة .. ندرك مكر الأعداء :

يطور الغرب أسلحته . . وباستمرار يواكب بها أوضاع المسلمين المتجددة .

ومما يقولونه اليوم : نحن لا نعادى المسلمين . . حتى لا نستفزهم .

ونحن نقول لهم : أننا نريد إفهامكم . . ولا نريد « إهلاككم » .

وإذن . . فلابد من وعى بما يراد بنا . . مما يجرى خلف السطور .

١ ـ لابد من معرفة ما يلى :

قلبى ؟ وهو الشهوة ، أم عقلى ؟ وهو الشبهة .

٢ ـ ثم الإحاطة بأسبابه : هل هى البيئة أم الجذور ؟

٣ ـ الإفادة من تجارب الماضى .

٤ ـ معرفة نوعية أسلحة العدو . وطبيعة الجنود المحاربة .

● ● ●

من وصايا الحكماء

١ ـ أول العلم : الصمت . .

٢ ـ ثم حسن الاستماع .

٣ ـ ثم جودة الحفظ .

٤ ـ ثم إذاعته ونشره بعد ذلك .

● ● ●

من ثمرات العلم

والإحاطة بأسرار النفس واصلة بالداعية إلى ما يريد . . وموقف الشاعر «أبى دلامة » دليل على ذلك .

فلم يكن الشاعر بفائز بما يطلبه من ضيعة يعيش فى ظلها لو أنه طلبها ابتداء من الخليفة المهدى . . ولكنه عالم بمدى عمق غريزة التملك . . فدخل إلى قلب الخليفة هذا المدخل اللطيف المفضى فى النهاية إلى ما يريد . وكما يشير هذا الموقف .

دخل أبو دلامة على المهدى فأنشد قصيدة فقال : سل حاجتك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين هب لى كلبًا .

فغضب المهدى . . وقال أقول لك سل حاجتك فتقول هب لى كلبًا .

فقال : يا أمير المؤمنين الحاجة لى أم لك ؟

فقال : بل لك . .

فقال : إنى أسألك أن تهب لى كلب صيد .

فأمر له بكلب .

فقال : يا أمير المؤمنين . هبنى خرجت للصيد أعدو على رجلى فأمر له

بداية . .

فقال : يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها ؟ فأمر له بغلام .

فقال : يا أمير المؤمنين فهبنى قد صدت صيداً وأتيت به المنزل فمن يطبخه؟ فأمر له بجارية .

فقال : يا أمير المؤمنين قد صيرت فى عنقى عيالاً فمن أين لى أن أقوت هؤلاء ؟

قال المهدى : أعطوه جريب نخل ـ أى مزرعة ثم قال : هل بقيت لك حاجة؟

قال : لا وانصرف .

• • •

من روافد المعرفة

التجربة : رافد من روافد الثقافة

ومن الأهمية بمكان أن تكون للداعية تجربة : بمعنى : أن يكون طرفًا فيما يعرض من قضايا .

لقد رفض « نجيب محفوظ » أن يكتب عن حرب أكتوبر قائلاً : يكتب عنها الذين عاشوها .

وصدق القائل :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

والذين يكتبون ما لا يعيشون تتحول الأفكار فى أيديهم حديداً أو حجارة .

وفى نفس الوقت . . تفرض الحقيقة نفسها .

ومن أضاف التاريخ إلى صدره   ضمَّ أعماراً إلى عمـــره

ومن واجب الداعية

١ ـ تحديد الهدف : ومع تحديد الهدف : وضوحًا .. وتجرده من المصلحة الشخصية . بخلاف المذاهب الأرضية : فأحيانا .. لا هدف لها . أولها هدف .. لكنه غائم . ثم هو يتوخى مصلحة ذاتية .. والمدعوون يراد منهم أن يكونوا وسائل فى أيديهم لتحقيقها .

٢ ـ الأسلوب التلقينى : وذلك إذا كانت القضية المدعو إليها بدهية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١] .

٣ ـ الاحتكام إلى التاريخ : ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ...﴾ [يوسف: ١٠٢] .

يقول عز وجل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ... ﴾ [الحج: ٤٦] فدراسة التاريخ تحقق ما يلى :

١ ـ توسع الآفاق بما يرى دارس التاريخ ، كيف تنهض الأمم وكيف تكبو .

٢ ـ شاهد عملى على صحة ما يقوله الداعية .

٣ ـ الوقوف على سنن الله تعالى فى النصر والهزيمة وكيف أنها لا تتخلف ولا تحابى أحدا .

٤ ـ إن التاريخ وقائع .. والكلمات قد تنسى .. لكن الوقائع تظل شاخصة فى وعى الإنسان .

والمطلوب هنا : أن نفهم ما نقرأ .. لأن الذى يقرأ ولا يفهم .. كهذا الذى يأكل ولا يشبع !

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ... ﴾ [الروم: ٩] .

وفى الآية دروس وعبر :

١ ـ فالله عز وجل ينكر عليهم قعودهم .

٢ ـ ثم يوبخهم على ذلك .

٣ ـ وهو فى نفس الوقت : تحريض على السير والنظر .

إن كل ما يكتسب الإنسان به خبرة يزيده علمًا : خبرة .. أو عبرة .. أو فكرة .

ثم وبالتأمل الذاتى :

يتعلم من النملة : ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨] .

ويتعلم من الغراب : ﴿ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة: ٣١] .

ومن الهدهد : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ [النمل: ٢٢] .

وليكن ذلك هو « جيش المقاومة » الذى نتحدى به من يريدون احتلال البلاد. وإذلال العباد .

التحريض على العلم :

وأحيانًا .. كان « أسد بن الفرات » يدق على صدره قائلاً : يا حسرتاه : [إن متّ ليدخلن القبر معى علم كثير] ولم يكن ذلك غرورًا بمقدار ما كان اعترافًا بفضل الله تعالى عليه .

وكان يقول : [يا معشر الناس : ما بلغت ما ترون إلا بالأقلام .. فأجهدوا أنفسكم فيها .. وثابروا على تدوين العلم .. تنالوا به الدنيا والآخرة .. علّموا أبناءكم .. علموا أبناءكم] .

ومع أنه كان أول من اجتمعت له : الإمارة والقضاء .. إلا أنه لم يستح أن يتتلمذ على يد الإمام مالك وهو فى الثمانين من عمره ؟!

يقول تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد:١٩] والبدء بالعلم سبيلاً إلى التوحيد كان وصاة السلف الصالح ضمانًا لسلامة المسير .

يقول الحسن البصرى ﷺ : [العامل على غير علم كالسالك على غير طريق .. والعامل على غير علم .. ما يفسد أكثر مما يصلح .. فاطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة واطلبوا لعبادة طلبًا لا يضر بالعلم .. فإن قومًا طلبوا العبادة. وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ] .

• • •

العقاد .. وثقافة الوراثة

يقول العقاد فى كتابه « أنا » ص(١٣٥) : [من فلسفة الحياة ما نستمده من الطبع الموروث .. ومنها ما نستمده من تجربة الحوادث والناس .. ومنها ما نستمده من الدرس والاطلاع .. وأهم جانب من جوانب فلسفتى فى الحياة هو : ما استفدته من الطبع الموروث] .

وكان على العقاد وهو يجعل الطبع الموروث فى الطليعة أن ينسب ذلك للقرآن الذى تقول آياته : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٨].

ويقول عز وجل : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ... ﴾ [النجم:٣٢].

ففى الآية الأولى : إشارة إلى طهارة الوالدين .. فمن أين جاءك ما جاء ؟

وفى الآية الثانية إشارة إلى جبلة الإنسان والتى يمتصها من الطين الذى تخلق منه .. ثم من أمه وهو فى بطنها جنين ..] .

وفى صفحة ١٣٦ يقول العقاد فى كتابه « أنا » : [وفلسفتى فى العمل تتلخص فى أصول ثلاثة هى : قيمة العمل فيه ، وقيمة العمل فى بواعثه لا فى

غاياته ، وأساس العمل كله : النظام] .

وقد نسى العقاد - رحمه الله - ولا نقول تناسى - نسى أن يرجع ذلك للقرآن . . حتى يكون لفلسفته قيمة .

فالله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴾ [يونس:٩] فلم يقل عز وجل : وعملوا الأعمال الصالحات وإنما ركز على الكيف على صلاح العمل فى ذاته . . ومن صلاحه أن تكون بواعثه صحيحة . .

ومن صلاحه أيضًا أن يكون فى زمانه . . فى أوانه . .

إنه لابد من ثقافة واسعة . . لا من بطون الكتب وإنما من مجالسة العلماء . .

إن القاعدة تقول : لأنك تعرف أقل . . فإنك تظلم أكثر . .

إن الله تعالى يحب البصر النافذ . . عند ورود الشبهات ، والقلب الكامل عند حلول الشهوات .

البصر النافذ إلى الأعماق . . متجاوزًا القشرة البادية ليستقر هناك فى الأعماق . .

إن الشهوات مزيِّنة . . وكل واحدة تستدعى الأخرى . . لأن لها طعمًا شهيًا . . والطُبع يساعد عليها . .

فلابد من العقل . . ومن البصيرة معا . . ليتفادى الداعية عثرات الطريق . .

• • •

توظيف المعرفة

وإلا . . فهل يمكن للجندى أن يدرك ما هو المدفع بعد محاضرة فيه قيمّة ؟!

أبدًا . . إنه لا يحيط به علمًا . . ولا يجيد التصويب به . . إلا إذا حلّ

أجزاءه .. ثم ركبها من جديد .. وتحت إشراف معلمه ..وذلك ثمرة من ثمرات المعرفة .

حقًا : إنك لن تنال « الشفاء » الذى ترجو لو أنك حفظت « روشتة » الطبيب !!

لابد من أن تتحرك .. لتحضر الدواء .. ثم تتناول الدواء طبق إرشادات الطبيب .. وفى الدعوة نقول مثل ذلك :

فالداعية مدعو إلى أن يكون له « حضور » عملى فى مجتمعه .. لينطلق بعد ذلك داعيًا إلى الله على بصيرة .

حين أتم أندريه موروا دراسته فى مدرسة روان أراد الذهاب إلى باريس ليبدأ عمله فى الكتابة ، ولكن والده كان له رأى آخر ، كان الأب يملك مصنعًا فى نورماندى ويريد من ابنه أن يذهب لإدارة هذا المصنع ، وسأل موروا أستاذه أن يعينه فى حيرته فوقف الأستاذ مع اقتراح الأب وقال لتلميذه : إذا بدأت حياتك كاتبًا فلن تعرف شيئًا عن الناس وعن الحياة ، وسوف تنغمس فى هذه الحياة التى زيفتها هذه الفئة القليلة من المفكرين فى أندية باريس وصالوناتها ، وهذا ما لم يفعله أحسن كتاب القصص ، كان بلزاك مسجل عقود ، وكان ديكنز وكبلنج مخبرين للصحف ، وكان ستاندهال وتولستوى ضابطين ، وكان أنطون تشيخوف طبيبًا .

اذهب إلى مصنع أبيك وتعلم كيف تحيا قبل أن تكتب عن الحياة ذاتها .

وأعلنت الحرب فجأة سنة ١٩١٤م وكان مدرس الفلسفة يومئذ فى نحو السابعة والأربعين من عمره ، ولم يكن عليه أن يذهب إلى القتال ، ولكنه ذهب واختار أن يكون جنديًا فى المدفعية .

إن مهمة الداعية الأساسية هى : كيف يصل بالحقيقة إلى « الآخر » فيكسب احترامه .. إذا لم يقدر على أن يكسب حبه .

والتجربة العملية تعينه على ذلك .. من حيث كانت رصيداً من الخبرة والعبرة ..

ونقول : ما فائدة الطريق .. إذا لم يؤد لغاية .

وما قيمة الحياة .. إذا لم تجد لها معنى !

إن لحياتك معنى .. وعليك أن تجده .

قال الواعظ العالم لضائع مائع .. لا رسالة له فى الحياة .

ما هى وظيفة عينك .. فقال : الرؤية .. ولسانك ؟ قال : الكلام .. وحذائك ؟ قال : أن يعين قدمى على السير .

فقال له الواعظ : لحذائك رسالة .. ولا رسالة لك !!

القوى حقا :

إن من ينتصر على غيره .. قوى .. ومن ينتصر على نفسه .. أقوى ..

• • •

تصرف الجندى المثقف

قيل : أردتُ عَمْرا .. وأراء الله خارجة .. وربك خلاف الظنون ..

أُسر « جارودى » فى الحرب العالمية الثانية .. وسلموه لجندى جزائرى فى الجيش الفرنسى ..

قال لجارودى بعد أن انتبذ به مكانا قصيًا : أنا لن أقتلك .. اذهب إلى مكان بعيد .. واختف ! فأنا رجل مسلم .. والإسلام ينهانا أن نقتل العزَّل ..

ومنذ ذلك الحين .. بدأ الملاح التائه يغير وجهته .

وإذن : فكل ما كتبه جارودى .. وكل ما حطم من أصنام الشيوعية .. يعود إلى هذا الجندى الجزائرى .. المسلم .

وإنها رسالة موجهة إلى من حول الحياة فى الجزائر إلى نهر من الدماء !!

نخوة العروبة

وتأمل موقف المشركين وهم يحيطون ببيته ﷺ ليلة الهجرة . .

لقد كان بإمكانهم اقتحام البيت وفى حركة انتحارية . . ولكنهم أحاطوا بالبيت ولم يقتحموه . . مدفوعين بنخوة العروبة التى فرضت عليهم أن يكونوا فى عداوتهم للدعوة أشرافًا . .

وهذا درس من دروس الدعوة التى تفرض على الداعى استثمار ما يمكن أن يكون لدى « المدعو » من عناصر الخير . . لتقوده منها إلى ما نريد ومن حيث لا يشعر .

ولد إيمان « ثمامة بن أُثال » قويا . . قوة حملت الصحابة على سؤاله . . لماذا لم تسلم من أول يوم عرض عليك الإسلام . . يعنى : إن الشواهد تؤكد أن إيمانك القوى . . ليس وليد يوم وليلة . . وإنما هو قديم فى قلبه . .

فما كان جواب ثمامة إلا أن قال : خشيت أن يقولوا . . أسلم خوفًا من السيف !!

وعلى طريقه سار « العاص بن الربيع » زوج زينب رضي الله عنها .

فقد منُّوا عليه بماله فى المدينة . . ثم أطلقوا سراحه . . ولما عاد إلى مكة . . وسلم لكل ذى حق حقه من قومه . . قالوا له :

لماذا لم تسلم هناك فى المدينة قال : لئلا يقولوا . . أسلم . . ليذهب بماله!!

● ● ●

ذكاء الداعية

لا نكلف الداعية شططا فنطالبه بأن يكون عبقريًا .. وإنما يكفى أن يكون ذكيًا!!

ومن الذكاء سرعة البديهة .. يدافع بها عن المدعو .. أو يدافع بها عن نفسه: جاءت امرأة تستفتى « حاتم الأصم » .. ولما جلست بين يديه .. خرج منها صوت محرج ..

وأحس الداعية بالحرج يأخذ على المرأة أقطار نفسها .. وما قد يترتب على ذلك من حُبسة ربما تمنعها من بيان ما جاءت من أجله ..

وعلى الفور قال لها : ارفعى صوتك بالسؤال .. يا امرأة ؟!

وأرادت المرأة أن تتأكد من صحة ما تسمع .. حتى يعود إليها رشدها الهارب!!

فقالت له : ألم تسمع سؤالى .. فقال لها : لم أسمعه !!

وعندئذ بدأت تتكلم بعد أن أنقذها « حاتم » الذى سمى « الأصم » بسبب هذا الموقف .. وما به من صمم ولا بكم !!

وهكذا : وبالذكاء .. وسرعة البديهة .. دافع « الأصم » عن هذه المرأة التى ربما كانت ستفتيه فى قضية شخصية .. فعادت بهذا الدرس فى الأخلاق .. ولكن صار « الأصم » علمًا على « حاتم » منذ اليوم .. فهو الشرف المنيف والذى يؤكد كم فينا من سامعين لكنهم : صم بكم .. بينما كان « الأصم » هذا أسمع منهم وأبصر !!

• • •

الدفاع عن النفس

وبسرعة البديهة يدافع الداعية عن نفسه .. ولنا فى هذا الموقف شاهد : كان الفتى المعتز بشخصه يسير عبر الطريق .. وفى منعطف ضيق التقى بفيلسوف كبير.. فأخذته العزة بالإثم حين قال للفيلسوف : تنح عن طريقى .. فإنى لم أتعود أن أخلى الطريق لأحمق !! وجاءته اللطمة التى تشبه الرصاصة من سلاح مكتوم .. ولكننى تعودت على ذلك !!

والموقف لا يحتاج إلى تعليق .. فقد يفسده التعليق !!

ألا إن الناس ثلاثة :

علماء ، وخطباء ، وأدباء .

أما غيرهم : فيغلون الأسعار ويعكرون المياه !

• • •

الداعية رائد لا يكذب أهله

لأن المهمة هكذا صعبة فلابد من كفء لها وهو الداعية القوى .. وعندما يكون الداعية قوى الشخصية .. فإن الدعوة من خلاله تبدو بقوته قوية !

فإذا تضعضعت هذه القوة .. انفض الناس من حوله .. لأن الناس لا يحبون المستسلمين .

وأحيانًا .. يكفهر الجو .. ويشتد بأس المنحرفين ..

وعندئذ : تتحول النصيحة إلى موجة تنكسر على صخرة صماء .. أو دمعة حائرة ضائعة فى بحر زاخر فى عين الداعية . وعندئذ لا يسمعه أحد .. ولا يراه أحد !!

ثم يجد نفسه مكلفًا بأن يحارب فى جبهتين :

أ ـ عقيدة خربة . . من ورائها الهوى .

ب ـ وأفئدة هواء . . خالية من عناصر الخير . .

ثم هو مطالب بما يلى :

أن يواجه هذا المنكر مباشرة . وحتى يترك العاصى المنكر . . بل . . وحتى يزهد فيه . . لا بل اعتزال العصاة من شلة الانحراف .

وإذن فليس همًّا واحداً . . ولكنها هموم ثقال .

وهو إذ يدعو إلى الفضيلة . . يتصدى له أنصار الرذيلة فى محاولة للقضاء عليه . . لأن عقدة النقص تملى لهم أن ينتقموا من هذا الصالح فى البيئة الفاسدة!!

ذلك بأن ظهر الداعية يذكرهم بخبثهم . . ومن ثم ينقضّون عليه . . ليريحهم من عذاب الضمير فلقد أصبحت محاسنه . . هى عقدتهم . . ومن أجل ذلك تبدأ حملة التشويه . . وهكذا كان موقف قوم لوط : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦] .

ألا إن الداعية فى قومه لغريب .

ألا وإن الغريب معذب أبداً إن حلّ لم يسعد وإن ظعنا

يا رحمة للغريب فى البلد النازح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه . . فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

ولكن . . لا بأس . فأفضل الثمار : أبطؤها نضجًا .

أما بعد : فإنه : تذبل الزهرة فى غياب الأكسجين . . الذى هو أهم من الغذاء . . هذا الغذاء الذى لا يفيد إذا لم يتحد بالأكسجين . .

فلا معنى لغذاء دسم فى جو فاسد خال من الأكسجين . .

بل سوف تموت خلايا الجسم . . إذا منع عنها !

وفى الدعوة نقول مثل ذلك : ليكون الداعية هذا الدواء الناجع . . والذى يتم فيه التجانس بين الداعية والمدعو . . بعيداً عن الانفعال الذى يفسد الجو . .

وعلى الذين ينفعلون فيتشددون . . عليهم أن يشددوا على أنفسهم . .

وليتسامحوا مع الآخرين .

لابد فى الدعوة من : دليل : يعترف بعقل المخاطب . وعوض : عن تكليفه . .

والناس ثلاثة :

١ ـ من يرجو المغفرة فقط . . إيمانًا منه بأنه لم يعمل ما يستأهل به الجنة .

٢ ـ من يرجو المغفرة والجنة معا ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

٣ ـ والقلة هم : الذين يخافون من حَجبهم عن ربهم . ﴿ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥].

• • •

الفصل الثالث

من وسائل الدعوة

١ ـ الحوار .

٢ ـ ضرب الأمثال .

٣ ـ وسائل أخرى .

• • •

من واجبات المدعو

وإذا توقعنا الداعية بهذه الأسلحة .. فإنها ـ إن صح التعبير ـ مع إيقاف التنفيذ .

بمعنى : أن تأثيرها متوقف حتى تتم بصلاحية المدعو لقبول النصيحة .

إننا نتصور الآن فلاحًا يضع بذوره فى أرض سبخة أو صخرة جامدة .. إن هذه البذور سوف تموت .

أما إذا تهيأت لها التربة المناسبة .. فلسوف تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

ونستأنس هنا بقوله عز وجل : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠] .

بمعنى أن الذى يؤثر فيه الوعظ هو من اتصف بالخشية ..

أما المدعو الساهى اللاهى .. فقد ظلم نفسه أولاً .. والداعية ثانيًا .. والدعوة أخيرًا .

ولاحظ أنها الخشية .. ولا يكفى الخوف ..

والخشية هى : إحساس بهيبة الداعية .. وأهليته أن يطاع فيما يأمر به .. وما ينهى عنه ..

وما أكثر الدعاة المظلومين .. والذين نحملهم مسؤولية عقم الدعوة فى هذا الزمان .. والظالم .. قد يكون هو المدعو نفسه .. والذى يجيئه الهدى من الله تعالى على لسان داعية مجاهد .. ولكنه لم يقيد هذه النعمة بالإقبال عليها .. فكان ما كان مما لست أذكره !

• • •

من أدلة القرآن

مدخل :

لا تنحصر مهمة الداعية فى مجرد توصيل المعنى .. وإنما مهمته مع هذا وفوق هذا :

أ ـ التأثير .

ب ـ ثم كسب المدعو .

ولذلك سمعنا أن أمير الشعراء شوقى كان يؤلف القصيدة .. ثم يناوله من هو أحسن منه أداء ليلقيها .. إرادة مزيد من التأثير .

وفى القرآن شاهد : ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص: ٣٤] .

يقول عز وجل : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] .

يزاوج الإسلام أو يوازن بين العقل والعاطفة فى أدلته ، وفى هذه الآية : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ، ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وهذا حظ العقل : مع أنها القضية المستدل عليها . لكن الدليل العقلى هو الواقع .

فنظام الكون الحالى شاهد بأنه إله واحد .. حيث لا أثر هناك لخلاف .

أما حظ القلب فهو : مجموعة من المشاعر .. الخوف ، والحزن ، والقلق ، لو تصورنا اختلافًا .

ومن خصائص الأدلة القرآنية :

أنه يعرض بأمانة قضية الخصم .. ثم يفندها .

وبعد ذلك يثبت قضيته وبالدليل . فكأنه يقوى القضية مرتين :

مرة بنفى نقضيها ، ومرة بإثباتها .

يقول الله عز وجل : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] .

يقول د . محمود حب الله [(١)] :

[وتلك هى الوسائل التى تتفق وطبيعة الإسلام من ناحية .. وتتفق مع طبيعة الناس المدعوين إليه من ناحية أخرى :

فالحكمة هى : المقال المحكم الذى يشهد العقل بصحته وذلك هو الدليل المنطقى الذى يبين الحق الذى يؤمن به كل عقل . ويهتدى به كل ذى نظر .

وهو يناسب العقلاء ، وأرباب النظر ..

والموعظة الحسنة هى : تلك العبر النافعة ، والمواعظ الطيبة التى تهدف نحو تربية الوجدان ، على نحو لا يلغى العقل والنظر .

وبأسلوب : تبدو فيه المناصحة ، ويظهر منه العطف والمحبة .

وذلك أسلوب يناسب العوام .. والمجادلة بالحسنى هى المناظرة التى لا يقسو فيها المناظر على خصمه ولا يجابهه بما يكره .. بل يتعمد الرفق واللين . ويختار أخف الوجوه وأيسرها .

---

(١) الحياة الوجدانية (٢٨٦، ٢٨٧) .

فهو : جمع بين المنطق والعاطفة .. يناسب المعاندين بوجه خاص لأنه قمين بأن يلين منهم القلوب ويصرفهم عما هم عليه من عناد] .

ولأن الإسلام دين شامل : يخاطب أفكار الإنسان كلها : نفسية ، وعقلية ، وقلبية .

إذا كان الإسلام كذلك .. فإن قصر أسلوب معين على صفة بعينها .. ظلم..

وإذن .. فمن المفيد أو من الحكمة أن تخاطب طبقة معينة أحيانًا بكل هذه الأساليب .. ليمنح الدعوة ولاءه كلــه .. يضاف إلى ذلك أن يكـون الداعيـة قدوة .

فقد تكون العقيدة فى ذاتها قوية لاعتمادها على المنطق السليم .. ولكن لابد من أن يستمر بقاؤها كطاقة دافعة إلى عمق الخير .. وذلك لا يتم إلا بالعمل بها..

هذا العمل الذى يثبت الله به العقيدة فى القلوب .. فإذا ضعف العمل ضعفت العقيدة تلقائيًا .. كما تذبل الشجرة الناضرة .. بعدما منع عنها الماء ..

وإذ يعنى ذلك ضرورة أن يكون هناك عاملون مخلصون .. بهم يكون العمل حركة إيجابية واضحة ..

ولن يكون إخلاص وعمل إلا إذا اختار الإنسان عقيدته .. وبلا إكراه :

[لأن الإكراه فوق أنه منهى عنه من ناحية المبدأ ـ عديم الجدوى من ناحية الاعتقاد . ومن ناحية العمل .

وذلك لأن الإكراه هو : أن يلجئ المرء إلى الأخذ بما لا يؤمن به وإلى العمل بمقتضاه .

وإنه لمن الهين أن تجعل المرء يعمل بما تحب . ولكنه من المستحيل أن تجعله

يعتقد مكرها . . وأن تجعله يعمل وفق اعتقاده] .

وقد لاحظ العلماء وصف « الموعظة » بالحسنة . . وذلك يعنى : أن من المواعظ ما يكون رديئًا . . أما الحكمة فلها من اسمها نصيب : فهى محكومة بمبادئ الأخلاق . . وقواعد الذوق . . فكلها حسنة . . وقد اشترطت الآية الكريمة أن يكون الجدال « بالتى هى أحسن » لا حسنة لأن وقت الجدال تتوتر الأعصاب . وقد يعتبر أحد الطرفين رأيه جزءًا من ذاته ، ومن ثم يثور على غريمه بهذا الاعتبار . . فكان لابد من « الأحسن » .

وهو ذلك المعنى الذى قال فيه الشاعر :

اخلع ببغداد العذارا ودع التنسك والوقارا

فلقد بليت بفتية ما إن يرون العار عارا

لا مسلمين . . ولا يهود ولا مجوس ولا نصارى!!

وذلك يعنى : أن المجادل قد يظن اعتراضك على رأيه يساوى خصمه من شخصيتك . . بعدما عدّ رأيه من ذاته . .

ومن أجل ذلك كان لابد فى الجدال بالذات . . أن يكون بالتى هى أحسن .

وفى النهاية نقول : صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

مثال :

أفلم يروا . . المعطوف عليه: أعموا . . فلم يروا . . لكنه عز وجل أضمره . . ليحس المدعو بشوكة تكاد أن تدميه . . فلعله أن يستيقظ من غفلته . .

يقول عز وجل فى سورة البقرة : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...** ﴾ [البقرة: ٢١] .

١ ـ إثبات الصانع .

٢ ـ وصفات كماله من القدرة والعلم .

٣ ـ ثم حدوث العالم .

٤ ـ إثبات النبوة .

توحيد الربوبية (فلا نعمة إلا منه) .

هو دليل : توحيد الألوهية .. فلا معبود سواه .

دليل الخلق (الاختراع) : خلقكم ..

دليل العناية : أنزل من السماء ماء .. وسخَّر ...

إذا كان الله سبحانه وتعالى أنشأ كل هذه الأفعال العظام .. فكيف تعبدون غيره ؟!

ولكنهم فضَّلوا الحرب .. على ما فيها من دمار .. فضلوها على البرهان .. الساطع البيان .

مثال « البعوضة » :

١ ـ التمثيل بالبعوضة يوضح الحق .. والذى يوضح الحق كيف يُستحيى منه؟!

٢ ـ فى البعوضة ما ليس فى « الفيل » !!

عن « سلمة بن سبرة » قال : خطبنا « معاذ » بالشام فقال : أنتم المؤمنون .. وأنتم أهل الجنة .. والله : إنى أرجو أن يُدخل الله مَن تسبُّون من فارس والروم الجنة ! وذلك بأن أحدكم إذ عمل له ـ يعنى أحدُهم عملاً ـ قال : أحسنت .. رحمك الله .. أحسنت .. بارك الله فيك ..

ثم قرأ : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [الشورى: ٢٦] .

والمعنى : يستجيب لهم الدعاء . ولأصحابهم وإخوانهم مثل قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

والمراد بالفضل : الشفاعة لمن وجبت لهم النار .. ممن صنع إليهم معروفًا في الدنيا .

وقيل : يشفعون في إخوان إخوانهم][1] .

قالت « أم سليم » رضي الله عنها : يا أبا طلحة : ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد إنما هو شجرة تنبت من الأرض .. نجرها[2] حبشي بني فلان ؟!!

قال : بلى .

قالت : أما تستحي تسجد لخشبة تنبت من الأرض ونجرها حبشي بني فلان؟!!

قالت : فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأزوجك نفسي لا أريد منك صداقا غيره ؟

قال لها : دعيني حتى أنظر .

قالت : فذهب فنظر .. ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . قالت : يا أنس . قم فزوج أبا طلحة][3] .

• • •

تطوير أسلحة الهجوم

١ ـ كانت « الكنيسة » قبل الحروب الصليبية تتحدث عن ضعف المقاتل المسلم .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ـ سورة الشورى .

(٢) نجر ـ ينجرُ : نحت .

(٣) الطبقات الكبرى (٨/ ٤٢٧) .

٢ ـ بعد ذلك . . ظهر فرسان مسلمون . . وأخلاق فرسان . .

٣ ـ عندئذ بدأ الشك فيما أذاعه الرهبان عن ضعف المسلمين .

٤ ـ وظهر ذلك فيما قرره [بطرس الراهب] : وذلك . . أنه أذاع معلومات موثقة عن صدق الرسول وديانته .

أما نحن : فبعد تطوير الأزهر . . ما زالت كليات القمة تستقطب المتميزين . . ويذهب إلى كليات الدعوة . . المتوسطون . . بل المتأخرون !!

● ● ●

الخطيب

تمهيد :

إذا كان « الداعية » يتحرك فى دائرة أوسع . .

وإذا كان « الواعظ » مثله إلى حد ما . .

فإن « الخطيب » أثقلهم حملاً . . بما يفرض عليه من قيود لابد منها لينجز مهمته . .

ومن هذه القيود : [من الناحية الفنية]

١ ـ وحدة الموضوع .

٢ ـ دراسته دراسة تصل به إلى الرأى الناضج .

٣ ـ قوة الأسلوب .

٤ ـ الإلقاء المعبر .

٥ ـ قراءة مستوعبة يجدد بها معلوماته وحتى لا يكرر نفسه .

٦ ـ القدرة على الارتجال .

الخطابة

أجمع ما قيل فى تعريفها :

[فن من فنون الكلام . غايته : إقناع السامعين واستمالتهم والتأثير فيهم بصواب قضية أو بخطأ آخر .

ومن أهميتها : يقول العلماء : إنها فن وُجد مع الإنسان . . وارتقى برقيه . . وهى : ضرورة من ضرورات المجتمع . .

أما أسبابها ودواعيها فهى : الانقلابات الدينية والسياسية والاجتماعية والحروب . وتنازع الأحزاب . . وإصلاح ذات البين .

ومن أهميتها أنه كان لها من الهيبة ما يخلع قلب الخطيب . وإن كان فى الذروة .

ذات يوم . . جلس الخليفة « الناصر » على كرسيه . . وبين يديه حملة الهدايا التى أرسلها إليه الإمبراطور « قسطنطين » وأخوه . .

وتقدم الفقيه « محمد بن عبد البر » ليرحب بالضيوف نائبًا عن الخليفة . .

وكانت المفاجأة المذهلة : لقد سقط الفقيه الكبير مغشيًا عليه تحت ضغط المهيب . .

وحاول العلامة « أبو على القالى » صاحب كتاب « الأمالى » لينقذ الموقف. . وفعلا : حمد الله تعالى وأثنى عليه . . ثم توقف !!

ومن حسن الحظ أن كان « منذر بن سعيد » حاضرًا فأنقذ الموقف بلباقته . . حيث أكمل افتتاحية « أبى على القالى » ثم كانت منه خطبة عصماء . حتى قال المنصور بعد فراغه من خطبته : [والله لقد أحسن ما شاء ولئن أخرنى الله بعد . . لأرفعن من ذكره] واستدعى الناصر ابنه « الحكم » وأوصاه بأن يستخلصه لنفسه ، ويرفع شأنه . وقد كان . . .

أهمية الخطابة :

ولأهمية الخطابة كفن من فنون القول .. كانوا يختبرون صناع الكلام .. فراراً بهم من الملام ..

حتى خطيب الخطباء .. وشيخ الواعظين :

كان سيدنا على رضي الله عنه موقنًا بضرورة : أن يكون الخطيب داعيًا .. عالمًا .. عاملاً .. ولم يكن يستثنى من ذلك أحداً ..

وربما كانت له امتحاناته السريعة والتى يجيز بها الداعية .. أو لا يجيز .

مرّ يومًا على الحسن البصرى رضي الله عنه وهو يخطب فى الناس .. فقال له : ما عماد الدين ؟

قال : الورع .

قال : فما آفته ؟

قال : الطمع .

فقال له الإمام : تكلم إن شئت !

أهمية الإلقاء :

للكلمة ـ فى كل لغة ـ معناها .. كما تحدده معاجم اللغة ..

ولكن .. لهذه الكلمة ـ بالإضافة إلى معناها اللغوى ـ لها معان كثيرة .. يشار إليها بما يسمى « الأداء » أو « الإلقاء » .

بمعنى : أن الخطيب بطريقة أدائه .. وبالتصرف فى مخارج حروفها ..

ثم ما يصحب الأداء من إشارة باليد أو بالعين يمد المستمع بمعان ودلالات .. فوق معناها المحدد فى معاجم اللغة ..

وهذا ما يتكفل به فن الإلقاء .

وقد كان أحمد شوقى أمير الشعراء .. ومع ذلك .. فكان كلما صاغ القصيدة أعطاها لغيره ممن يجيد فن الإلقاء .. لينوب عنه فى إلقائها ..

وقد رووا أنه : عندما انتهى أكبر خطيب أمريكى من خطبته .. التفت إلى أمه وسألها : ما رأيك يا أمى ؟!

قالت : يا ولدى . لقد بدا لى أنك لم تغتنم خير الفرص التى أتيحت لك خلال الخطبة .

فقال لها : ماذا تقصدين ؟

قالت : عرضت لك فرص كثيرة لتكف عن الكلام وتقصر فلم تفعل !!

أهم وسائلها : القراءة :

اقرأ .. وتعلم . فإن كنت صغير قوم لا يُحتاج إليك .. فربما كنت كبير آخرين يحتاجون إليك .

وكان بعضهم يكتب .. وبالذات عند القبور .. ثم يقول :

ليس أوعظ من القبر .. ولا أمتع من الكتاب!!

وبالقراءة .. تكون أجهزة الاستقبال أقوى ..

إن فقر الثقافة أخطر من فقر الدم !! وإذن فلابد من القراءة .. والإلقاء ؛ لأنهما الأداة الأولى للخطابة .. ولا يمكن للخطيب أن يكون خطيبًا إلا إذا كان متمرسًا بأصول الخطابة وعناصرها .. واعيًا لما يقول : قادرًا على الإلقاء أو الأداء ..

أغراضها :

فى العصر الجاهلى .. كانت الخطابة .. تتوخى : الحماس ، وإثارة النعرات

القبلية .

ثم جاء الإسلام . . فكان من أهدافها . . الدعوة إلى الله

أ ـ بإثارة حماس الجيوش .

ب ـ ثم رسم سياسة الدولة .

جـ ـ والوعظ والإرشاد .

متأثرة فى كل ذلك بأسلوب القرآن الكريم . مع مراعاة « فن الإلقاء » وكما يقول العلماء : لابد للإلقاء من قراءة واعية مستوعبة . لأنها تبعث فى نفس الخطيب قدرات إبداعية . . ومنها : قدرته على التلوين فى أدائه . وفى اللين والشدة . . والتضخيم والترقيق . . وهكذا .

ويوضح د. أشرف محمد موسى فى كتابه « الخطابة وفن الإلقاء » .

أنه [يجب أن يكون ذهن الخطيب صافيًا . حتى يستفيد من القراءة . . فهناك من يقرأ . . لكنه عاجز عن استثمار ما يقرأ أو يتصرف فيه] .

وكم من شاعر لا يستطيع إلقاء شعره . .

وكم من أديب يعجز فلا يستطيع التعبير عما فى ضميره] .

أما القارئ الواعى . . فإنه : ينفعل بما يقرأ . . ولأنه منفعل . . فهو متأثر بما قرأ . . وعندئذ . . يصل إلى هدفه . . فإنه لا يؤثر إلا المتأثر .

ومن الناحية النفسية :

١ ـ لابد أن يكون مخلصًا . . يؤكد قوله عمله . . مع صدق فى اللهجة يعكس سلامة قلبه . . وبه يكون له تأثير فى قلوب مستمعيه .

٢ ـ أن يعرف قدر نفسه .

٣ ـ لا يسرف فى مدح ولا ذم ؛ لأن هذا الإسراف مظنة الكذب .

ولا يسرف أيضًا فى وعد ولا وعيد .. لأن ذلك مظنة العجز .

٤ ـ التودد إلى المستمعين : بالتواضع لهم ومدحهم [ومن مُدح مال إلى المادح] ثم برحمتهم والتماس الأعذار لهم .

٥ ـ ثم مساعدة المخطئ على استشعار فداحة الخطأ .. إن وظيفة الخطيب ليست مجرد أوامر يلقيها .. وإنما هى بالدرجة الأولى .. تهيئة ذهنه .. وقلبه بل وكيانه كله للاستجابة لما يسمع ولا يتم ذلك إلا بتزيين الحق .. والتنفير من الباطل .

وكان المرحوم الشيخ أحمد حسن الباقورى أديبًا ! ومع ذلك .. فقد كان ذكيا .. متوقد الذكاء ..

أذكر أننى كنت أمثل بين يدى لجنة امتحان الشفهى بمعهد القاهرة - فى الأربعينات ـ وكان الشيخ وكيلا للمعهد .. وكانت له هيبة ..

فلما رأيته .. هبته .. وتمنيت أن لو مضى إلى لجنة أخرى .. حتى لا أقع تحت طائلة أسئلته !!

ولكن الشيخ آثر لجنتى بالاشتراك معها فى امتحانى .. فكانت كل اللجان اثنين .. اثنين ..

أما لجنتى : فهى الوحيدة التى كان أعضاؤها ثلاثة : منهم الشيخ الباقورى .

ولقد كانت رغبتى ـ من قبل هذا ـ أن أستمع إلى الشيخ : خطيبًا أو متحدثا .. أما الآن ف أنا راغب عن هذا الأمل لأنه لن يكون حديثًا وإنما سوف يكون حدثًا !! ولقد وقع الذى توقعته ..

فلقد فوضت اللجنة الشيخ ليسألنى هو : فكان أن قال لى : اقرأ كتابك[1] .

فبدأت بقول المؤلف : « وقيل » كذا .. فبادر الشيخ قائلاً .. اقرأ .. إلى

---

(١) كنا نكلف بقراءة نص الكتاب المقرر .. ثم نُسأل فيما نقرأ .

أن ينتهى « نائب الفاعل » .. ثم توقف !

وكان السؤال فى نفسه مفاجأة .. فلم يقل لى : أين نائب الفاعل .. لأجيبه.. هو القضية بعد قوله « قيل » .

أما صيغته التى آثارها .. فقد فاجأتنى .. ولكن .. أنطقنى الله الذى أنطق كل شىء ..

فلما انتهيت إلى قول المؤلف : فإن قلت : ما معنى هذا .. قلت : كذا وكذا .

وكانت المفاجأة الثانية : أن الشيخ لم يتركنى - وقد أشرفت على الغرق - أن أسترد أنفاسى .. بل فاجأنى بالسؤال الثانى .. قبل أن أستشعر متعة التوفيق .. فقال : وأين مقول القول هنا ؟ فأجبته : مقول القول هو ما بعد : قلت .. وما بعد قلت .. وهما فى موضع نصب !!

وعندئذ قال الشيخ لعضوى اللجنة : أفرجوا عن الشيخ !

وهكذا حصلت على لقب « الشيخ » من لدن « الباقورى » أديب العلماء .. ويكفينى هذا !

الباقورى .. الخطيب :

ذاك هو الباقورى : المربى .. المعلم .

فماذا عن « الباقورى » الخطيب ؟!

خطب يومًا فينا فقال : خطب ﷺ .. فى المدينة المنورة ومن فوق منبره الشريف .. فقال :

وقلت فى نفسى : ما صلة « المدينة المنورة » و« المنبر الشريف » ما صلتهما بالقضية المعروضة ؟

وقلت لنفسى : فلنترك ذلك « المُخرج الفنان » والذى كان يختار أبطال روايته

من تسمعه .. فكأنك تراه ..

فأنت لا تسمع منه ألفاظا .. وإنما ترى بأذنك ما تسمعه .. على حد قول الشاعر :

وإذا لم أر الديار بعينـــى فلعلى أرى الديار بأذنى

وهكذا كان الشيخ الباقورى : إنه يرسم لك مسرح الخطبة النبوية بكل ملامحه فكأنك وبعين خيالك ـ ترى المدينة .. وترى المنبر العالى ومن فوقه سيد البشر يعلم الناس ..

ومرة أخرى : رحم الله شيخنا الباقورى والذى كان كما قيل بحق :

[إذا احتاج أن يتكلم فى موضوع .. لم يكن عليه إلا أن يفتح فمه .. ويحرك لسانه ..

فإذا المعانى فى ذهنه .. والألفاظ على شفتيه .. والسحر من حوله .. والأنظار متعلقة به .. والأسماع ملقاة إليه .. والقلوب مربوطة بحركات يديه] .

وقد أفاد غيرنا من هذا المسلك المعبر والمؤثر .. وإن لم يكونوا مسلمين .

فقد رأينا « شيراك » رئيس فرنسا يخطب .. وفى مناسبة قومية يخطب ـ لا فى قاعة البرلمان ـ وإنما من فوق « حاملة الطائرات الفرنسية ، وعلى أمواج البحر الأبيض المتوسط » .

يخطب فى هذا الجو الرهيب .. مذكرًا بأمجاد فرنسا .. وأمجاد الحلفاء .. وانتصاراتهم ..

ورحم الله شيخنا الباقورى .. فقد كان كاتبًا .. وكان متحدثًا ..

فإذا كتب .. لا يكلُّ القلم .. وإذا خطب .. لا يملّ اللسان .. وإذا أنت أمام خطيب .. يسفر لك عن مشاعره .. بلا إسراف.. وبلا إسفاف .

كان يدلف إلى قلب المستمع لا بآلة الجزار ..وإنما كما يدخل الرّسام

حجرته: بالفرشاة فقط .. والألوان ..

إن بعض الخطباء اليوم يصرخون .. مع أن الصراخ لن يحيى ميتًا . ولن تكون به خطيبًا أديبًا .. تمامًا .. كما أن قلما من الذهب .. لن يجعلك كاتبًا..

وأمرك أيها الخطيب على ما قال الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يُسعد الحال

درس من هناك :

وفد أحد « باباوات » روما إلى الأندلس لإتقانها وليقرأ العلوم بها ..

وكان من تقدير « الآخر لها » ما قاله « قسٌ » أسبانى : يا للأسى !!

إن المسيحيين قد نسوا لغتهم .. ولن تجد فيهم اليوم واحدًا فى كل ألف يكتب بها خطابًا إلى صديق .

أما اللغة العربية (فما أكثر الراغبين فيها) .

هذه اللغة التى وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ، وما ضاقت عن آى به وعظات، وسجَّل أباؤنا بها علومهم المختلفة ، من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وأصول ، ونحو ، وصرف ، وطب ، وعلوم ، وفلك ، وفلسفة وسوى ذلك .

هذه اللغة التى تكلمت بها الدنيا ، وكانت لغتها الأولى فى عهد من العهود كما كانت اللغة العالمية الأولى لعديد من بلدان آسيا ، وكثير من أقطار إفريقية وأوروبا ، ومن أجل تعلمها جاء أحد باباوات روما إلى الأندلس لإتقانها ، وليقرأ العلوم العصرية بها ؛ ولأنها وحدها كانت لغة العلم والفلسفة والحضارة بجميع معانيها . كما رفع قسٌ أسبانى عقيرته بالشكوى قائلاً : يا للأسى ! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم ، ولن تجد فيهم اليوم واحدًا فى كل ألف يكتب بها خطابًا إلى صديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب .

ومرت الأيام ، فإذا نحن نتداعى لنتدارس الأسباب التى أودت بها ،

وأوصلتها إلى هذا الدرْك من الانهيار والانحطاط ، ونتلمس السبل الكفيلة لاستعادة عزها ومجدها .

اللغة والسيادة :

بين اللغة وسيادة الأمة وتقدمها الحضارى خط بيانى ، يصعد بصعود السيادة والتحضر ، ويهبط بهبوطهما ، وأكبر مثال على ذلك الأمة العربية ، فيوم أن حكمت الدنيا ، وفتحت بلدان العالم ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وكان لديها القوة فى الحكم ، والدين والفكر ، والحياة ، كان لابد للغتها من أن تكون قوية قوة تلك الحياة ، معبرة عنها ، وعن كل مظاهرها ، ولذلك سهل تعلُّمها وتعليمها ، وأصبحت لغة الحضارة العربية والإسلامية ، فكتب بها من لم ينحدر من أصل عربى وأسلست له القياد ، وعبرت عن كل ما يريد .

ويوم تصدعت وحدة الأمة العربية ، وانهار بُنيانها ، وفَلَّ عزمُها ، ضعُفت لغُتها وخبَا ضياؤها ، وأصابتها عللٌ كثيرة ، وحرَمتها الدقةَ العلمية ، وعوقت فى الأمة تسامى روحها وعقلها وقلبها .

وفتحنا أعيننا فى النصف الثانى من القرن العشرين فإذا نحن أمام واقع مخيف أقطارٌ عربيةٌ شتى ما تزال تحت نير الاستعمار ، وأقطار أخرى لما تصفح إلى نفسها بعد احتلال أوروبى مديد ، وأقطارٌ يفرض الحاكم فيها الجهلَ والأمية ، ويمنع افتتاح المدارس . وإدخال النور إلى بلاده . . فى الوقت ذاته كانت حضارة قادمة من الغرب تسابق الزمن وتطحن الإنسان وتجعل منه رقمًا أو بضاعة ، وتحمل معها مفاهيم ، وتبث فلسفات ما أنزل الله بها من سلطان ، يروِّج لها مروجون وسَدَنَة.

● ● ●

ثقافة الخطيب

ينبغى أن تتسع ثقافة الداعية . . ليستطيع الإحاطة بأسرار النفوس . . حتى إذا أفتى كان على بينة من أمره .

ومن أمثلة ذلك :

يرى الشافعى أن مدة بلوغ الفتاة هى : تسع سنوات .

فالمناطق الباردة . . غير المناطق الحارة .

فهو عالم بطبيعة البلاد . . وأحوال المناخ .

أما ابن حنبل : فقد جعل الغاية : أن يتم الذكر تعليمه وأن تتزوج البنت فكان عالما بأحوال الاجتماع . والمسالك العملية . وإلا . . فما قيمة شاب عمره عشرون . . بينما عمره العقلى خمس فقط ؟!!

نخلص من ذلك إلى تقرير ضرورة أن يكون الفقيه موسوعيًا .

قال الحصرى فى الجواهر : قيل لعالم : وضعت رأسى فى حجر امرأتى فقال: ما أثقل رأسك ! فقال العالم : تطلق امرأتك ! فقال الرجل : ولم ! قال: لأن القصابين أجمعوا على أن رأس الكبش أثقل من رأس النعجة !

• • •

الإلمام بالثقافة الكونية

آمنت بالله العظيم وبقدرته على كل شىء ، وآمنت بالقوانين التى وضعها الله للأشياء ، فقد وضع فى القمر جاذبية ترفع المياه إلى الشاطئ ، فيغرق بيتًا لفقير أو عشرات البيوت للأغنياء .

وأن تندفع الرياح وفقًا للقوانين فتكون عواصف وأعاصير تحطم الأشياء التى لا تقوى على مقاومتها . . وهذا طبيعى . .

وأن يكون الزلزال والبركان نتيجة للغازات المحتبسة فى باطن الأرض فتندفع بقوة محاولة أن تخرج من قشرة ضعيفة فتكون الحمم وفقًا للقوانين التى أودعها الله للأشياء . . وإذا جفت الأرض واندفعت الرمال على الأرض الخضراء . وإذا زادت الأمطار فى الحبشة كان الفيضان الذى يغرق الضفتين فى مصر .

وإذا تطوحت كتلة من الأحجار تدور فى الفضاء حول الشمس أو حول المريخ أو زحل من عشرات ملايين السنين ثم انحرفت واصطدمت بالأرض فاحترق النبات والحيوان والإنسان . فليس ذلك إلا لقوانين محددة .. فهى تقترب من الأرض بواقع عدد من الكيلومترات كل مائة سنة .. فلا هى لعنة ولا هى استجابة لدعوة مظلوم وإنما هى تخضع لقوانين الحركة والجاذبية التى أودعها الله فى مادة الإنسان والحيوان والنبات والنجوم والكواكب حولنا .

وانتشار الجراد والفئران والميكروبات والانفلونزا والإيدز .. كلها نتائج لتفاعلات علمية .. طبية أو جغرافية .. فليس المزكوم ملعونًا ، وليست الفئران محكمة للعدل بين الناس .. وإنما كلها ظواهر طبيعية تهدد الإنسان والحيوان .

وحين غابت الشمس يوم مات أحد أبناء الرسول عليه الصلاة والسلام . قالوا من أجل ولده وأنكر واستنكر الرسول عليه الصلاة والسلام هذا التفسير الخرافى لقوانين الفلك .. إن الشمس لا تغيب من أجل غياب أى أحد !! عيب جدا ما قيل عن أن الجراد غضب من الله على الذين كفروا ـ فهل نحن جميعًا كافرون وهل الذين أفتوا بذلك أيضًا ؟!

إن العلم المحمود .. والمطلوب أن يتفقه فيه ليس هو العلم الشرعى فقط .

إن العلم معناه واسع .. يشمل كل أفرعه .

بدليل : أن علماءنا كتبوا فى كل مجال من مجالات المعرفة .. واقرأ قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] .

● ● ●

المـزاج المعتـــدل

يقول الفنان : علق لوحتك فى غصن الحديقة .. وسوف يجىء العصفور سريعًا .

ولكن سرعته لا تدل على أن اللوحة جميلة .. كما وأن بُطأه لا يدل على قبحها .. وانتظر حتى يغنِّى .. إنه المزاج المعتدل !

● ● ●

من فقه السنة

فى خطبته ﷺ فى عرفات دروس :

١ ـ **القدوة الحسنة** : فأول دم وُضع : دم ابن عمه « ربيعة بن الحارث » وأول ربا أهدر : ربا عمه العباس .

٢ ـ واكتمال الدين يعنى : أن نستعد من الآن .. ليظل كاملاً .. فلا ينقص .

٣ ـ وكأنما كانت توجيهاته ﷺ تحذيراً للأمة من مخاطر المستقبل .. وما يحمله رحم الغد من مشكلات .

من تجارب الشيخ على الطنطاوى

يقولون : إن العلم قد يكون فى الأحداث .. أما التجربة : فلا تكون إلا فى الشيوخ ..

أ ـ [وأنا من عادتى إذا سمعت بمنكر أو رأيته ، أدخله ذهنى كما تدخل المعلومات فى المحساب (الكومبيوتر) فأنام عنه كما أنام كل ليلة كأن شيئًا لم يلج فكرى ، فإذا كان قبل موعد قيامى لصلاة الفجر ، استيقظت من نومى فوجدت الفكرة قد ملأت نفسى ، وغلبت على فكرى ، وتملكت أعصابى ، فأتحمس لها ، وأعد فى ذهنى ما أكتبه أو أقوله عنها ، ويطير النوم من عينى فألبث متيقظًا أترقب طلوع النهار] .ا. هـ .

ب ـ ثم : التواضع .

[وكذلك يكون العظيم . لقد تعلمنا فى المدرسة ونحن صغار أن السنبلة الفارغة ترفع رأسها فى الحقل وإن الممتلئة بالقمح تخفضه ، فلا يتواضع إلا كبير، ولا يتكبر إلا حقير . وأن من أحسّ أنَّ الكرسى أو المنصب ، أو المنزلة الاجتماعية ـ أقل منه ازداد به تواضعًا ، وأن من رأى نفسه أصغر من ذلك انتفخ به كبرًا ، وتاه على الناس أشرًا وبطرًا .

إن الذى يكون ارتفاعه على أرجل الكرسى فقط إذا زال كرسى الوظيفة من تحته هوى وأخلد إلى الأرض ، أما من كان كالنسر ، ارتفاعه بجناحيه ، فلا يزال محلقًا فى الجواء] لا الأجواء .

هل عرفتم من هو الذى أتكلم عنه؟ إنه مجدد الإسلام فى هذا القرن ، إنه الشيخ حسن البنا .

أقام لنا حفلة شاى فى دار الإخوان التى اشتروها فى الحلمية الجديدة ، لولا الخجل لقلت إننى أنا المقصود بهذه الحفلة [إكرامًا منه لى ، لا استحقاقًا منى لها] بقيت محبًا له من بعيد صديقًا مخلصًا ، أدعو له بظهر الغيب ، ولكننى ـ على طريقتى ـ ما انتسبت إلى جماعة الإخوان ولا إلى غيرهم من الجماعات .

خطبت فى هذه الحفلة وخطب الشيخ الحامد وخطب الشيخ حسن ، وهو فى خطبه التى يلقيها كما تلقى الأحاديث ، بلا انفعال ظاهر ، ولا حماسة بادية ، من أبلغ من علا أعواد المنابر . تفعل خطبه فى السامعين الأفاعيل وهو لا ينفعل ، يبكيهم ويضحكهم ، ويقيمهم ويقعدهم ، وهو ساكن الجوارح ، هادئ الأصوات، يهز القلوب ولا يهتز] .

وأعرف فى الخطابة طريقتين : الطريقة التى نشأنا عليها أول عهدنا فى ارتقاء المنابر والتى كان عليها الشيخ مصطفى السباعى ـ رحمه الله ، وأنا أسن منه بكثير، والأستاذ عصام العطار والأستاذ الصواف الذى سأتكلم عنه الآن ، وطريق الشيخ

حسن البنا والدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وكل هؤلاء من الخطباء الأبيناء ، ومن سادة المنابر . وأنا قد جربت الطريقتين كنت أخطب مثل السباعى وأمثاله : تغلبنى الحماسة فيعلو صوتى ويحمر وجهى ، وتتلاحق الجمل والعبارات منى ، ثم انتقلت منها إلى مثل طريقة الشيخ حسن البنا والدكتور الشهبندر .

فى هذه الحفلة فى دار الإخوان ١٩٤٥م قام يخطب شاب آتاه الله جمالاً فى الوجه ، وبسطة فى الجسم ، وجهارة فى الصوت ، على رأسه عمامة ليست مثل عمائم المشايخ فى مصر ، بل هى على طربوش مقشش مكوى ، كعمائم السوريين والأتراك ، فألقى خطبة تنفجر حماسة ، وتتدفق إيمانًا ، تزدحم ألفاظها ازدحامًا ، فسألت عنه فوصفوه لى بإعجاب ، وعرفوه بفخر ، وإذا هو طالب عراقى موصلى .

وهكذا الخطيب :

[لا يحلو له نعيم حتى يشرك الناس معه فى نعيمه ، وكذلك الأديب يجود على الناس بأعز شىء عليه : بشعوره ، وعواطفه فيفتح لهم نفسه ، ويكشف لهم عن سرائره ، ولا يستأثر دونهم بشىء، فهم معه فى ألمه وسروره ، ويأسه وأمله، يتلو عليهم نبأ حبه وبغضه ، وحركاته وسكناته ، فيشاركونه حياته ، ثم يقولون عجبًا لهذا الثرثار الذى لا يفتأ يتحدث عن نفسه ، ولا ينفك مزهواً بها زهو الديك بريشه ، مالئًا الصحائف بأخبارها ، كأن الناس لا هم لهم إلا أن يسمعوا خبرها .

ما درى الظالمون أنهم يتهمون بالأثرة رجلاً هو أول المؤثرين] .

• • •

من أسرار اللغة

[فيها حروف تكتب ولا تقرأ ، وحروف تقرأ وهى غير مكتوبة ، وحروف تقرأ فى كلمة على صورة وتقرأ فى الكلمة الأخرى على صورة غيرها . وقواعدها

سماعية ليست قياسية ، واللفظ بها شنيع . وهم مع ذلك قد فرضوها على ربع العالم ؛ لأن أصحابها أهل اعتزاز بها ، وحرص عليها ، ونشاط فى تسهيل تعليمها ، والدعوة إليها ، حتى أننا نجعل لها فى مدارسنا خمس الساعات الأسبوعية أو سدسها ، وتوزع الأخماس الأربعة على الدروس الباقية كلها ، ثم لا يأخذ منها أبناؤنا ما يسهل عليهم الدراسة بها ، إذا ذهبوا يتمون تعليمهم فى البلاد الأخرى ، بل يمضون سنة من أعمارهم فى تعلمها من جديد .

ولغتنا العربية ، أكمل لغات الأرض بلا جدال ، صارت لغة كاملة قبل أن يوجد فى الدنيا كلها ، من يقول عن نفسه أنا إنجليزى ، وقبل أن تعرف الأرض هذا الجنس ، ولا أقول المبارك ولم يشهد التاريخ ولادتها ولا طفولتها ، ولم يعرفها إلا بالغة رشدها ، لأنها أكبر من التاريخ وأقدم منه مولداً . ولانزال نجد فى هذه اللغة التى كانت مستعملة قبل ألفى سنة ، كلمات تفى بكل ما يحتاجه أستاذ الطب ، وأستاذ الحقوق ، وأستاذ العلوم فى الجامعة ، ولا أقول هذا خيالاً ولا فرضًا مستحيلاً ، بل أخبر عما صنعه أساتذة كلية الطب فى دمشق حين عربوا المصطلحات كلها فى السنين الستين الماضية .

ولكن قعد بهذه اللغة العربية النبيلة ، قعد بها أننا نحن أبناءها لا نعتز بها اعتزاز الإنجليز بلغتهم الشوهاء ، ولا نحرص عليها حرصهم على لغتهم ، ولا ننشط فى تعليمها ونشرها مثل نشاطهم ، بل إن فينا من يظن بأن من الظرف والحضارة أن يدع الكلمة العربية الفصحى ، وينطق بمرادفتها من الإنجليزية أو الفرنسية ، فلا تقول « خمار » ولا وشاح بل « إشارب » ولا نقول « معطف » بل نقول « مانطو » ولا نقول « تقانة » بل نقول « تكنولوجيا » ولا نقول « البرد » بل نقول « روب دو شامبر » وأمثال ذلك مئات] .

[فمن أين قبست هذا الأسلوب الذى أكتب به ؟ لم آت به ثمرة بلا شجرة ، فما تكون الثمار إلا من الأشجار ، ولا أوجدت شيئًا من غير شىء ، فما كان موجود من معدوم إلا أن قال له الله كن فيكون . . وما منا إلا من تأثر بغيره وأثر

فى غيره ، والدنيا أخذ وعطاء ، وما مثالنا إلا كتاجر فتح دكانه على طريق القوافل ، يوم كانت التجارة مقايضة ومبادلة ، ولم تكن وجدت نقود ، يمر به.

يوم كان يعيش فى دنيا الناس ، وكأن له دنيا وحده ، يرى فيها ما لا يرون ، ويسمع ما لا يسمعون ، يرى فى كل مشهد جمالاً ، وفى كل جمال حلمًا فاتنًا ، يستغرق فيه مسحوراً ، ويدرك من لذاذاته ومتعه ما لا يعرفه إلا من سمع حديث الجمال ووعاه بأذن قلبه ، وأمضى لياليه حالمًا ، سادرًا فى أحلامه ، فإذا صحا لم يجد ما يترجم به عن نفسه إلا لغة ضيقة قاصرة ، هى لغات البشر ، التى خلقت للتعبير عن حاجات الأرض ، لا لوصف أحلام السماء .

وماذا تصنع لغة لا تعرف للجمال كله على ما له من الصور التى لا تنتهى ، والمعانى التى لا تنفد إلا كلمة واحدة هى كلمة الجمال ؟ وأنى لها أن تترجم من عالم كله حياة وقوة وسحر ؟ وكيف تقنعه وللجمال فى عينيه صحائف يقرأ منها كل ساعة جديدًا ؟ فلكل وجه جمال لا يقاس به غيره ولا يشبهه سواه ، ولكل عين جمال ، ولكل بسمة لفتة ، ولكل رنة صوت ، ولكل ومضة ثغر ، ولكل واد جبل ، ولكل سهل ونهر ، ولكل مقطوعة من الشعر ، وكل صورة فى المتحف وكل زهرة فى الروض ، وكل رائحة وكل نغمة ، فجمال ريا الياسمين ، وجمال أريج الورد ، وجمال عبق الزنبق ، وجمال رَوْح الفل ، وجمال البيات والرصد ، والحجاز والصبا ، والعود والقانون والناى والكمان ، وجمال القصة المؤثرة ، والحكمة المتخيرة ، وما شئت وما لم تشأ من أنواع الجمال فى الوجود ، كل أولئك ليس له فى هذه اللغات البشرية إلا لفظ واحد يدل عليه ويشير إليه . يا ما أفقر لغات البشر !

[وليست القوة أن تسوق على عدوك العسكر اللجب ، والمدافع والدبابات تضرب بها قلعته ، ولكن القوة أن تأتيه باسمًا « مصافحًا » فتحتال عليه حتى يفتح لك قلعته بيده فإذا أنت قد امتلكتها بلا حرب ولا ضرب] .

[وكلما مر به أحد أخذ منه سلعة ، وأعطاه بدلها سلعة أخرى ، ولبث على

ذلك أكثر من خمسين سنة ، فاجتمعت عنده مئات من الأشياء من كل صنف وكل لون فهل ترونه يعرف كل شيء منها ممن أخذه ، ومتى أخذه وما الذى أعطاه بدلاً منه ؟ هذا مثالى ومثال من كانت حاله كحالى : ما قرأت كتابًا ؟ ولا جالست عالمًا ولا أديبًا ، ولا سمعت خبرًا ، ولا رأيت سرورًا ولا كدرًا ، ولا نزلت بلدًا ، ولا قابلت أحدًا ، إلا ترك فى نفسى أثرًا .

فهل أقدر أن أحصى كم قرأت من الصحف ، وكم لقيت من الناس ، وكم رأيت من المسرات والأحزان ، وكم قصدت من الأقاليم والبلدان ؟

كان لكل ذلك أثر فى تفكيرى ، وفى مشاعرى ، وفى أسلوبى .

وإن لأسلوب كل كاتب سمات عامة نستدل عليه بها ، فبين سطورها وفى تضاعيف جملها وكلماتها ، وطريقة صفها ورصفها ، وطول جملها أو قصرها ، وسهولتها أو وعورتها ، وقربها من الحقيقة أو ضربها فى طرق المجاز ، فى كل ذلك إمضاؤه واسمه ، إن لم يكتبه فى ذيل المقالة صريحًا ، كتبه هنا تلميحًا وتلويحًا .

ومن الأساليب ما يكون كالفتاة الشابة تبدو للنساء بوجهها التى وهبه الله لها، تخرج به كما هو بحسن كحسن البداوة الذى وصفه المتنبى ، والتى تجمله أو تبدله بالأصباغ ، فتورد خديها المصفرين ، وتتخذ لها رموشًا ليست لها ، وتستبدل التكحل بالكحل الذى حرمت منه ، وتغطى شعرها المجعد بشعر مصنوع سبط .

وكم بين كاعب غضة الإهاب، لينة الأعطاف ، تتفجر شبابًا وصحة وجمالاً، وبين نصف :

وإن أتوك وقالوا إنها نصف فإن أحسن نصفيها الذى ذهبا

نصف غطت ما فعلت بها السنون ، بالأصباغ والدهون ، وطمست ما عراها من بوادر الدمار ، بما حوى دكان العطار .

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

لا ، ولا يصلحه المزين ولا الحلاق ، هل تعدل بسيارتك الجديدة التى خرجت الآن من الوكالة ، سيارة أكل عليها الدهر وأكل منها ، وإن أدخلتها المرآب ونجدت فرشها وصبغت سطحها ؟

لذلك كان أفضل ما كتبت فى رأيى ما كنت أنطلق به على سجيتى ، وأساير طبعى ، فأكتب بلا تكلف ، ويقرأ الناس ذلك بلا تعب ، وأسوأ ما كتبته ما كنت أتصنع فيه ، وأحتشد له ، وأريد أن آتى بما أحسبه رائعًا ، فأتعب أنا بكتابته ، ويتعب القارئ بقراءته] .

[وكان من عادتى حين أصعد المنبر لأخطب خطبة الجمعة أن أعد الموضوع فى ذهنى لا أكتبه . لأنه ليس أقبح من خطيب يتلو خطبته من ورقة مكتوبة ، يضع عينيه فيها لا ينظر إلى الناس ، بل يكلمهم معرضًا عنهم ، وأقبح منه من يفعل ذلك فى الرائى (أى فى التليفزيون) .

وربما أعددت فى ذهنى موضوعين أتردد بينهما ، أيهما أختار منهما ، حتى أن المؤذن بين يدىّ يصل إلى « حى على الصلاة وحى على الفلاح » وأنا لا أزال مترددًا فى اختيار الموضوع ، ولكن الموضوعين فى ذهنى فإذا بدأت بأحدهما فتح الله علىّ ، وانطلقت أتكلم فيه] .

ولم أكن أنوى التعرض للحفلة لأننى تكلمت فيها وكتبت ، وحسبت أنى أعذرت بذلك إلى ربى ، ولكنى لما بلغت الدعاء فى آخر الخطبة ، خطرت على بالى الحفلة ، وما كان فيها ، فخفت من الله أن يرانى ساكتًا عن إنكارها ، وأن لا أكون شيطانًا أخرس ، وأنا لا أرضى لنفسى أن أكون شيطانًا ناطقًا بليغًا ، أفأرضى أن أكون شيطانًا وأخرس ؟

وأحسست أن شيئًا قد نبض فى قلبى ، فهزه مثل هزة الكهرباء ، وسرى فى أعصابى وعروقى ، وحين أحس بذلك أعلم أنى إن تكلمت كان كلامى لله ، وأن الله لا يخذلنى ، وقع لى ذلك عشرات من المرات ، ما تخلى الله عنى فى واحدة

منها .

أما حين أتكلم للدنيا وأفكر فى نفع أناله من كلامى ، أو ضرر أتحاشاه .. إن تكلمت فى هذه الحال لم يكن لكلامى أثر فى نفوس السامعين ..

لما بلغت الدعاء قلت كلامًا صدقوا أننى لا أحفظه لأننى لم أعده ، ولم أرصفه ، وإنما تكلم به إيمانى على لسانى .

قال السامعون لى بعد ذلك أننى قلت ما معناه : إن دمشق ظئر الإسلام ومثابة الأخلاق ، لا ترضى بما يخالف الإسلام ، ولا بما يذهب بمكارم الأخلاق كائنًا من كان قائله أو فاعله ، وكانت منزلته بين الناس ، وإن هذه الحفلة منكر وإنها حرام ، وإنها تنافى الإسلام ، وإن كل من حضرها ورضى بها آثم ، وإن الذى لا يغار على محارمه ديوث] .

* * *

شرف الخطيب

ويكفى الخطيب شرفًا أن تكون أداته هى : اللغة العربية .

والتى [تملك مخزونًا معنويًا . ولها وظيفة اجتماعية ، وتربوية ، ولها كذلك تأثير نفسى ..

فهى الركيزة الأولى فى الحوار والتفاهم . ثم التعارف المنتهى بالتعاون والتواصل الإنسانى] . وهذا هو شأن اللغة بعامة .

عندما يعرف « الخطيب » قدر نفسه :

سألوا الخطيب عن مسألة : فقال : لا أدرى .

فقالوا له ساخرين منكرين : ترتقى المنبر .. ثم تقول لا أدرى ؟!

فقال لهم : ارتقيت المنبر .. على قدر علمى .. ولو ارتقيته على قدر

جهلى . . لبلغت عنان السماء [١] !!

وقد انطلق الخطيب هنا من قاعدة تقول : إن سئلتم عما لا تعلمون . . فاهربوا أى : بقولكم الله أعلم !!

وهكذا فعلت الملائكة . . التى لم تستح أن تقول : ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة: ٣٢] .

• • •

الكلمة وسرعة التأثر بها

فى أمريكا : نبه الآباء على الأبناء ألا يحدثوا « الكفار » ، ولا يسمعوا الموسيقى ؛ لأن الشيطان يدخل الأذن معها !!

والتزم الصغار . . فكانوا صامتين لا يحدثون الكفار !

وقد قرأت فى كتاب « تلبيس إبليس » نبأ ذلك الوالد الذى أمر ولده بأن يضع يده فى أذنه حتى لا يسمع باطلاً قد يترك فيه أثره !

وقد ذكروا : أن واحدًا من عشاق شاعر كبير . . طلب منه قصيدة يستمتع بها . . فما كان جواب الشاعر الكبير إلا أن قال له : تكلم !

تكلم يا رجل . . افعل شيئًا . . حتى أتكلم !!

• • •

شرف الكلمة

يقولون : [إن لغة التخاطب بين أبناء البشر هى من أسمى صفات الإنسان بها يعبر عن انفعالاته السلوكية وبها يدرك أحداث الحياة المؤثرة حوله والكلمة هى مصدر الحضارات والرقى الذى توصل إليه الإنسان ونعمة الكلام والتعبير نعمة

---

(١) عنان السماء : بفتح العين : سحابها ، وعِنان الدابة ـ بكسرها : مقود الدابة .

كبرى من الله عز وجل لبنى البشر لا يعرف قدرها إلا من حرم منها ، والمثال الشاهد أمامنا الشخص الأبكم وما يعانيه من ضعف التعبير وصعوبة الكلام فيبقى عاجزاً محدود التأثير فيمن حوله ولا يستطيع أن يخوض فى بحور العلم أو يرد مناهل المعرفة فما افتقده من قدرة على الكلام يحول بينه وبين مواكبة التعليم الإنسانى رغم أن ملكات عقله وقدرته على الفكر لم تتأثر] ا. هـ .

● ● ●

تأثير الصورة

قد يتسرب حب الظلم إلى باطن الإنسان .. وهو لا يشعر .. أو الإعجاب بالظالمين .. ومن أجل ذلك وصى ﷺ بعدم دخول ديار الظالمين .

ومنها ديار ثمود .. فراراً بالمسلم من هذا الخطر الخفى !

وهكذا لا يكتفى « المدرس » بالجملة يلقيها .. وإنما يكتبها على السبورة .

لأنها عندئذ تضم إلى حاسة السمع حاسة البصر .. فإذا الفكرة أقوى ثباتًا .. والذاكرة أوعى ما تكون .

لقد رأى عينين صافيتين كأن قلب المعلم يطل منهما .. تعبر المعانى إليه بصوت صادر من القلب .. ليصل إلى القلب .

فإذا كانت اللغة هى « العربية » فإنها شرف يساوى وجود الإنسان .

يقول العقاد : [إن زوال اللغة العربية لا يُبقى للعربى أو المسلم قوامًا يميزه فى سائر الأقوام .

ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الأمم . فلا تبقى له باقية من بيان . ولا معرفة ولا إيمان] .

قال عبد الملك بن مروان : ما الناس إلى شىء من العلوم أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التى بها يتحاورون الكلام ويتهادون الحكم ، ويستخرجون غوامض

العلم من مخابئها ، ويجمعوا ما تفرق منها . إن الكلام قاض يجمع بين الخصوم، وضياء يجلو الظلام ، وحاجة الناس إلى مواده كحاجتهم إلى مواد الأغذية .

طُلب من « يحيى حقى » أن يكتب لمجلة تعنى بشئون الفلاحين فقرر أن يكتب بالعامية . . لكنه عدل . . لماذا ؟

١ ـ امتحان لهم لفهم ما يسمعون .

٢ ـ ليشعروا بأنهم أناس من الناس ، فلماذا يخاطبهم بلغة خاصة بهم . . كأنهم غرباء ؟

٣ ـ هم يريدون التسامى إليه . . ولكنه يشعرهم بأنه يهبط إليهم ! وذلك يؤذيهم .

٤ ـ وقد لا يفهمون النصيحة . لكنهم يهتزون لجرس اللفظ .

المهم : لغة عربية . . بسيطة بلا تقعر . وأهم منه : فكرة تشغلهم . . واختار أن يكتب فيما يتصل بالأغانى التى تقلّد الفلاحين .

* * *

من نصائح المجربين

[إذا أردت أن تخطب . . فتحدث إلى الناس . . ولكن بعض الخطباء يتحدث إلى نفسه . . لا إلى الناس .

فهو إذن يبحث عن نفسه بين الناس . . والناس الجالسون أمامه يبحثون عن أنفسهم عنده . فهو لم يجد ما يبحث عنه . . وهم لا يجدون ما يبحثون عنه . . فكأنه لا يكلمهم . . وكأنهم لا يستمعون إليه] ا. هـ .

* * *

أسلوب الخطيب

تمهيد :

يتباكى بعض الكاتبين على هذا الهبوط الحاد فى مستوى الكلمة « المغنّاة »؟!

ويزداد التباكى من هذه الكلمات المقحمة على قاموس الأغانى رأى فيها أهل الفن أنها لا تليق وطبيعة سحر الكلمة ، التى يجب توظيفها من أجل الوصول إلى المعنى بصورة فنية لائقة ثم يقول : [إن الكلمة المغنّاة حاليًا قد أصبحت مجرد «أثير هلامى» يمر على الآذان مرور الكلام ، دون أن يستثير المشاعر] .

ثم يقول : فبدون الكلمات لا يتم إدراك المعنى ، وبدون أن يكون للكلمات معنى فإن خاصية الإدراك لابد أن تتعطل .. ميكانيكية فطرية وهبها الله للإنسان استهدف منها سبحانه ضمان التواصل بين البشر ، فإذا ما تعارضت الكلمات مع الإدراك لفظها العقل فوراً ، تمامًا مثلما ترفض المعدة ما يتعارض مع طبيعتها سواء كان سمًا أو ربما مجرد عناصر غير متجانسة من الطعام لمجرد أنها عناصر غير متجانسة !

والخلل كل الخلل هنا ليس فى أن تتجمع عناصر غير متجانسة فاقدة لقيمتها من الغذاء ، وإنما حينما تتقبل المعدة ذاتها هذا التجمع دون أن ترفضه . وفى حالتنا عندما يتقبل العقل أى كلام دون أن يدرك معانيه !! فإذا كان الحديث عن أسلوب الداعية .. فحدث ولا حرج :

وهنا نتساءل : أين أثر الكلمة فى عالمنا ؟!

هل فقد الكلام معناه ؟! هل فسدت أجهزة الاستقبال وأجهزة الإرسال..؟!

لقد فسد القلب .. فقدنا معه كل شيء ..

ورحم الله الإمام عليا حين قال لرجل لم يتأثر بموعظته : إن بقلبك لشراً .. أو بقلبى .

المشكلة والحل

وعندما نلتمس جذور هذا الاهتمام بالكلمة وأثرها .. فإننا واجدون فى السنة المطهرة ما يشفى الغليل .. فقد كان ﷺ يخطب الجمعة .. وفجأة قدم رجل .. فقطع ﷺ حديثه قائلاً له : « **اجلس .. فقد آذيت** » !.

لم يقل له : لقد آذيت إخوانك .. حتى لا يثيرهم عليه ..

ولكنه فقط ينبه الرجل إلى ما يريد التنبيه إليه .. نكالا لأمثاله .. وحتى لا يتكرر الموقف ..

• • •

من استفتاحاته ﷺ

بالثناء : مثل : سبحانك اللهم .. وبحمدك .

ثم بما يليه فى الفضل وهو : الإخبار بولاء العبد له تعالى : مثل وجهت وجهى إليك .

ثم ثالثها وهو الدعاء وهو آخرها .. [لأنه طلب وسؤال] .

والأولى : المراوحة بينهما .. لا الاقتصار على أحدها لسببين :

الأول : أن مباشرتها جميعا سنة .. لأنه ﷺ كان ينوِّع .. والتنوع كمثله : سنة .

والثانى : قد يقتصر العبد على المفضول مثل (الدعاء) لأنه أنسب لحاله . حيث يباشره وهو راغب فيه .. مشتاق إليه .

يقول أحد الكاتبين :

[وبلاغــة الكلام من الأمور المطلوبة فى مجال الرسالة والدعوة إلى الله . وها هو ذا موسى عليه السلام يطلب من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون حين أرسله

ربه إلى فرعون وملئه فقال : ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص:٣٤] . وتمنى على الله أن يطلق لسانه ، ويفتق بيانه ، ويحل عقدته ، ويفك حبسته فقال : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه:٢٧، ٢٨] .

وهذا نبى الله داود يفيض الله عليه الحكمة ، ويمنحه سداد القول ، وفصل الخطاب ، ويمتن الله عليه بذلك فيقول سبحانه : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص:٢٠] .

أما أمة العرب التى بعث فيها المصطفى ﷺ فهى أمة الفصاحة والبلاغة والبيان، وكان لابد أن يكون بيان رسولهم أسمى من بيانهم ، ومنطقه أروع من منطقهم ، وخطابه أجل أثرا ، وأعظم قدرًا ، وأعلى شأنًا ، من خطابهم ولذلك كان تأييد الله له بمعجزة القرآن ، ومعجزة البيان ولكى ندرك المدى الذى وصلت إليه معجزة البيان المحمدى فما علينا إلا أن نتأمل مليا أول خطبة وجهها رسول الله ﷺ إلى قومه وعشيرته يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويعدهم ويحذرهم ، ويبشرهم وينذرهم ويقول : « **إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءًا ، وإنها للجنة أبدًا ، وأن النار أبدًا ، وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد** » .

حكمة بالغة ، وقول فصل ، وإيجاز محكم ، ونفاذ إلى أعماق القلوب ، وامتداد إلى آفاق العقول ، وتلمس لأسرار النفس الإنسانية ، والوصول إليها من جميع أقطارها .

وتلمس معى مواطن التأثير ، وأسرار التمثيل ، وبراعة العرض ، وروعة الأداء ، لما يسمى بالحرية الخاصة التى تنتهك الحرمات ، وترتكب المنكرات ،

وتستهين بحدود الله فى قوله ﷺ : « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا ..** » .

إن التمثيل والتصوير هنا قد استحالا قناعة تامة بضرورة الأخذ على أيدى العابثين بالحرمات ، الواقعين فى المنكرات ، وإلا فسيكون الهلاك عامًا لا محالة . وهل تراك فطنت إلى تحذيره ﷺ من المرأة صارخة الجمال ، باهرة الحسن ، وقد تجردت من عفافها وطهرها وأدبها ، وذلك حيث يقول : « **إياكم وخضراء الدمن** » ، قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : « **المرأة الحسناء فى المنبت السوء** » لها فتنة النبتة المزهرة النضرة الندية ، لكنها ضاربة بجذورها فى معاطن الإبل بكل ما تحمله من خبث وقذر وسوء .

أم هل تراك أدركت بحسك العميق وبصيرتك الواعية ما يعبر عنه قول المصطفى ﷺ : « **لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين** » وما يشير إليه من فطنة المؤمن ونباهته وحرصه على السلامة ، وتجنبه لأسباب الشر ودواعيه ، وتحذيره من الغفلة وبلادة الحس ، ورداءة الإدراك ، وعتامة الوعى ، وبأية هزة وأريحية تتلقى قوله ﷺ لأنجشة العبد وهو يحدو الإبل ، وتمادى فى تطريبه ، فتزداد الإبل سرعة ، وتتمايل الهوادج بالنساء : « **يا أنجشة .. رفقا بالقوارير** » تمهل يا أنجشة ، وترفق بالنساء ، فإنهن لا يحتملن عناء هذه السرعة . وتمايل الهوادج بهن ، وهن الرقيقات الناعمات الضعيفات .. وذهب أنجشة ومضى عهده ، ومرت مئات السنين ، وما زال قول الرسول يتردد على سمع الزمان « **رفقا بالقوارير** » !! .

هكذا كانت هذه الإشراقات البيانية ، والمعانى الإبداعية ، والتعبيرات الإيحائية ، واللمسات التأثيرية ، والدلالات التمثيلية ، والطاقات التصويرية ، والإيقاعات الصوتية هى المثل الأعلى فى بلاغة الأسلوب ، وسحر البيان ، وروعة العرض والأداء ..

يقول الأستاذ أحمد رجب :

[لماذا نقرأ لكاتب فنحس أننا نشرب كوبًا فارغًا من الماء ؟ ولماذا نقرأ لكاتب ثان فنحس أننا نشرب كأسًا من الخمر الرديئة التى تذهب بالعقل ؟ ولماذا نقرأ لكاتب ثالث فنحس أننا نزداد غنى وثراء وغمر بتجربة حقيقية من تجارب الحياة ؟

إن الفرق فى تفاوت إحساسنا بالكتابة والكتاب يرجع لقدرة هؤلاء الكتاب على احتمال الصدق والتعبير عنه ، ودور الكاتب الرئيسى أن يكون ضميراً لعصره ومهمته أن يسهم فى تبديد الظلام بإشعال شمعة ، وعلى الكاتب أن يكون شاهداً صادقًا ، وهناك شهود صادقون وشهود زور يقفون أمام المحاكم ، وأى كاتب يبيع فكره يصير أسوأ ممن تبيع جسدها فى سوق الغواية .

ومهمة الكاتب أن يكون صادقًا ، ويقف فى معسكر الحقيقة حتى لو كانت القنابل تسقط على هذا المعسكر بانتظام ، وكثيرا ما يكون الأمن والثراء والدعة جنرالات فى جيوش الكذب ، وكثيراً ما يكون الخوف والفقر والشقاء ضرائب مفروضة على الصدق ، فليحذر الكاتب أن ينضم إلى الكذب لأنه يتحطم ككاتب ويسقط فلا يقرأه أحد .

والكلمة الصادقة هى مهنة الأنبياء ، والكاتب الصادق هو واحد من أتباع الأنبياء ، والذى يكذب فى هذا المجال يهوى من حالق وإن تصور بالوهم أن يصعد إلى أعلى .

وفى مهنة الكتابة ـ كأى مهنة أخرى ـ يوجد الذهب كما توجد الشوائب ، ويلمع الصدق كما يتزين الكذب .

وفى الكتاب من تبلغ به درجة النفاق أن يمدح شخصًا أو نظامًا فينصرف الناس عن هذا الشخص أو النظام ، لعلمهم أن الكاتب مأجور أو كاذب .

وفى الكتاب من يخلع ملابسه ويرتدى بدلة الرقص إذا أراد أن يكتب ، ثم يمسك بالصاجات ويزف عروسًا صلعاء متصوراً أن أجر الراقصة أكبر من أجر

الكاتب ، وربما كان هذا صحيحًا من الناحية المادية ، ولكن الكتاب الراقصين لا يحظون باحترام أحد مهما كانوا أثرياء .

وفى الكتاب من يصلى خلف « على » ويأكل على مائدة « معاوية » متصوراً أنه ينال ثواب الصلاة ولذة الطعام معا ، وإن كانت الحقيقة أنه يضيع نفسه فى الحالتين .

ومهمة الكاتب ألا يفقد الأمل وإن اشتدت العاصفة ، وأن يسبح ضد التيار إذا كان التيار يسبح ضد الحقيقة ، وأن يقول كلمة الحق وإن كان جزاؤها الويل ، وأن يشهد بالصدق على عصره ، وأن يكون ضميراً حيا لهذا العصر .

هذا دور الكاتب ، وهذه مهمته ، أما أصحاب الأقلام الذين يحملون لافتات للإيجار فهؤلاء ليسوا كتابًا وإنما هم شقق مفروشة] .

ذهب الفتى الطموح إلى الشاعر الكبير قائلاً له : أريد أن أكون شاعرًا ؟ فقال له : خذ هذه الألف بيت واحفظها . فلما جاءه يخبره أن حفظها . قال له الشاعر: حاول أن تنساها ؟!

وحاولت أن أفهم الموقف على ضوء تجاربى . . فانكشف لى ما يلى :

أن مجرد القراءة والحفظ لا يكفى ـ على أهميته ـ والمطلوب هنا : تمثّل ما قرأت وما حفظت أن يترسب فى أعماقك بعد تمثله وجريانه فى عروقك دمًا . . وفى قلبك خفقانًا . . تمامًا . . كما يقوم الجسم بدوره ليتحول الطعام إلى طاقة . . وإلا . . خرج كما هو دون فائدة ما . . وقد كنت أسمع المرحوم الشيخ محمد الغزالى فأتأثر به . . مع خلو كلامه من الجُمل البراقة . . بينما غيره يكثر من استعمال الجمل المنتقاة . . ثم لا يكون له تأثير . .

والسر هو : أن غير الشيخ يحفظ الجمل البراقة . . فإذا هى تخرج . . وقد لزقت كل جملة بأختها . . بينما الشيخ يخطب بعدما هضم ما قرأ وما حفظ

فصار فى قلبه دمًا .. وخفقان .. فإذا تحدث كان يصدر عن قلبه العامر بالطاقة.. ومن ثم يؤثر .. لأنه متأثر !! ومتأثر بما حفظ .. ثم بتحوله فى قلبه إلى طاقة معبرة مؤثرة !

(وما المجازات والاستعارات والكنايات ، ونحوها من أساليب البلاغة إلا أسلوب طبيعى لا مذهب عنه للنفس الفنية إذ هى بطبيعتها تريد دائمًا ما هو أعظم، وما هو أجمل ، وما هو أدق ، وربما ظهر ذلك لغير هذه النفوس تكلفًا وتعسفًا ووضعًا للأشياء فى غير مواضعها ، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ ، وإساءة فى التأدية ، وتحمل لا عبرة به ، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها ، فتصنع ألفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها ، فمن ثم لا تكون الزيادة فى صور الكلام وتقليب ألفاظه وتزداد معانيه إلا تهيئة لهذه الزيادة فى شعور النفس)[1] .

فمن الناس (من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الإشارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر ، وأحوج الناس إلى البلاغة : الواعظ ، ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغى أن يفطر فى اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المباح فى اللفظ قدر الملح فى الطعام ، ثم يجتذبهم إلى العزائم ، ويعرفهم طريق الحق)[2] .

كان إعجاز القرآن « أسلوبًا » إشارة إلى أن الأدب يجب أن يدعو إلى الله .

* * *

لماذا الإيجاز ؟

الكلام الطويل تمجّه الآذان ، وتملّه القلوب .. فليكن موجزاً :

لا تقل كل ما يخطر ببالك . وإذا كنت تقدِّر لرجلك قبل الخطو موضعها .. فقدر لكلمتك قبل النطق .. موقعها !

---

(١) وحى القلم (٣/ ٢١٣) .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزى (١٠٠) طبعة محمد الغزالى .

خطورة الكلمة

ولقد كان هناك من حملة الأقلام .. من استشعر خطورة الكلمة .. منطلقًا من قاعدة تقول : [صرير الأقلام اليوم .. هو نفير الإصلاح غدًا] .

شتم رجل « حكيمًا » فقال له الحكيم : إنما هى صحيفة أعمالك .. فاكتب فيها ما شئت :

لسانك .. قلمك . وريقك .. مدادك ! ألا إن زلّة الرجل : عظم يُجبر . أما زلة اللسان : فهى لا تبقى ولا تذر .

ومن أجل ذلك كانت هناك حساسية شديدة مع الكلمة التى تحمل عبقرية البناء .. والهدم بنفس القوة !

كان العالم : إذا حَدَّث صَدَق وإذا حُدِّث .. صَدَّق .

ذلك بأن الله سبحانه وتعالى : لا ينال خيره إلا برحمته . ولا تنال رحمته إلا بطاعته .. ومن طاعته .. عفّة اللسان .

وأين من هذا المستوى العالى ذلك الرجل الذى خرج من الحرم نظيفًا .. ثم يسب أخاه بظهر الغيب .. لقد طهّر جسمه .. ولكنه لم يطهر لسانه !

قالوا : والكلمات مثل بنى آدم .. تولد وتموت .. وإذا ماتت عادت من حيث أتت .. إلى القواميس .. أو مقابر الكلمات .. « بلاش » مقابر .. إلى ثلاجات اللغة .

وهذه مجموعة من الكلمات العامية التى هى فى الأصل عربية فصيحة .

نقول : شبرق .. وشبرق نفسه .. وشبرق عينيه .. والشبرقة هى قطعة صغيرة من أى شىء .

ويقول الميكانيكية إن السيارة شحطت .. أو بتشحط .. والكلمة فصيحة .. فلان يتشحط يعنى يضطرب أثناء النوم .

ونقول رجل أو سيدة هفك أو هيفك أو هفا .. والهفك أى المغفل أو التافه.

ونقول : هكع .. أو مهكعة .. أى بطىء الحركة أو عاجز عن الحركة ..

نقول فلان هيس (هيص) أو أنه هاس .. يعنى أنه يمشى على كيفه .. على هواه ..

ونقول إن الخادمة تمرث الملابس .. وهى من كلمة (تمرز) أو (يمرن) ومعناه ينقع الملابس فى الماء .. ونقول (يمرط) يمرط شعر رأسه أى يتساقط .

وفلان (يتمرع) علينا .. والأصل هو (أمرعت) الأرض أى ظهرت فيها الأعشاب واخضرت ودبت فيها الحياة .

ونقول يمخخ : أى يستخرج المخ من العظام . أى يفكر حتى يستخرج المعنى.. أى يفكر ..

ونقول : مايص .. ومايصة . والأصل هو كلمة ماسى يميس - أى يميل يتمايل ويتثنى ويتبختر . وهى مائسة ومياسة وميسون أيضًا .. وكلمة (مومس) من هذه الكلمة بعد تبديل فى مواقع الحروف ..

ونقول : وبش .. وأوباش .. والوبش هو البياض الموجود فى الأظافر .. ونقول : أوباش .. أشياء متفرقة .

وفى حديث للرسول عليه الصلاة والسلام : « **إن قريش قد أوبشت لقتالنا** » .. أى جمعت أناسا أشكالاً وألوانًا .

ونقول : لابد أن (يصطفلوا) مع بعض .. وإذا لم نفلح فى إقناع أحد .. أن نقول : أنتم أحرار .. اصطفلوا .. أى اتفقوا . والأصل هو استفروا .. من الفعل : سفر فهو سافر وسفير .. واستفروا أى اختار لهم سفيراً يصلح بينهم وفى حديث لعلى بن أبى طالب وعثمان رضي الله عنهما : « **إن القوم قد استفرونى إليك** » - أى جعلونى سفيراً لأصلح بينكم .

قال المتنبى فى « ابن العميد » :

عـــربىّ لسانــــه فلسفـــىّ رأيــه .. فارسية أعيــاده

خلق الله أفصح الناس طرا فى بــلاد : أعرابه أكـراده

وقال « البورينى » العربى : إنه عشق « الفارسية » حتى قال :

تعلمت لفظ الأعجمـى وإننــــى من العرب الغربـاء لا أتكتــم

وما كان قصدى غير صون حديثكم إذا صرت من شوقـى به أترنــم

فإن كنــت بين المعجمين فمعـــرب وإن كنت بين المعربيــن فمعجم

فأغدوا بأشواقى إليكــم مترجمــًا وسّركمو فى خاطرى ليس يعلم

● ● ●

فى مجال التطبيق

نضرب هنا بعض الأمثلة العملية للخطبة كما ينبغى أن تكون :

قال ﷺ : « **إذا صلى أحدكم فإنه يناجى ربه ، فلا يبصق تجاه القبلة ، ولا عن يمينه ، وإنما عن يساره ، وتحت قدمه** » .

مقدمة :

١ ـ يأخذ الإسلام أتباعه بمجموعة من المبادئ الاجتماعية .. التى يتحقق بها الترابط بين أفراد المجتمع حتى يكون كالبنيان المرصوص .. يشد بعضه بعضا ، ومن هذه المبادئ مبدأ .. النظافة ..

٢ ـ وفى التمكين لهذه القيمة العظيمة ينهى الحديث الشريف عن « البصاق » لأنه شكلاً ، وموضوعًا مرفوض .

أما شكلا : فهو حركة منفرة .

وأما موضوعًا : فهو من أسباب انتقال العدوى .

٣ ـ وإذا حدث ذلك فى دنيا الناس .. فلأن يكون مع الله سبحانه أولى .

٤ ـ لماذا ؟

أ ـ لأنك فى بيته ..

ب ـ ثم إنك تناجيه .. فأنت قريب منه عز وجل أو هو تعالى قريب منك .

٥ ـ وإذا قيل : رحم الله والدا أعان ولده على بره .. فإنا نقول هنا : ورحم الله داعية أعان المدعو على الطاعة ..

فهو ﷺ يعين المخاطب على هذا بإشعاره حجم الخطأ . على نحو يشجع على الطاعة بقدر ما يعينه على التخلص من هذه العادة الضارة .. والتى من شأن الذوق السليم أن ينفر منها ..

والحديث من ناحية أخرى قاعدة من قواعد الصحة التى تقوى بها الأجسام.. لتتمكن من تحقيق المهام العظام .

شن الواعظ هجوما كاسحا على المنافقين ، وقلت له : من الأسهل والأنفع أن تبدأ بآيات سورة البقرة .

ذلك بأن فى المستمعين من اكتوى بنارهم .. ومن ثم فأنت بالهجوم لا تضيف إليه جديداً .. وإنما الجديد أن تنصح المخاطب .. بمقابلتهم بالمتقين .. الذى يظهرون فى صورة جميلة .. تقابل صورة المنافقين القبيحة .. وإذا لم تتسع الدنيا للنيل منهم فالجزاء هناك فى الآخرة .. ثم ..

إن المؤمن واضح .. وله لسان واحد .. ووجه واحد .. فهو مع الوضوح مطمئن ..

أما المنافق فهو بتقلبه معذب فى الدنيا بهذا التمزق .. قبل أن يذيقه الله وبال أمره فى الآخرة .. ثم هو : باهت .. لا لون له .. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .. وإذا حقق المنافق نجاحًا فى الدنيا .. فهو النجاح الموقوت والمتبوع بشقوة الأبد ..

والتحذير من النفاق نهاية المطاف : لأنه مرض خطير قد لا يمسه صاحبه .. ومن أجل ذلك كان عمر رضي الله عنه يسأل « حذيفة » رضي الله عنه عما إذا كان منهم ؟!!

عمر الفاروق رضي الله عنه .. على جلالة قدره .. يخاف أن يكون منهم .. فكيف بنا نحن الآن ؟!

نقل الخطيب قول القائل : إن للجماد حسا وشعوراً ..

ثم استشهد بقوله عز وجل عن الأرض : ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج: ٥] .

والأقرب إلى الصواب أن يستشهد بما يلى :

١ - ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] .

٢ ـ قوله ﷺ : « **أحد جبل يحبنا ونحبه ...** » .

نحبه : نعم . . ولكن العجيب أنه يحبنا !!

ثم إن الحصى : يسبح . . بل كل شىء يسبح . .

﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** ﴾ [سبأ : ١٠] .

وحنين الجذع إليه ﷺ .

كان حديث مقدمة « البرنامج » عن « اللؤلؤ » : والذى قسّمته إلى :

١ ـ لؤلؤ حرّ : يكون داخل المحارة غير ملتصق بها . . فهو حر فى حركته داخلها .

٢ ـ ثم ملتصق بالجدار يحتاج إخراجه إلى الحيلة .

٣ ـ ثم مجهول : مغلف بقشرة . . وعند نزع القشرة إما أن يكون لؤلؤا خالصًا . . وإما أن يكون رملاً .

ومهما يكن من أمر . . فلابد من كسر المحارة . . لاستخراج ما فى جوفها .

وهكذا الناس : فيهم الحر ، وفيهم العبد ، وفيهم المنافق .

ولابد فى التعامل معهم من « البلاء » للكشف فى النهاية : أنهم كهذا اللؤلؤ أنواع : أفضلهم الحر . . الواضح . . الصريح .

وأخطرهم : منافق عليم اللسان . . ولا ندرى ما وراء هذا اللسان .

إن الداعية فى حاجة إلى الأسلوب الذى يشجع الناس على متابعته والعمل بما يقول .

إنه صاحب [رسالة الحق الخالص] وبين الحق وفطرة الإنسان نسب فكلاهما من روح الله فإذا أثرت حماسة قلب المرء إلى حقائق هذه الرسالة رأيت فطرته

تسرع إليها إسراع الأليف إلى أليفه فى غير إنكار ولا تردد وتقبل عليها فى معرفة وثقة ويقين بل فى لذة وشوق وحنين . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة:٨٣] ذلك بأن الحق مسطور بقلم الله فى كل فطرة والفطرة السافرة التى لارين عليها إذا سمعت الحق يتلى فى أى وجه أحست أنه صدى أحاديثها وصورة ما هو مكتوب فى أطوائها : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٩] .

فإذا رأيت نفسك يا أخى راكد العواطف منطفئ الحماسة لرسالتك أو إذا وجدت من نفسك أنك تقبل علينا لتكون خطيبًا يعجب الناس ببلاغتك فاعلم أنك على الحالين فى حاجة إلى فهم جديد لدينك هو الفهم العاطفى والتصديق القلبى هو الإيمان القوى الذى يشغل ذلك ذهنك بدعوتك فى كل لحظة .

فتذكرها فى نومك ويقظتك وعلى طعامك وبين أهلك وفى حلك وسفرك وفى كل مجالسك إذا قصدت إنسانًا فللدعوة وإذا سالمته أو عاديته فلها وإذا فرحت أو حزنت فمن أجلها وبالجملة تكون هى المسألة الأولى الحاضرة لديك فى كل وقت من أوقات حياتك . .

هى صلب الحياة ولبها وصميمها وأمور عيشك على هامشها وأطرافها ولا تظن هذا كثيراً عليك فأنت داعية ولست مدعوا وشتان بين حال هذا وذاك .

أقبل على دعوتك يا أخى هذا الإقبال واصطنع لها هذا الاهتمام وتكلف فى صدق أن تكون لها واغمر نفسك فى محيطها وأكثر الاتصال بمرشدها وقادتها وأنصارها فإنك لا تلبث أن تكون كذلك إن شاء الله كالسيف إذا شحذه صاحبه زايله صدؤه وصار مرهفًا بتاراً [١] .

---

(١) تذكرة الدعاة البهى الخولى ص٣٠.

أما بعد : فإن مهمة الخطيب شاقة .. شاقة .. بمعنى أنه مطلوب منه أن يبصر الناس بأصول الدين ..

وفاقد الشيء لا يعطيه : فإذا كان هو لا يعرف أصول الدين ولا التوحيد الصحيح إذا هو ضال .. يدعو إلى الضلال ..

المطلوب من الخطيب أن يعرف الأصول .. الأساسية فى الدين حتى إذا ما جاءت دعوة التجديد عرف كيف يبتعد عن المكرور من الكلام ..

ويأتى الأشياء توافق العصر والمصر الذى يتحدث فيه .. مع موافقة الثوابت الرئيسية للإسلام فلقد زلزلت الأرض زلزالها ..

ورجت رجا فمن الذى رجها ؟!

هل تستطيع قوة فى الأرض بل فى الدنيا كلها أن تحركها ؟

كلا إذا الله هو حقيقة الحقائق ، وهو المعبود بحق ، وهو غاية المطلوب سبحانه وتعالى ..

فهل تعرفوه أيها المسلمون ؟ وهل لا تخافون إلا منه ولا تخشون إلا هو ؟

• • •

الخطيب المثالى : كأنك تراه .. وتسمعه

مواقف الرجال مدرسة للأجيال :

يقولون : إن تاريخ الرجال مدرسة للأجيال . وللناس فى قراءة التاريخ مذاهب : فمنهم من يدرس التاريخ كحوادث : يسردها سردًا .. ومنهم الذين يعرضون سيرة الرموز من سلفنا .. استنباطًا للعبرة .. التى نحدد بها ما يلى من حياتنا .

وخذ مثالاً على ذلك : روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ : « **إن أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد ، وأول من يعطى كتابه بشماله : أخوه سلمان بن عبد الأسد** » [1] .

وإلى هنا انتهى الخبر . كحادث فذّ يروى ..

أما فقه ذلك الخبر فهو : أن البيئة وإن كان لها تأثير ما .. فإن الرجل هو الذى يرفض أن يستجيب لها لتشكله كما تشاء .. وإنما يمكن أن يفرض عليها إرادته ولا يكون رد فعل لما راج فيها من عادات وتقاليد .

وهذان أخوان : أبو سلمة .. وأخوه سليمان .. اختصموا فى ربهم .

لقد عاشا معا فى بيت وثنى واحد .. وفى بيئة وثنية واحدة .. ولكن سلمان .. ظل كافرًا .. أما أخوه أبو سلمة .. فقد تمرد على التقاليد البالية .. حتى صار أول من يأخذ كتابه بيمينه .

وبهذا المنهج نحاول اليوم سبْر سيرة عمر رضي الله عنه فى محاولات للكشف عن جوانب العظمة فى هذه السيرة العطرة .. نقدمها هدية لبعض شبابنا ..

شبابنا المتحمسين المنبهرين بهذه السيرة العظيمة انبهارًا أنساهم أن يخرجوا من جاذبيته ليسألوا أنفسهم ماذا علينا أن نفعل اليوم لنكون مثل هذه القدوة الحسنة .

---

(١) راجع الإصابة (٩٥) .

نفعل مثلما فعلوا . . ثم لا تكون كهذا الذى قال :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت . . وإن ترشد غزية أرشد

وإنما لتوطين النفس على عمل الخير :

نبنى . . كما كانت أوائلنا تبنى . . ونفعل مثلما فعلوا ! وفوق ما فعلوا!

وخذ من سيرة الفاروق هذا الموقف : الواعظ .. يعظ نفسه ! !

يكفى أن يخلو الواعظ بنفسه لينهاها عن غيها . .

ولكن « عمر » رضي الله عنه يأبى إلا أن يكون ذلك علانية . . ليلقن الرعية درسًا بليغًا فى إصلاح النفس .

صعد المنبر يومًا . . ثم حمد الله . وأثنى عليه ثم خطب فقال : أيها الناس . . إنى داع فأمّنوا . .

اللهم إنى غليظ . . فلينى لأهل طاعتك . . بموافقة الحق . . ابتغاء وجهك والدار الآخرة .

وارزقنى الشهادة . والغلظة على أعدائك . . وأهل الدعارة والنفاق . . من غير ظلم منى لهم . . ولا اعتداء عليهم .

اللهم ارزقنى خفض الجناح . . ولين الجانب للمؤمنين .

اللهم إنى شحيح . . فسخّنى فى نوائب المعروف . قصدًا . . من غير سرف ولا تبذير . ولا رياء ولا سمعة واجعلنى أبتغى وجهك والدار الآخرة .

يطالعك من الموقف منظومة فريدة من القيم :

أ ـ قيمة الاعتراف بالعيب . . سبيلا إلى التخلص منه . . وليس هو « جلد الذات » على ما اقترفت من لذاذات .

ب ـ الإخلاص فى العمل .

جـ ـ الإنصاف : وهى قيم إيجابية تعنى : الولاء للحق .. وإطراح حظوظ النفس على ما قيل : إنارة العقل مكسوف بطوع هوى .. وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرًا .

أما الاعتراف بالعيب .. فواضح : فهو يعترف .. وعلى الملأ .. بأنه شديد على الرعية .. غليظ فى معاملتهم .. يعترف بهذا .. طالبًا اللين .. ابتغاء وجه الله والدار الآخرة .. وهذا هو الإخلاص الذى كان من صعوبته أنه يطلب معونة ربه سبحانه وتعالى فى تحصيله .. وذلك قوله : (واجعلنى أبتغى وجهك والدار الآخرة) .

ثم هو ينصف الرعية من نفسه حتى الظالمين منهم.. وذلك قوله : (وارزقنى الغلظة على أعدائك من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم ..) .

وهو ينطلق فى عدله .. بل فى إنصافه من القاعدة التى تقول :

من استعمل الظلم .. استعمل الله معه العدل . ومن استعمل العدل .. استعمل الله معه الفضل .

إنه الإنصاف الذى يعنى إقامة محكمة داخل النفس تحاكم أولا بأول .. ولقد كان « كسرى » يقيم عن يمينه رجلا ..وعن شماله رجلا ليذكراه كلما أخطأ بالكف عن الظلم لأنه مخلوق لا خالق ..

ولكن الفاروق رضي الله عنه .. يقيم الرقيب فى كيانه هو .. لا ليكون معه فقط فى مجلس الحكم .. ولكن يسير معه أنى سار ؟!

فى مجال التطبيق : وهكذا أعلنها الفاروق مدوية من فوق المنبر ..

ولكن .. ماذا عن الواقع : هل صارت هذه القيم واقعا عمليا ؟ أجل : لقد كان على ما قيل : ولست بذى وجهين فيمن عرفته ـ ولا البخل فاعلم من سمائى ولا أرضى !

حكى « إبراهيم النخعى » : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى الرجال أن يطوفوا مع النساء . ولكنه رأى رجلا يطوف مع النساء . . فضربه بالدرة . .

وعندئذ قال الرجل : والله . . إن كنت أحسنتُ . . لقد ظلمتنى وإن كنت أسأت . . فما علمتنى !!

فقال له عمر رضي الله عنه : أما شهدت عزمتى ؟؟ يعنى : أما علمت بنهيى عن ذلك ؟

فقال الرجل : ما شهدتُ لك عزمة . .

وعندئذ . . ألقى إليه عمر بالدرّة وقال له : اقتصّ . .

فقال الرجل : لا أقتص اليوم .

فقال له الفاروق : إذن . . فاعف عنى . . فقال الرجل : لا أعفو !!

ثم افترقا على ذلك .

ثم لقى الرجل عمر فى الغد . . وقد تغير لون عمر . . فقال الرجل له : كأنى أرى ما كان منى قد أسرع فيك . . فقال عمر : أجل !

قال الرجل : فاشهد أنى قد عفوت عنك !!

وهكذا ترى قيمة الإنصاف واقعا ملموسا . . حين سمحت له نفسه وهو الخليفة المطاع . . والذى كان يخاف منه الشيطان . . سمحت له أن يعرض الدرة على المظلوم ليقتص منه . . وهو الرجل الأول فى الدولة .

هذه القيمة التى كانت خيطا فى نسيج حياته كلها .

وتأمل قوله لمن اقترح عليه استخلاف ولده . . عبد الله . . قال : كيف أستخلف رجلا لم يعرف أن يطلق امرأته ؟!!

ويتعبيرنا العصرى . . كأنما يقول : كيف أولّى . . من رسب فى مادة «الفقه»

أو مادة الشريعة : كيف يؤتمن على حياة الناس من فشل فى إدارة أسرته . . ولم يكن على علم بأحكام شريعته !

إنه كما قيل بحق : ملك . . تغار النيّران إذا بدا . . أسمعت أن النيران تغار؟!

الواقعية :

ثم لا تنس كيف كان الفاروق هنا يمثل واقعية المنهج الإسلامى : فعلى الرغم من أن المجتمع كان من الطهر فى قمته . . ولكنه مع ذلك يحتاط . . حتى لا يكون اختلاط . . تقديرا منه لغريزة عمياء لا ترى . صماء لا تسمع ، وانطلاقا من قوله عز وجل : ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب : ٣٢].

وهو الذى كان يؤذن فى الحجيج فور الفراغ من أداء المناسك : يؤذن بالعود إلى الوطن بعد هذا الاغتراب قائلاً :

يا أهل اليمن : يمنكم . يا أهل الشام : شامكم . يا أهل العراق : عراقكم.

وهكذا ينزل من فوق عرش السلطان . . ثم يضع نفسه تحت رحمة واحد من رعيته ليبيع فيه ويشترى . . ابتغاء وجه الله عز وجل . .

ولقد كان فى وقت ما مشرفا على القتال الذى يدور فى جبهات ثلاث : فى الشام . وفى مصر . . وفى العراق . . ثم لم يمنعه ذلك من تحسس آلام الأمة هناك فى الكفور والنجوع .

لقد سمع أنين الأسرة الجائعة يوما . . وكان يكفيه أن يرسل واحدا من أعوانه لينوب عنه فى إسعادها .

ولكنه صمم على « إدخال» السرور بنفسه إلى البيت . . فحمل الدقيق والسمن . . على ظهره . . ولم يكتف بهذا . . بل ظل فى البيت حتى بدأ الصغار يضحكون . . وعندئذ انتهت مهمته فخرج . .

هذه المهمة التى لم تكن فقط حفنة من الدقيق يسد بها الجوعة .

وإنما هى العاطفة المشبوبة يندى بها القلب : إن الأطفال فى حاجة فعلا إلى دقيق يغذى جسومهم . .

ولكنهم قبل ذلك فى حاجة إلى السرور ينمى أنفسهم . .

وإلا . . فلو لم يأخذوا حظهم من هذا السرور لنمت فيهم أشواك الأنانية . . فى مجتمع لم يمنحهم من عطفه ما به تطمئن قلوبهم . .

مؤكدا من مبادئ التربية ضرورة إشباع حاجة الأطفال إلى الأمن النفسى من حيث لا يكفى الأمن الغذائى وحده . . ومن أجل ذلك لم يتركهم حتى ضحكوا .

● ● ●

أهمية اللين

وعليك باستخدام المداراة والملاينة فى القول . . حتى تهدأ النفوس ثم بعد ذلك تدعوهم إلى حكم الشرع فى الزنا . . وأسبابه . . ونتائجه فى المجتمع أكثر من عشرة آلاف قضية أمام المحاكم يطلبون فيها إثبات النسب ، وهذا يعنى أن المجتمع ينذر بالخطر بسبب العلاقة الآثمة المحرمة .

ويقول المرحوم الشيخ محمد الغزالى : بين الخطبة والأحداث العابرة ، والملابسات المحيطة والجماهير السامعة ، علاقة لا يمكن تجاهلها ، ومما يزرى بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون فى واد والناس فى واد والزمان والمكان فى واد آخر ولأمر ما نزل القرآن منجمًا عن ثلاث وعشرين سنة فقد تجاوب مع الأحداث وأصاب مواقع التوجيه إصابة رائعة .

ولما كان القرآن شفاء للعلل الاجتماعية الشائعة ، فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذى يواجهه ، وأن يتعرف على حقيقته بدقة ، فإذا عرفهم واستبان

أعراضه وأخطاره رجع إلى الكتاب والسنة فنقل الدواء إلى موضع المرض وذلك يحتاج إلى بصيرة وحذق ، فإن الواعظ القاصر قد يجيء بدواء غير مناسب فلا يوفق فى علاج ، وربما أخطأ ابتداء فى تحديد العلة فجاءت خطبته لغوا وإن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة] (١) .

وفى هذا الصدد يقول الشيخ محمد رشيد رضا :

العلم بحالة من توجه إليهم الدعوة فى شئونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم ، علم تقويم البلدان ليعد الدعاة لكل بلاد منها عدتها إذا أرادوا السفر إليها ، العلم بلغات الأمم التى تراد دعوتها ، العلم بالفنون والعلوم المتداولة فى الأمم التى توجهها إليها الدعوة ولو بقدر ما يفهم به الدعاة ما يورد على الدين من شبهات تلك العلوم .

والجواب عنها بما يليق بمعارف المخاطبين بالدعوة ، معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ليتيسر للدعاة بيان ما فيها من الباطل فإن من لم يتبين له بطلان ما هو عليه لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره ، وإن دعاه إليه] (٢) .

● ● ●

أهمية القدوة

يقول عز وجل : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ، ١٧٦] .

فهذا مثل عالم السوء الذى يعمل بخلاف علمه ، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه ، وذلك من وجوه :

---

(١) محمد الغزالى : مائة سؤال عن الإسلام ص٢٥٦ .

(٢) تفسير المنار ج٤ ص٣٧ .

أحدها : أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدا لا جهلا .

وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدا ، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ، ولو بقى معه منها شيء لم ينسلخ منها .

وثالثها : أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قال : ﴿**فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ**﴾ ولم يقل تبعه .

فإن فى معنى أتبعه أدركه ولحقه ، وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى .

ورابعها : أنه غوى بعد الرشد . والغى : الضلال فى العلم والقصد . وهو أخص بفساد القصد والعمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر .

وخامسها : أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالا عليه . فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه .

وسادسها : أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى .

وسابعها : أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس ، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض ، وميل بكليته إلى ما هناك ، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل : لزم الميل إلى الأرض .

ومن هنا يقال : أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة فيه .

قال مالك بن نويرة : بأبناء حى من قبائل مالك ، وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا .

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض ؛ لأن الدنيا هى الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع .

وثامنها : أنه رغب عن هداه واتبع هواه ، فجعل هواه إماما له يقتدى به

ويتبعه .

وتاسعها :أن شبهه بالكلب الذى هو أخس الحيوانات همة ، وأسقطها نفسا وأبخلها ولأشدها كلبا . ولهذا سمى كلبا .

وعاشرها :أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب فى حالتى تركه والحمل عليه بالطرد وهكذا .

هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا ، عن وعظ وزجر فهو كذلك ، فاللهث لا يفارقه فى كل حال كلهث الكلب .

● ● ●

الفصل الرابع

من عناصر القوة فى شخصية الداعية

يقول الله عز وجل : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

الأمر بالدعوة : تكليف :

الأمر بها بالخطاب : تشريف .. ﴿ رَبِّكَ ﴾ .

والتكليف يعنى : الثقة بالداعية . وما يترتب عليها من عمل دءوب يثبت أنه أهل لهذه الثقة ..

والتشريف يعنى : الاعتزاز بالمهمة .. انطلاقا من الإحساس بهذا الشرف المنيف .

وإذ يدعو بعض الناس إلى فضيلة الإيثار أو الصبر مثلا .. فإن الداعية الحق يدعو إليهما مستحضراً عظمة الآمر بهما سبحانه . والذى سوف يسأله غدا عن فعله وعن قوله .

ويترتب على هذا الانطلاق فى طريق الدعوة بأخلاقه كلها على ما يقول الرافعى : الرجل الدينى : لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت .

ولا يجىء ، كل يوم من حوادث اليوم فهو بأخلاقه كلها : فلا يكون مرة ببعضها . ومرة ببعضها .. ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكمة والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقت أفعاله لقالت له بلسانه : هم يعطوننى الدراهم والدنانير يا ولدى .. فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟!

إن الدينار يا ولدى إذا كان صحيحًا فى أحد وجهيه دون الآخر أو فى بعضه

دون بعضه .. فهو زائف كله . ا. هـ .

والأحرى بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء أن ينطقوا بكلمات النبوة ويقوموا بحجتها ، ويأخذوا من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور : تحويه فى نفسها وتلقيه على غيرها ، فهى أداة لإظهاره وإظهار جماله معًا .

الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف ؟ إن أولئك فى أخلاقهم كاللوح من البلور : يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير! .

كما يقول الرافعى أيضًا : إنه يعتمد على الله تعالى وحده .. وهو الحى الذى لا يموت .. أما غيره .. فإنه معتمد على ميت : وإذا اعتززت بميت ... فإن عزك ميت!!

وذات يوم دخل الرجل الصالح دار صديقه فوجده يبكى .. فلما سأله عن سر بكائه ، قال له : أبكى على شيخى الذى مات .. فكان جواب الرجل الصالح : ولماذا تعتمد على ميِّت ؟!

يروى الشيخ على الطنطاوى من ذكرياته . قال : جاء شوقى أمير الشعراء دمشق مرة وزرته مع أخوة لى ، فوجدته مع مجموعة من الشعراء الكبار . وأمامهم مائدة عليها أوانى الخمر .

وكنت أحمل عصا : فمددتها . ومشَّيتها على وجه المائدة . فحذفت كل ما كان عليها . فكسرته !

وتستطيعون أن تتخيلوا ماذا صار : اختلطت بهم كالاختلاف الزيت بالماء .. لا كاختلاط الماء بالخل .

وإذا كان لنا تحفظ على هذا الاندفاع غير المحسوب .. فإن المشهد يظل دليلا على ما يكنه الداعية من قوة مشتقة من الإيمان .. تواجه المنكر بمثل هذا

التحدى . .

ومن المفيد هنا أن نذكر موقفًا آخر للرجل : موقفا لا تنقصه القوة . . ولكنه تم فى صحبة الحكمة التى تقتلع المنكر من جذوره . . وبلا انفعال .

قال رحمه الله : كنت يومًا مع مجموعة من الأصدقاء : فجاء رجل لا يعرفه منا أحد . فاندس بيننا . وحشر نفسه فينا ، وجعل يتكلم كلامًا عجيبًا . أدركنا معه أنه يدعو إلى نحلة من النحل الباطلة ، فتناوشوه بالرد القاسى . والسخرية الموجعة ، فأشرت إليهم إشارة لم يدركها : أن دعوه لى ، فكفوا عنه .

وجعلت أكلمه . وأدور معه . وألفّ به . حتى وصلت إلى إفهامه أنى بدأت أقتنع بما يقول .

ولكن . مثل هذه الدعوة لابد فيها من حجة أبلغ من الكلام ، فاستبشر وقال: ما هى ؟

فحركت الإبهام على السبابة ، وتلك إشارة إلى النقود ، قال : حاضر .

وأخرج ليرتين ذهبيتين يوم كانت الليرة الذهبية شيئًا عظيمًا . .

مد يده بالليرتين . فأخذتهما أمام الحاضرين جميعًا ، وانصرف الرجل . بعد أن عرفنا اسمه .

فما كاد يبتعد ، حتى انفجرت الصدور بالضحك ! وأقبلوا علىّ مازحين فمن قائل : شاركنا يا أخى! وقائل : اعمل بهما وليمة أو نزهة . قلت : سترون ما أنا صانع .

وذهبت فكتبت رسالة تكلمت فيها عن المذاهب الإلحادية ، وجعلت عنوانها سيف الإسلام وكتبت على غلافها : طبعت بنفقة فلان باسم الرجل الذى دفع الليرتين . وبلغنى أنه كاد يجن ، ولم يستطع أن ينكر أمرًا يشهد عليه سبعة من أدباء البلد . وقد بلغنى أن جماعته طردته بعد أن عاقبته .

وما دام الداعية يدعو إلى سبيل ربه .. فليس لإنسان عنده اعتبار إلا بمقدار خشيته لله تعالى وتقواه : والكل فى نظره سواء ..

وإذا فرق الناس اليوم بين البشر بمقدار ما بينهم من فروق الدنيا .. فإن الداعية الحق ـ وانطلاقا من تصوره لعظمة الله عز وجل يخاطب الكل بلسان واحد وعلى أساس واحد :

وكان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقى الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد لا يخاطب السلطان إلا بقوله : (يا إنسان) ! فما يخشاه ولا يتعبد له ولا ينحله ألقاب الجبروت والعظمة ولا يزينه بالنفاق ولا يداجيه كما يصنع غيره من العلماء ، وكان هذا عجيبًا ، غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان) ، فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسن ما فى هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية !

ثم كان لا يعظم فى الخطاب إلا أئمة الفقهاء فإذا خاطب منهم أحدًا قال له : (يا فقيه) ، على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرفعة ، ثم يخص علاء الدين بن الباجى وحده بقوله : (يا إمام) إذ كان آية من آيات الله فى صناعة الحجة ، لا يكاد يقطعه أحد فى المناظرة والمباحثة ، فهو كالبرهان : إجلاله إجلال الحق ، لأن فيه المعنى وتثبيت المعنى . ا . هـ .

ومعنى ذلك : أن الداعية الحق يستمد من إحساسه بعظمة الله عز وجل قوة تحمله على أن يجرد المخاطب من كل شارات الدنيا .. ليرى لدى كل من يخاطبهم الحقيقة التى يشتركون فيها وهى : الإنسانية .

ومن ثم لا يرفع السلطان فوق ما ينبغى .. ولا يهبط بالفقير أقل مما ينبغى..

ومن أجل ذلك يفرضون هيبتهم .. وتصير كلمتهم قانونا واجب التنفيذ ..

قال الإمام : وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام

فلقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئًا تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالى هلك فيه أوعاش ، إذ هو فى الدم كالقلب : لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره ، ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أوهام القوة لا تغلب ، وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التى تخيف كل شىء ولا تخاف ، وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس ، حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى فى الملك فى ، فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج علىّ لا نتزع منى المملكة .

ويبقى الداعية الضعيف كالبهائم : تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها .. والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله ..

فإذا رأيت لعلماء السوء وقارًا فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو محاسنة فقل إنها النفاق ،أو سكوتا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها !

إن الضعيف .. لا يستطيع أن يقول : لماذا ؟ وكأنه امرأة تولول فى صحراء جرداء على الذى كان .. فإذا نام : استيقظ على حلم بائس يائس ،

وأخيرًا : ربما جاز لنا أن نقول : إن الداعية القوى .. خير من الداعية الضعيف وفى كل خير .

إنها الشجاعة الأدبية : ولأن الداعية يغير ما يشاء الله من عادات المجتمع .. فلابد أن يتسلح بقيمة « الشجاعة الأدبية » يحسم بها مادة النزاع ، ويحق بها الحق. ويبطل الباطل .

يقول العلماء كاشفين عن بعد آخر : يبلغ المسلم فى الشجاعة الأدبية الغاية القصوى .. ذلك أنه يؤمن أن الأمة لو اجتمعت على أن تضره بشىء فلن تضره إلا بشىء قد كتبه الله عليه ، وإن اجتمعت على أن تنفعه بشىء فلن تنفعه إلا بشىء قد كتبه الله له . كما ورد فى حديث رسول الله ﷺ ويؤمن كذلك بقول

الرسول الكريم ﷺ وقد سئل أى الجهاد أفضل ، فقال : « **كلمة حق عند سلطان جائر** »[١] .

وبحسبنا نموذجًا للشخصية الإسلامية شخصية ظهرت قبيل عصر المماليك . وهو عصر يعده الكثير من المؤرخين من عصور التأخر والانحطاط . ومع ذلك نرى فيه الشخصية الإسلامية فى أكمل صورها فى شخصية العز بن عبد السلام .

ففى أيام الدولة الأيوبية « لما والى الملك إسماعيل الإفرنج أيام الحروب الصليبية وسلم لهم صيداً وغيرها من الحصون ، ليخبروه على الملك نجم الدين أيوب ، أنكر عليه عز الدين عبد السلام هذه الفعلة ، فغضب عليه وعزله واعتقله» .

ثم بعث إليه يعده ويمنيه . فقال له رسول السلطان : تعاد إليك مناصبك وزيادة وما عليك إلا أن تنكسر للسلطان .

فما كان جواب الشيخ إلا أن قال : « والله ما أرضاه أن يقبل يدى ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد » [٢] .

ويسجل المؤرخون للشيخ قصة أخرى على شجاعة المسلم الأدبية ، وقف فيها الشيخ منفرداً أمام نائب السلطان وأمرائه ، وكانوا يقتلون النفس ، وهم يلهون ويلعبون .

وقف السلطان العز بن عبد السلام أمام نائب السلطنة ومن حوله يستذلهم ويصفهم فى موضع العبيد ، بل يبيعهم كما يباع العبيد ، وينفق ثمنهم فى مصالح المسلمين .

يقول المؤرخون : « إن الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر ، أسرف فى شراء المماليك من بيت المال ، وأخذ بعد ذلك يعتقهم ، ويجعل منهم أمراء

---

(١) رواه النسائى بإسناد صحيح .

(٢) كتاب أبو حنيفة : للأستاذ الجندى.

يتسلطون على رقاب الناس .

ولم يصح عتقهم عند الشيخ ، فأفتى بأنهم لا يزالون ملكًا لبيت المال وأنهم لابد أن يباعوا ويوضع ثمنهم فى بيت المال ، وكان من بين هؤلاء الأمراء نائب السلطان ، واجتمع الأمراء وطلبوا من الشيخ أن يحدثهم فى هذا الأمر العجيب .

فقال : لا رأى عندى ولا حكم إلا أن نعقد لكم مجلسا ينادى عليكم فيه للبيع ويدخل ثمنكم إلى بيت المال ، ثم يكون عتقكم بطريق شرعى بعد ذلك ورفع الأمراء الأمر إلى السلطان .

فبعث السلطان إلى الشيخ من يطلب إليه أن يرجع عن فتواه ، فلم يرجع . فأنكرعليه السلطان أن يدخل فى هذا الأمر الذى ليس من شأنه .

فغضب الشيخ وأخرج متاعه اليسير ، وسار به يريد أن يعود إلى وطنه بالشام وتسامع الناس أن سلطان العلماء قد غضب على البلد ، وعلى سلطانها .

فغضب الناس لغضب الشيخ ، ولحقوا به ، ولما وصل الأمر للسلطان وعلم بغضب الشعب ، أسرع السلطان فركب بنفسه ؛ وسار حتى لحق بالشيخ ، وأخذ يلاطفه ويترضاه حتى قبل أن يرجع إلى بيته . على شرط أن ينزل الأمراء على رأيه .

فقبل السلطان ، وعقد لهم الشيخ سوقًا ، نودى عليهم فيه للبيع ، واحداً بعد واحد وغالى فى أثمانهم ، وقبضها بنفسه ، وأنفقها فى مصالح المسلمين، وكان يومًا مشهوداً وأمرًا عجبًا .

• • •

ويظل أرباب الأقلام .. أقوى

هزم نابليون ألمانيا .. ولكنه طلب مقابلة شاعرها الكبير « جيته » الذى وصفه قائلا : هذا رجل .

وذلك يعنى أن رب القلم أقوى تأثيرات رب السيف .

قال ابن المقفع : الملوك أحوج إلى الكتَّاب .. من الكتاب إلى الملوك .

وفى ذلك يقول الشاعر :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بها ماء المنيّات

نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ما لا يُنال بحدّ المشرفيات

وتأمل من قوته : قدرة الفنان التى تتضاءل إلى جانب قدرة الداعية ، فالفنان التشكيلى قد رسم مشهداً « لحصان » فتجىء الصورة لقطة واحدة لحصان واقف ..

وأين هو من « امرئ القيس » الشاعر الذى استطاع بكلماته المعبرة أن يرسم هذا الحصان فى لقطات متعددة لَمَّا قال :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وهكذا يظل صاحب الكلمة أقوى :

إذا ظهر .. تراجع كل من حوله .. على ما قيل :

سرينا ونجم قد أضاء .. فمذ بدا محياك .. أخفى ضوؤه كل شارق!

• • •

انتشار الإسلام فى روسيا

سنة ١٣١٣ تولى زعامة القبيلة الذهبية « أوزبك خان » .

أ ـ كان مسلمًا ، متحمسًا الإسلام باقى القبيلة أوّلا .

ب ـ ثم وضع خطة لنشر الإسلام فى روسيا:

جـ ـ ترك المسيحية تنتشر بلا معارضة .

د ـ ثم كتب للمطران بطرس رئيس المسيحيين فى بلاده يؤكد له تقديره للمسيحية ، ثم أظهر تسامحه .

وقد رد عليه البابا يوحنا بخطاب شكر .

وظل الإسلام مقتصراً على المناطق الخاضعة للقبيلة الذهبية فى روسيا .

أما بقية الروس ، فقد بقوا على ديانتهم المسيحية وغيرها ، يؤدون الجزية «لأوزبك خان » ولم يفرض عليهم الإسلام .

ومن أسباب انتشار الإسلام هناك :

كان يجاورُ مغول « الذهبية » فى جنوب روسيا :

وهم طائفة كبيرة من المغول . شعب إسلامى من أصل تركى (البلغار) أسلم أيام الخليفة العباسى : المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠) هـ، إذا أرسل إليهم عدداً من الدعاة .

● ● ●

التنافس من أجل الإسلام

حرص البلغار على تحويل روسيا للإسلام ، وكان ملك البلاد وثنيا (فلاديمر). فتنافس الجميع على اجتذابه :

المسلمون .   النصارى .   اليهود .

وقد أخفق اليهود فى الكتاب (تذكر عدم انسجامهم مع المصريين فى عهد فرعون وبقى التنافس بين المسلمين والنصارى .

كان الرجل يكـره الختان ، ويكره تحريـم الخمر بل الروس جميعًا مولعون بها .

جمهور المسيحية :

أرسلوا إليه داعية لِسنا خطيبًا ووعدّ بملك السماء وأثر فى الملك فعلاً (قرارٍ الملك) . كان يميل للإسلام ، لكنه قرر إرسال وفدين لبلاد المسلمين والنصارى فمن وجد هناك رخاء اتبع دينه .

وجد الوفد فى البلغار:

فقراً .. موحشة .. كئيبة .. المساجد بسيطة لا زخرف فيها .. لا موسيقى.

لكنهم ذهبوا إلى الألمان.. و القسطنطينية فوجدوا :

الرخاء .. والتزاين .. والمظاهر وخاصة فى كنيسة أبا صوفيا الضخمة ـ نذكر بهرجة وفد نصارى نجران ـ والإعلام المعادى ، إلى جانب أن الرخاء سمح لهم بالاعزاق على الوفد .

مال الرجل للمسيحيين سنة ٩٨٨ م.

النتيجة :

أ ـ انتشرت المسيحية فى روسيا .

ب ـ خضع لهم بلاد .

جـ ـ تعصب القياصرة ..

د ـ اضطهدوا المسلمين فى كل بلد حلوا فيه .

لم يفق مسلمو روسيا إلا سنة ١٩٠٧ عندما أعلن التسامح الدينى .

وقبيل قيام الثورة الشيوعية ١٩١٧ . كان هناك فى روسيا عدد من مسلمى التتار الذين استعين بهم هناك فى الشؤون العسكرية (مهم وشبابنا اليوم) ولكن السلطات الروسية كانت لهم بالمرصاد :

١ ـ ممنوع بناء المساجد .

٢ ـ لم يكن فيهم علماء يفقهونهم ـ فكانت لديهم خرافات .

٣ ـ لم يسمح لهم بالزواج من الروسيات إلا إذا دخلوا المسيحية .

٤ ـ عملوا على تنصيرهم .

٥ ـ بل والتنكيل بهم .

وفى ١٩١٧ الثورة ، ومع ذلك ظل التتار محتفظين بدينهم حتى قامت الثورة فرفضوا التخلى عن إسلامهم فى أوائل أيام لينين فصدر قرار بنقلهم إلى سيبريا وتفريقهم فى مهامهًا حتى انقرضوا .

• • •

تتار القرغيز

ظلوا من دون إخوتهم السابقين ـ مستمسكين بالإسلام حتى جاء عهد كاترين الثانية ، فغلبوهم بالحيلة .

أشاعت روسيا أنهم كانوا وثنيين . ثم تنصروا ثم ارتدوا إلى الإسلام . فلا بد من عودتهم للمسيحية وكتبوا فعلا فى سجلاتها .

ولم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم لجهلهم وفقرهم .

• • •

ثبات القرغيز

وفى « قازان » عاصمة قطرهم أنشأوا مركزًا للدعوة ، وزعوا منشورات .

العالم عندهم كان يسمى « المُلاَّ » وهو فارسى معناه : الشيخ أو الفقيه، وانتشر المليات . . والطلبة يدعون للإسلام رغم الظروف الصعبة ، وبلغ من دخل الإسلامَ من سنة ١٩٠٦حتى ١٩١٠، ثلاثة وخمسين ألف !

الظروف تساعد كان مجتمع القرغيز نظيفًا راقيًا . . أشد تماسكا . . وتسامحًا، مما أمال القلوب إليه ، بخلاف المسيحية حيث كان القساوسة شداد غلاظ ينفرون باستعداء السلطة على الناس .

وهكذا تحول التتار أشد اعداء الإسلام إلى دعاة ـ فلتتعلم!!

مخطط روسيا للقضاء على الإسلام :

١ ـ إحياء النعرات القومية .

٢ ـ فرض العادات الشيوعية وتقاليدها .

٣ ـ تولية الروس المناصب الحساسة .

٤ ـ صهر كل القوميات فى القومية الروسية .

٥ ـ إرغام القوميات على الهجرة .

٦ ـ نشر اللغة الروسية .

نتائجه :

١ ـ زادت نسبة المسلمين ووعيهم وولائهم للإسلام لا لروسيا .

٢ ـ أثار الاضطهاد روح المعارضة .

٣ ـ جمعتهم المصائب .

٤ ـ انتشرت المساجد . . والمدارس خاصة تحفيظ القرآن الكريم .

٥ ـ ما يزالون يخرجون صدقة الفطر وعشر المحصول مع إلغاء ، الحكومة الزكاة ، فشلوا فى أفغانستان .

نعمة الدعوة

كان الداعية الصالح يقول أحيانا : إذا كان هناك من يفتخر بالكلام فليكن فخرك أنت بالصمت . .

والحمد لله : فقد عافانا الله من غرور السلطان ، وثناء الناس ، وكانت معرفتنا بأنفسنا غالبة على جهل الناس بها .

والحمد لله على أننا من أمة فيها حاكم .. لا ظالم : فيها الفقير والغنى . ولكن ليس فيها إذلال . ولا بطر .

قد تلجأ إلى السؤال : لكنها لا تنحط إلى الاحتيال أو الابتذال .

• • •

« خشب » الدعاة يهزم « حديد » الملحدين

لما حاصر الصليبيون « عكا » واكفهر الجو .. ماذا حدث ؟

قام « علىّ النحاس » فصنع ثلاثة أبراج من الخشب .. وكانت هى التحدى الأكبر « لتكنولوجيا » الغرب !

وهكذا قد يغلب الضعف الشريف .. القوة السافلة !

وقد ذكر أن « نابليون » قاهر الأمم كان يخاف من الهرة ؟!!

من أسباب قوة الداعية :

والداعية المسلم : طليق .. واسع .. عالم رحب : يؤمن بموسى وعيسى ونوح عليهم السلام ، مع أنه ليس من أقوامهم .

بل إن إيمانه لا يتم .. إلا إذا آمن بهم .. وبكل رسل الله جميعًا : ما علم منهم . وما لم يعلم .

ومن رحابته : أنه يؤمن بعالم الغيب .. وعالم الشهادة معًا .. فى الوقت الذى لا يؤمن فيه الملحد إلا بعالم الشهادة فقط .

وشعار الداعية هو : وكلما ذكر اسم الله فى بلد عددت أرجاءه من لبّ أوطانى .

فانظر إلى أى حد كان المؤمن متحضراً . . وبخاصة إذا علمت أن ما عرفناه من عالم المادة هو ٣ ٪ فقط ؟!! .

• • •

إيجابية الخطيب

يقول ﷺ : « **لا يكن أحدكم إمعة يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم .. إن أُحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألا تسيئوا معهم** » .

تمهيد :

جاء الوالد من أقصى القرية يسعى . . مبتهجًا فخوراً بولده الذى صار له شباب يأتمرون بأمره . . يعمرون الدار الآن التى ولأول مرة تستقبل هذا العدد من الشباب الذين هم رهن إشارته ؟!

وقلت له : ابنك فعلا آمر . . لكنه بنفس القوة مأمور !! يكتب ما يملى عليه!!

والحديث الشريف يرفض هذه التبعية مفضلا أن تكون تربية الولد استقلالية. فرارا من التبعية التى تجعله نسخة مكررة : يتلاشى مع الأيام إحساسها بذاتها !!

وهذا ما يقرره علماء الاجتماع وهو : « أن الضعيف مأخوذ دائمًا بقوة الغالب القوى . . واتباعه ، ذلك بأن القوة فى ذاتها دعوة إلى اتباع فضائل من يتحلى بها . ولأن ضعفه يحمله على الاقتباس من أسباب القوة عند الغالب » .

« وإن الاحتكاك فى الحروب يجعل الأخلاق تسرى بين الناس . وتعلو الأخلاق القوية على الأخلاق الضعيفة ، ويُفيض الأعلى على الأدنى كشأن طبائع الأشياء : فى الماديات والمعنويات على سواء ».

والمطلوب هو : التربية الاستقلالية . كما قلنا : وإلا . . فإن استسلام الناشئ

يجعله ذلك النبات الذى يكون فى الظل : إنه سوف يذبل ويموت !

كتب أحد الباحثين عند تجربة « غربية » فقال :

البحث عن الذات :

الأمير هارى (١٩ عامًا) حفيد ملكة انجلترا أغنى سيدات العالم وصل إلى استراليا يوم الثلاثاء وبدأ العمل فى اليوم التالى بمزرعة مواشى يمتلكها أصدقاء لأمه وذلك من أجل اكتساب مهارات إضافية بين سنوات الدراسة .. يا سبحان الله أمير والدنيا ملك يديه يرفض الركون إلى ثراء عائلته ويبحث عن ذاته بعيدًا عن الإمارة ، ولا يجد فى العمل فى مزرعة مواشى ما يشينه بل ما يعزز شخصيته ويدفع من احترام الآخرين له .. إنه يستحق بهذا الأسلوب فى التفكير لقب أمير الشباب كلقب صنعه بنفسه ولم يرثه .

ترى كم من شبابنا أمراء الروشنة والتقاليع الغريبة يمكن أن يفكر مجرد تفكير بهذا الأسلوب بل ما هو أكثر من ذلك ترى كم من شباب يستنكف هذا العمل لمجرد أنه حاصل على شهادة جامعية .. كم من عبارات الاستخفاف ستواجهك .. لماذا أصبحنا لا نجد ما نأخذه من الغرب ومن شباب الغرب سوى المظاهر السلبية والسلوكيات الشاذة ونتجاهل أى مظهر إيجابى آخر .

ولماذا نذهب بعيدًا .. بينما مشاهد الكون من حولنا تؤكد هذا المعنى ؟

لقد حاول الرجل أن يريح « دودة القز » فشق لها مخرجًا فكانت النتيجة هى موتها !!

ثم مشهد « الهرة » التى لا تلتهم قطعة اللحم الملقاة إليها لا تلتهمها فور إلقائها.

وإنما تدور حولها .. مزمجرة ! ثم تنقض عليها .. لتوهم نفسها ومَنْ حولها؛ بأنها كالأسد: لا تأكل إلا غلابا، ولا تقبل أن يكون طعامها غنيمة باردة!

* * *

فى نور القرآن الكريم

وقد شدد القرآن الكريم النكير على هذه التبعية القاتلة .. وذلك فى قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

وتأمل من آثار التبعية كيف يدعون إلى اتباع ما أنزل الله تعالى من الهدى .. ولكنهم يرفضون معتذرين بعذر أقبح من الذنب وهو : إن آباءهم كانوا أكبر منهم وأكثر خبرة .. وإذن .. فهم أولى بالاتباع ؟!

وهكذا يعصون الخالق . ويستسلمون للمخلوق !! ولكن الآية الكريمة تفضحهم بهذا المنطق الصارم : تتبعونهم حتى ولو كانوا أغنياء .. ظالمين ؟!

إننا في حاجة إلى مجتمع : يحس فيه الفرد بأنه سيد قراره .. أن يستقل فى التفكير . وفى الرأى ..

وإذن .. فالإسلام بهذا الحديث الشريف .. يفرّ بالمسلم من مواطن التبعية ..

وبخاصة : بعد الحرب : لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب .. الغالب : الذى يدعو بقوته إلى اتِّباعه .. لتتلاشى شخصية التابع فى كيانه ..

والمسلم مطالب بعكس ذلك : ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

وهذا ما حدث بالفعل مع التتار .. الذى غَلبوا أولا .. ثم دخلوا فى دين الله أفواجًا ..

وذلك عندما استشعر المسلمون أنهم .. مع هزيمتهم هم الأقوى بإيمانهم .. فكانَ ما كان .. وتلك ثمرة الإيمان ..

يا أيها الدعاة :

أيهــــا المدلجــون فـــى الأسحـــار أيها الســـائرون صـــوب النهـــار

أنتم القوة التـــى تكنـــس الليـــل وأنتـــــم مـــلامـــح التيـــار

أنتـــم الكـــنز فـــى تـــراب بـــلادى والمصابيـــح فى الدجـــى الغدار

والسيوف التى على الدهـر مازالـــت تخـــط النهـــار تلـــو النهـــار

مشرعـــــات لما تـــــزل وستبقـــــى وحياة الســـيوف فى الإصـــرار

قاطـــرات وكل قطـــرة مســـك مشهـــد فى ملاحـــم الثوار

ما نبت تلكم السيوطـــى المواضـــى لا . . ولا هذه الليوث الضوارى

● ● ● ●

لا تظنـــوا « الله أكبر » قد شاخت وشاخت مواقـف « الأنصـــار »

فاسألوا المشرقـين كيـــف تـــدك البغـــى دكا وتنثنـــى بالغـــار !؟

فاسمعـــوها مـــن كل صوب تدوى وأصيخـــوا لهـــا مـــع الأسحار

هـــى بيـــت القصـــيد قبلا وبعـــداً وهـــى المبتـــدأ وعقبـــى الـــدار

أيهـــا الساجدون فـــى حلك الليـل لعمرى فالليل محـــض انتظـــار

فانظروا الشهب ضاحكات على البعد تقول : الصبـــاح تحـــت إزارى

والبساتيـــن فـــى الربـــا مزهـــرات كلها أوشكـــت علـــى الإثمـــار

والربيع الضحـــوك أقبل يسعـــى بنسيـــم يهب مـــن « ذى قـــار»

وخيول اليرموك تصهل خلف الباب . . « وثابـــة » علـــى الأسوار

فوقهـــا راية الصـــباح وآيـــات تضـــىء الوجود بالأقمـــار

فافتحوها نوافذ الفجـــر إن الريـــح . . . جـــاءت تبوح بالأســـرار

وارفعوها القلوع فى أول الضــوء ... فهدى مواســم الإبحــار
لا تخافــوا فباســم ربى تجــرى هذه الفلــك ، باسمه الجبــار
هــذه أمــة الفــوارس فاقــرأ ما يشــاء الزمــان من أخبــار
تنجب الليث بعده الليث يجـرى فقطــار الليــوث أى قطــار

● ● ● ●

فاقرأوا ذكركــم رخيمًا قويًا فى الضحى والمســاء والأسحار
وتأســوا فإن فيه عظــات واقطفوا منه يانعات الثمــار
واقرأوا كــل قصــة سطرتــها شفرات الأبــوة الأحــرار
واقرأوا واقـرأوا التــراث فليس الهدى أن تمتحوا من الآبار ...
فاقرأوه عقــدا بجيد الليالــى وســوارا بمعصم الأقــدار
واقرأوه برقــًا وقصفــًا ورعدًا وسحابــا يســح بالأمطــار
واقرأوه شكــلاً ومعنــى ووحيــًا وصــلاة للواحــد القهــار
واقرأوها « انفروا خفــافًا وثقالاً » فانفــروا فى الجبال والأغوار
واقرأوهـــا « إن تنصــروا الله ينصركــم » وشدوا على التاتار
فلنعــم الأشجار تزكــو بأرض قدستها غوابــر الأشجــار

● ● ●

من فصاحة الأقوال .. إلى فصاحة الأفعال ..

مع تقدير الإسلام للداعية الفصيح .. المؤثر بفصاحة فى جمهوره.. إلا أن الداعية يجب أن يكون .. على وعى بأهمية الأفعال .. إلى جانب فصاحة الأقوال.

ذلك بأن السؤال فى يوم الحساب لن يكون عن « المعرب » وإنما السؤال عن المذنب .. وهو ما يجب أن نتوقاه .. مدركين أن الفصاحة لو كانت هى الفيصل لكان هارون أولى بالنبوة من موسى عليه السلام .. على ما يقول عز وجل : ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] .

ولكن تقدير الرجال راجع بالدرجة الأولى إلى فضيلة القلب .. لا إلى فضيلة اللسان .. إلى الإيمان .

أما بعد :

فلكى ننصف الداعية .. فلابد أن نذكر المدعوين بمسئوليتهم معه ..

إن الجسم قد يعتل يومًا .. فيختل الجهاز الهضمى .. ومن أجل ذلك لا ينتفع الإنسان بطعام .

والعيب فى الجسم .. لا فى الطعام .. وبنفس القوة نقول :

بعض الناس يُعرضون .. فلا يستمعون إلى النصّيحة .. لأن قلوبهم فى أكنة من شهواتهم ..

وإذن .. فالعيب فيهم .. وليس العيب فى النصيحة ولا فى الناصح الأمين.

• • •

من مشاهد الاعتزاز بالدعوة

عاد المرحوم « الشيخ مصطفى عبد الرازق » من أوروبا بالباخرة .

وفى ليلة دخوله « الإسكندرية » رجع إلى زيه الأزهرى ..

وقال : « أيتها العمامة »: عزيزة أنت رغم كل شىء !!

• • •

الداعية بين الصعب والأصعب

خطورة المنكر :

إذا أمرت بالمعروف . . فإنك تدعو إلى إنشاء عادة جديدة . .

أما نهيك عن المنكر . . فدعوة إلى الإقلاع عن عادة قديمة . .

وذلك سر صعوبته : فإنشاء عادة سهل ميسور . . لكن الصعب أن تدعو إلى الانسلاخ من عادة قديمة ، مرد عليها المدعو .

ولذلك كان النهى فى حاجة إلى نسبة من الفقه والإرادة والحكمة أكبر . .

وقد قال المجربون : إن رذيلة واحدة تجعل الإنسان رذيلا لكن عشرات الفضائل لن تجعله فاضلاً ، ومن أجل ذلك قالوا : إن أخطر ما يواجه الداعية هو العادة .

● ● ●

أولى العقبات ، أمام الداعية

لأن العادة طبيعة ثانية كما يقرر علماء والنفس . . فإن الإنسان متشبث بما اعتاد عليه : لقد عرفه . . بل وألفه . . فهو منه فى أمان . .

ولأنه يفاجأ بالجديد . . الذى يخرجه من حصن الأمان . . فإنه يهب لمقاومته. تحرّضه على رفضه تلك القاعدة التى تقول: « الناس أعداء ما جهلوا » .

ومن أجل ذلك . . كان نصيب الداعية من هذه المقاومة كبيراً ؛ لأنه يحاول إخراجهم من عاداتهم أن ينسلخوا منها : من عالمهم الخاص الذى ألفوه ، إلى عالم هو أليق بكرامة الإنسان .

● ● ●

مع الإمام الغزالى

وهذا ما تكفل به الإمام الغزالى [١] والذى قتل الموضوع بحثا فتحدث بالتفصيل عن المنكر :

أ ـ من حيث زاوية النظر : فالمنكر : إما عام يقع من الجماعة مثل : ترك الجمعة ، والأذان ، وإهمال مرافق الأمة ؛ كمدّ الجسور ، وتوفير مياه الشرب .

ب ـ وإما منكر خاص : وهو الواقع من واحد معين . أو جماعة معينة مثل: شرب الخمر ، وعقوق الوالدين والتعامل بالربا وتطفيف الكيل والميزان .

جـ ـ ثم تحدث عن المنكر من حيث خطورته : فهو إما خطير أو صغير .

حـ ـ ثم من حيث محله : هل المنكر واقع على حق الله تعالى أو على حق العباد . . أو على حق الفرد .

د ـ من حيث اتصاله بمحل العدوان : هل هو عدوان مباشر ، مثل : السرقة والزنا . أو غير مباشرة ، مثل : الخلوة بالأجنبية ومخالطة الأشرار.

ثم تحدث عن شروط النهى عن المنكر : هذا المنكر : الواقع فعلا أو المتوقع ظاهرًا أو خفيًا .

ثم فصل القول فى المراحل التى يمر بها المنكر ... وواجب الداعية فى كل مرحلة

وتكمن خطورة المنكر فى المنابع التى يستمد وجوده منها وهى : الكبر ، والحرص ، والحسد .

فى الوقت الذى تستمد فيه الطاعة أصولها من : الخوف ، والرجاء ، والحب.

وإحساسا من علمائنا بخطورة المنكر . وضرورة الحذر منه .. يوصونا

(١) الإحياء (١٢٢٧) .

بالتسلح بالطاعة تحديًا له . ثم كانت لهم توجيهات فيها : إن الحسنة تلد الحسنة ، كما وأن السيئة تلد السيئة . . وقالوا : إذا سمعت عن طريق خير فاعمل به ، ولو مرة واحدة ، تكن من أهله .

ولا تترك عادة الخير . . . ولو مرة واحدة ؛ فرارًا من النكسة التى تخسر بها كل بناء شيدّته من قبل و« **الإثم حوّاز القلوب** » يزين لها المنكر . . حتى تفعله . ثم تحدثوا عن خطورة العادة ، والتى تكمن فى :

١ ـ أنك لا تحس بها . . وأخطر الأمراض ما لا تحس به .

٢ ـ ومع طول الممارسة تصير جبلة ، يصعب التخلص منها . . لأنها بالممارسة تصبح إدمانا . .

وقد رأينا من يقلع عن المعصية ، خوفًا ثم صار يقلع عنها حياء .

والأصل القرآنى ، قوله تعالى : ﴿ **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [غافر: ٩] .

قال أحد الأعراب : لو كان لى ألف بعير . . وواحد منها أجرب . . لقمت على هذا الواحد المريض قيامة من لا يملك غيره .

ألا إن الطاعة : عادة . . والمعصية : لجاجة . .

وإذن فالمعاناة فى التخلص منها أشد كما قلنا ، ومن أجل ذلك سمعنا من يقول : ابتلائى بالنار أخف من ابتلائى بالمعصية لماذا ؟ لأن فى المعصية مخالفة لربى سبحانه !! وهو نفسه القائل: نعمتان تقبلان منى ، أحب إلىّ من دخول الجنة ؟ لماذا ؟؟

لأن رضا ربى أحب إلىّ فى الركعتين . .

وأما الجنة : فهى رضاى أنا ، وما يرضاه ربى أحب إلىّ مما أرضاه لنفسى !!

* * *

حتى تقطع الطريق على الشيطان

وإذا كان الشيطان الرجيم يزين لنا الإثم حتى نتورط فى مباشرته . فقد كان من رحمة الله تعالى بنا أن تعبدنا بما شرعه تعالى من عبادات هى سلاحنا فى مواجهة هذه الشيطان المريد .

فالصلاة : حارس يقظ يحميك من المعاصى﴿ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

والصوم : يزودك بمنظومة القيم : ﴿ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ... ﴾ [آل عمران: ١٣٤] .

والزكاة : تحميك بالذات من الشح .. والفقير من الحسد فيلتقى الواجد بالفاقد .

والحج : غسيل عامّ تعود به كيوم ولدتك أمك .. من لم يجد لها أثرًا فليبحث عن قلبه الذى ضاع فلم ينتقع به .

• • •

العاصى والمطيع

العاصى : تسمع منه وشوشة الحلىّ .. ورنين الأبيض والأصفر .. وليس فى ذهنه الآخرة : إنه يفجر أمامه .. ماض فى عشقة للدنيا .. ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤] .

أما المطيع : فإنه يحنى ظهره وهو يغتسل من الجنابة ، حياء من ربه .

إن تذكره للآخرة لم يدع له وقتًا يستمتع فيه بما يملك ، وقد يكون بالى الثياب ينهمر منه عرق الشباب لكنّ بُغيته الثواب ..

فأين منه القائل : من أشد منا قوة ؟!!

والناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

قالها « أبو العتاهية » فلما قيل به : من أخذت ذلك ؟ قال : من قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء:١] : اقترب .. بالماضى .. وليس «يقترب » بالمضارع.

وهكذا تصبح العبادة سبيلك إلى الجنة متجاوزاً كيد الشيطان :

إن الفرائض : طريق القرب. فأنت تحس فيها بالجدّ : بالرهبة والخوف .. فيقول لك عز وجل : « لا تخف .. فأنت قريب منى » .

أما فى النوافل : فدافعها الحب .. ولا تحس معها برهبة ولا خوف فكان جزاؤك من جنس عملك ؛ حبا من الله تعالى .

● ● ●

الفصل الخامس

من عقبات الدعوة

ومن هذه العقبات :

١ ـ ما يكون فى نفس الداعى من مثل : مصلحة شخصية ، سوء الخلق ، البخل ، الغرور .

وإما أن تكون فى نفس المدعو :

١ ـ الطمع .

٢ ـ التقليد .

٣ ـ رواسب قديمة فى عقله وقلبه.

٤ ـ الحسد .

٥ ـ الهوى .

٦ ـ محاولات المضلين .

٧ ـ عدم توافر الاتصال بينه وبين الداعى .

تمهيد :

يقول الخبراء : قبل أن يُسقط التتار بغداد ، كانت بغداد بلا أخلاق وقبل أن يسقط الصليبيون الأندلس كانت الأندلس بلا أخلاق ولم ترث إيمان طارق بن زياد.. كل ذلك مهد لدخول الأجانب بلادنا .. يضاف إلى ذلك :

قلة معرفتنا بأحوال الأمم حولنا .. وهم الذين عرفونا (بالمستشرقين) مع أننا أصحاب الدعوة العالمية .

ولم نفد من التقدم العلمى .. بينما اصطلح اليهود وغيرهم مع العلم الحديث

واحتلوا أرضنا .. أى أنهم أفادوا من نهضتنا يوم أن احتكوا بنا فى الحروب الصليبية ، وعن طريق فرنسا المتاخمة للأندلس لكننا لم ننتفع به !

قال عالم منا : تعلم اللغة الأجنبية يجوز للضرورة .. وكان الأصل عدم معرفتها ؟!

وكيف .. وبينا مرسل لكل الناس ولغاتهم شتى ؟!

وقد أحسنت المذاهب الأرضية التفاهم مع الناس .. فسادت ..

١١ ـ وإذن فنحن المسئولون أولا قبل الزحف الخارجى فلنعد إلى الله أولا .. بحيث لا يتمكن العدو من رقابنا .. وهذا بيت القصيد .

إن المعكسر الرأسمالى : له شخصيته بسماته والشيوعى كذلك .

أما المعسكر الإسلامى .. فأين شخصيته ؟ فيه شركاء متشاكون !!

لم يعرف المسلم عالمه المعاصر .. ولم يثق بتراثه تمامًا .. فكان جاهلا مرتين !! وأصبحت جهوده فقط : كلمة فى كتاب .. هتاف فى خطاب .. تسبيحة فى محراب ... لهم شخصية مزدوجة :

التاجر يسلم التبرّع لبناء مسجد فى وداعة الحمل ! ثم لا يتورع عن الربح الحرام ، ولا عن طريق ترويج المنكرات التى يستوردها من الخارج .. كما استورد شخصيته تلك أيضًا من الخارج .. والرافصة تبنى مسجداً .. ثم تفسد الساجدين .

ما هى الشخصية المسلمة :

﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا ﴾ [الزمر:٢٩] شخصية واحدة .. تاجر .. مدرس .. ليكن إنما ليظل وفيًا لمبدئه .. نشطة فى السوق .. عابدة فى المسجد .. مجاهدة فى الساحة ، تحثها على الوعظ .. وعلى الصناعة أيضًا .

مع إقبال :

إذا نسيت نفسك . . فكيف تبحث لك عن محب ؟

إذا لم تعرف الإنسان . . فكيف تعرف خالقه ؟

ومن معوقات الدعوة

أ ـ فى طليعة هذه المعوقات : التقليد .

ب ـ شبهات المغرضين :

ومنهم تلك الباحثة الغربية . . والتى تزعم أن النعيم فى الإسلام نعيم حسِّى مادى . .

بينما الأمر فى المسيحية على عكس ذلك تمامًا . . فالناس فى المسيحية يتحولون إلى ملائكة فى الملكوت الأعظم .

• • •

الرد على الباحثة

تمهيد :

يحمل باحث مسلم مرموق على الفقهاء لأنهم عرفوا النكاح بتعريف حسّى هو : « عقد ملك منفعة البضع » .

مع أن الفقهاء الذين قالوا ذلك . . هم أنفسهم الذين ذكروا من آداب الزواج ما يرقى به إلى سماء ليس وراءها سماء . .

ويجب أن يضاف ذلك إلى التعريف الذى ركز على مقصود الزواج وهو : الولد . . والولد لا يأتى إلا عبر هذا الطريق .

ثم نزعم أنه : ربما كان كلَام الباحث المسلم ذريعة لمثل ما ذهبت إليه الباحثة الغربية . . ولكن . . هل الأمر كذلك ؟

والجواب : نستفتى آى القرآن الكريم . . إن الحديث فيه عن الجنة ورد فى مائتى موضع . . وقد ورد النعيم الحسِّى فى أربع مرات :

فى سورة الدخان : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥] .

وفى سورة الطور: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وفى سورة الواقعة : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [الواقعة: ٢٠ـ ٢٢] .

وفى سورة الرحمن : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٠ ـ ٧٢] .

وفى سورة الإنسان : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ [الإنسان: ١٧ ، ١٨] .

وإذا كان النعيم الحسّى هنا واضحًا . . فإن النعيم الروحى يرف من فوقه ومن حوله : ففى آيات سورة الواقعة نتأمل ؛ نتخير والتخير نفسه نعمة تحس ولا توصف . . بل إن حرية الإنسان فى الاختيار أجل من النعمة نفسها ، ثم نقرأ بعدها عن نعمة « السلام » الذى لا يسمعون غيره وقبلها : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴾ [الواقعة: ٢٥] وذلك أقرب إلى إيناس الروح منه إلى متعة الجسد.

وبعد هذه المواطن : يستفيض الحديث عن الجنة ونعيمها الروحى :

قال تعالى فى سورة محمد : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [محمد: ١٥] ، والآية الكريمة توضح منهج القرآن الكريم . ومن ملامحه : أنه يجسد المعانى بما نراه محسوسًا . تمكينا للمعنى فى القلوب ، على أن من الجزاء فى نفس الآية : المغفرة ، ونقرأ فى سورة آل عمران قوله عز وجل : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [آل عمران: ١٤] .

وعندما نتأمل الآية الكريمة نجدها منسجمة مع منهج القرآن فى الاعتراف بواقع

الإنسان .. وأنه محكوم بهذه الشهوات .. ثم يهيب به أن يرتفع إلى أعلى ..

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥] ومن هذا الخير : الماء ..

والماء الجارى .. الذى يعبرّ جرياته عن قيمة الجمال ..

ونقرأ فى سورة الزمر قوله عز وجل : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] .

إن الجزاء هنا هو : السلام . والخلود ..

ثم ما حكى عنهم: ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٧٤] ، والحركة الطليقة بين فراديس الجنان متعة آخرى فوق متعة الحواس .

وبما يعزز ذلك :

ما جاء فى وصف العذاب :

فهو مرة : أليم.

ومرة : عظيم .

ومرة : مهين .

فهو حسّى .. ومعنوى.

• • •

من خطة الأعداء

كان من خطط الأعداء الرامية إلى التشويش على الإسلام .. محاولة تدريب العوام هنا على كراهية الرسالة والرسول .. فجاءت المؤامرة واضحة : فقالوا : إن لله تسعة وتسعين اسمًا فيها المخيف : وهو المنتقم الجبار ..

وزعموا : أن إله المسيحيين رفيق .. لدرجة أنه ضحى بابنه الوحيد .. فداء للبشر !! بينما المسلمون يضحوّن بكبش ضعيف !

ولقد تم هذا ضمن منهج « الانتقاء » : اختيار ما يمكن استثماره ترويجًا لباطلهم على طريقة : لا تقربوا الصلاة . . .

والحق :

والحق أن هذه صفات كمال . . وجمال :

كمال :تربية للخوف .

وجمال :تربية للرجاء .

وعلى جناحين من الخوف والرجاء يطير الإنسان .

ثم إن « المنتقم » عزاء للمظلومين إشعاراً لهم بأنهم فى حماية الجبار الذى ينصفهم من هؤلاء الظالمين .

وأين وجه الشبه بين هذا : وبين بشر . . يقتلون واحداً فداء لخطأ الأب الأول . . مع أن الخطأ لا يبرر الخطأ ؟

إنها شبهات زائغة لا تصمد أمام الحجج الدامغة !!

• • •

نفثة مصدور

إن المطبعة لتقدم للناس فى كل يوم ألوانا من الثقافة وصنوفًا من المعرفة . . لأناس يؤذنون بيننا بأفكار مستوردة من الشرق والغرب . . مشفوعة بإعجابهم الآخذ بها وبنتائجها الحتمية فى ترقية الفرد . . وإسعاد المجتمع . .

وعلى قدر صلة هؤلاء الشباب بالإسلام . . يكون تلميحهم أو تصريحهم فى النيل منه . . والإزراء به . . والتشكيك فى قدرته على ترقية الفرد من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية . . ونحن فى عصر يؤمن فيه الناس بالكلمات المطبوعة . .

وبناء على ذلك . . فقد استطاع هذا الزيف أن يحتل مساحات واسعة بين أدمغة الأغرار وقلوبهم !! فتنادوا به . . بل ودافعوا عنه . . بعد أن أفلحت الثقافة الغربية الوافدة أن تخفف من قيمة المثل العليا فى قلوبهم . . لأن المثل العليا حق. . والحق مر فى حلوق بعض الناس !

وباسم التجديد . . وباسم التطور ومجاراة العصر . . ديست تعاليم الإسلام. . وأصبحت عقائده ومثله مجموعة من الصور الذهنية لا تشكل سلوكًا . . ولا تنال حظها من التقدير .

لقد جرب الاستعمار المتربص بنا لغة القوة فلم يفلح . . فحاول أن يغزو عقولنا . . عن طريق مجموعة من المؤسسات الأدبية . . فقدمت لنا سمومها الناقعات فى أقراص واقية . . بحيث لا نحس مرارتها . . ولا نشعر بطعمها الحقيقى . . ورسخت فى كيان بعض الناس . . فشكلت أعمالهم . . وأصابت ملكة التمييز فيهم . . فلم يعد فى حسابهم تقدير لخلق أو ضمير . . وإنما هى المظاهر البراقة وحدها عنوان رقى الإنسان .

وبدل أن توضع أخلاق الإنسان فى ميزان التقدير . . بدل أن يوزن من الداخل . . وزن من الخارج . . أى أن الحضارة انتقلت من الداخل إلى الخارج. . فيكفى أن تكون أنيق الملبس . . ضخم الجثة . . يفوح من حولك العطر . . لتنال إعجاب الناس وتقديرهم . .

ولا يعنيهم بعد ذلك إن كنت أبيض القلب طموحًا . . تتخذ من الدين صراطًا مستقيمًا تنقل عليه خطاك . .

فالدين ـ فى حسابهم ـ هناك . . فى مؤخرة الركب . . مبهور الأنفاس . . والعلم هناك أمام القافلة . . يكتشف للناس المجاهيل . . ويهتك المساتير . . وليس من الحكمة أن نعطى العلم إجازة حتى يلحقه الدين . . لأن فى هذا قضاء على مدارك الإنسان . . وحكمًا على قواه وطاقاته بالإعدام !! وهكذا يصنع

الاستعمار الماكر بعقول الفارغين ففتنهم عن أدبهم وصرفهم عن تاريخهم . . وزين فى قلوبهم أن الآداب الغربية من لوازم المدنية الحديثة .

فكما تركنا فى الأكل اليد إلى الشوكة والسكين . وفى اللباس الجبة والقفطان إلى الجاكتة والبنطلون . . ينبغى أن نترك الكلام فى اللغة العربية وآدابها إلى اللغة الأوربية وآدابها ليقال إننا متمدنون تقدميون . نحفظ هوجو ولا نحفظ المتنبى وندرس فولتير ولا ندرس الجاحظ ونقرأ لامرتين ولا نقرأ لبديع [١] .

ويكفيك مظهراً يدل على فتور العاطفة الدينية عند بعض الناس ما قاله أحد رؤساء المصالح الحكومية :

لقد قيل له : إن فلانا يصلى ويتقى الله فى أعماله . . فهو أولى من فلان بالوظيفة . . فقال : إن التقوى سلوك شخصى . . لا صلة له بإتقان العمل !!

وقد سمعنا أيضًا فى العالم الماضى أن أحد المدرسين المبعوثين للأقطار الشقيقة. رسب فى الاختبار الشخصى . . لأنه لم يستطع الإجابة على سؤال بشأن أعلى مبنى فى ميدان التحرير !! وعلى أساس هذا المنطق . . ينبغى أن يكون المبعوث فقط من سكان مدينة القاهرة . . ليكون على علم بعدد شوارعها . . وعماراتها وأزقتها أيضًا !!

وكأن الجمهورية العربية المتحدة خلت من ستة آلاف قرية يسكنها ملايين المكافحين الأذكياء . . الذين لا يهمهم أن يعرفوا أعلى مبنى . . ولا أقصر مبنى! لأنهم تعلموا من دراساتهم التاريخية ومن حياتهم الواقعية . . إن هذه القصور لم تقدم للحياة إلا كل مشتغل . . مضل ! ومن أكواخ الفقر . . تشرق العبقرية عبر الزمان ! والسؤال الآن : ما الحكمة فى إيفاد المبعوثين إلى الخارج ؟

أليست الحكمة أن يكونوا رسل خير وسلام بيننا وبين شعوب الأرض . . حتى تتوثق العلاقات . . وتتقارب المسافات فنسير معا على الطريق . . نرسى

---

(١)من مقال للأستاذ / أحمد حسن الزيات.

قواعد الحق والخير ؟

وما علاقة هذه الرسالة بمعرفة أعلى مبنى فى ميدان التحرير أو الجهل به؟

كنت أفهم أن يرسب هذا المدرس لأنه لم يستطع أن يقترح حلا لمشكلة اجتماعية تتعلق بهذا المبنى وهى مسألة الانتحار مثلا .. ولكن مرة أخرى .. نحن قوم نهتم بالمظهر .. لا بالمخبر .. بالشعائر لا بالشعور .. « بالمبنى » لا بالمعنى .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧] .

ألم نتابع بمشاعرنا زيارة إمبراطور الحبشة للجمهورية العربية المتحدة ؟

لقد رأيت عشرات الصور للإمبراطور فى شتى المناسبات .. إلا أننى وقفت طويلاً أمام مشهد بين الإمبراطور وهو ينحنى ليقبل يد قسيس !

إنه رجل .. يمتلك من المال والرجال ما يؤهله ليعيش فوق مستوى الجماهير .. إلا أنه أراد أن يعيش كفرد ومن الناس .. وهو إذا يحترم رجل الدين فيقبل يده .. إنما يحترم نفسه .. ويقدر دينه فى شخص هذا القسيس .. فيرضى بذلك وجدانه الدينى الحى ..

وإن التاج من فوق رأسه تلمع درره .. ومظاهر الأبهة والسلطان .. لتذوب فى معنى الدين الكبير ..

وياليت عشاق الكرة عندنا فتحوا أبصارهم قليلاً ليروا شيطان الكرة البرازيلى « بيليه » قبل أن يبدأ الشوط .

لاشك أنكم لم تروه يا شباب .. وأنا ألتمس لكم العذر .. فلقد ركزتم أنظاركم فى قدميه السحريتين . لتروا كيف كان التجاوب شديداً بينهما .. وبين الكرة ؟!

ولو أنكم رفعتم رأسكم قليلاً عن .. الأرض لرأيتم عجبا .. إنه يتناول

الصليب الذهبى فى خشوع .. ثم يشبعه لثما وتقبلا .. ويودعه ضراعاته ودعواته!

أى تقدير غامر للدين فى قلب هذا الشاب ؟

وأى نكران لمظاهر الحياة يتبدى فى مشهده هذا ؟

إن الأيدى التى تصفق له طويلاً .. لن تتحول إلى حبال تصله بالسماء .. وهتاف الجماهير العالى لن يكتب له النصر أبدًا ..

إنما هو الرجوع إلى الله .. إنه إيمانه .. عقيدته .. مبدأه .. يستهديه ويستلهمه التوفيق والهدى ..

وإذا كان انتصاره فى ميدان الكرة « وليد » فنه .. فإن الدين « والد » هذا الفن !

• • •

الدور الاجتماعى للداعية

لابد أن يكون للداعية «حضور مكثف » فى المجتمع الذى يعيش فيه. فقد قدم ﷺ يومًا . القوم مختلفون : أيهم يضع الحجر الأسود ؟

وقد حقن الله تعالى به الدماء.. ثم كان عضوا بارزًا فى « حلف الفضول » الذى ظل فى ذاكرته شاخصًا متمنيًا أن يتجدد ليجدد نشاطه به . الأمر الذى يتقاضى الداعية أن يعيش فى وجدان الناس دائمًا .. إلى الحد الذى يقال فيه : الناس نيام .. فإذا مات الداعية انتبهوا !!

شبهة مردودة :

وقد يفترون الكذب فى محاولة لقصٍّ أجنحة الداعية زاعمين بأنه فاشل اجتماعيًا .. الأمر الذى يفرض عليه أن يفهم درس المجربين الذين قالوا : النجاح والفشل ضدان لا يجتمعان معا ، والنجاح الحقيقى لا يأتى مصادفة ، ولا هو

ضربة حظ ، إنما هو فن تحقيق الممكن بالاعتماد على عوامل ذاتية متداخلة، هى منظومة ممتازة من قيم وقدرات ومهارات عقلية ومعرفية وعزيمة وهمة وإرادة حديدية ، وهذه المنظومة تحرك وتوجه الفكر والسلوك وتدفع صاحبها على طريق النجاح ، على خلاف النجاح الذى يعتمد على عوامل خارجية كالثراء أو الحسب والنسب أو السلطة ، ويذهب بذهاب ذلك كله أو بعضه ، وقد أجرى فريق من علماء النفس والإدارة دراسة مقارنة على الناجحين ، والفاشلين فى الحياة والعمل للتعرف على الخصائص العقلية والمعرفية والسلوكية المشتركة بين الناجحين ، وتلك المشتركة بين الفاشلين نوجزها فيما يلى :

* الناجح يحدد المشكلة بحيث لا يضيف إليها ما ليس فيها ولا يطرح منها ما هو منها ، ويرد المشكلة إلى أسبابها وعواملها ، ويركز عند حل المشكلة على السبب باعتبار أنه هو العنصر الأساسى الذى أدى إلى النتيجة التى حصلت، واضعًا فى الاعتبار ظروف الزمان والمكان والإمكانات المتاحة ، وإن لكل مشكلة ظروفها وأساليب حلها ، ومنها ما يحل ومنها ما يتحلل ، والفاشل يجمع ما لا يجمع مع بعضه ويطرح مالا يُطرح من بعضه ، ويلف ويدور حول المشكلة ويعيش فيها دون أن يواجهها ، أو يجذب المشكلة من ذيلها بدلا من تحطيم رأسها.

* الناجح يرى الجزء فى سياق الكل الذى يحتويه ، ويوجد بين المنثورات المتباعدة فى قضايا وأحكام لها صفتى الشمول والاتساق ، ونظرته هى نظرة الطائر الذى كلما ارتفع رأى أكثر ، والفاشل « ينظر » دون أن « يرى » ونظرته جزئية أو خطية مستقيمة ، ولا يرى إلا ما هو تحت قدميه .

* الناجح يوضح الأمور ويفسرها ، ويجيد التنبؤ بما ينتج عنها ، والفاشل يشوش الأمور أو يبررها بإعطاء أسباب تبدو مقبولة اجتماعيًا أو معقولة منطقيًا على الرغم من أنها بالفعل غير ذلك ، وتخيب تنبؤاته وتطيش توقعاته .

* الناجح يعرف متى تكون المواجهة ، ومتى يقبل الحلول الوسط ، والفاشل

يرضى بالحلول الوسط فى الأساسيات ، ويركز فى الجزئيات والفرعيات التى لا تستحق المواجهة .

* الناجح يتمسك بالأهداف مع مرونة الاقتراب منها وتحقيقها والفاشل يتمسك بالمواقف ويركز فيها .

* الناجح يفكر ثم يقول وكلامه قليل وفى الموضوع ، والفاشل يقول ثم يفكر، وكلامه كثير وخارج الموضوع .

* الناجح يتوافق أى يتغلب على خبرة الصراع والإحباط بالأساليب الشعورية المباشرة ، فيبذل الجهد لإزالة العائق والوصول إلى الهدف ، أو يبحث عن طريق أخرى للوصول إلى الهدف ، أو يستبدل الهدف بغيره ، والفاشل يتوافق بأساليب لا شعورية غير مباشرة ، تعرف باسم الحيل النفسية الدفاعية ، كالتبريد والإسقاط والعناد والانسحاب والنكوص وأحلام اليقظة ، وما إلى ذلك من أساليب التوافق السيئ التى تؤدى إلى السلوك المضطرب أو الشاذ .

* الناجح يدرك أن ليس ثمة شخص واحد بلا عيوب ، وأن المجتمع يتسع للجميع من ذوى الخصائص الجسمية والنفسية والسلوكية المختلفة ، فيتقبل ما لا يمكن تغييره فى ذاته وفى الآخرين ، والفاشل يتصور أنه فريد زمانه ، وأنه وحده الذى يفهم . ويرفض الآخر المغاير ويضيق به .

* الناجح يعترف بأخطائه ويعتذر عنها ويتجنب تكرارها فى المستقبل ، والفاشل يخطئ ولا يعترف بأخطائه ، ويجاهر بأن ما حدث من أخطاء ليس غلطته.

* الناجح يشك والشك عنده ليس ضد اليقين ، إنما هو أحد شروطه ، والفاشل يؤكد ويكتفى بما عنده أو ما يصل إليه من معلومات دون أن يحققها .

* الناجح يستخدم ألفاظًا من نوع « ممكن » و « يجوز » و « يحتمل » ، والفاشل يستخدم ألفاظا من نوع « مستحيل » و « قطعا » « حتما » .

* الناجح ينظر وراءه ليفهم ،وأمامه يعيش ويوازن بعد ذلك بين المختلف الاختيارات ثم يختار ، والفاشل يعيش فى الماضى ، ويستغرقه شعور زائف بالتضحية ، وتصرفاته الآتية ردود أفعال .

* الناجح يبحث عن سبل أفضل ، ويتصف تفكيره بالطلاقة والمرونة واستشفاف المشكلات ومواصلة العمل والتقييم ، والفاشل يعتمد على المحاكاة ويرضى بأقل القليل ، ولسان حاله « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

* الناجح يقدر غيره من الناجحين ، ويسعى للتعلم منهم وكسب خبراتهم ، والفاشل يكره الناجحين ويبحث عن نقاط الضعف فيهم ويبرزها ويضخمها .

* الناجح يتجنب الوقوع فى مصيدة الآخرين ، والفاشل كالسمكة تقع فى المصيدة .

* الناجح يرفع رأسه لفوق ويجعل أنفه فى مستوى المحيطين به ، ويرى أن مائة صديق ليس كثيراً وعدد واحداً كثيراً جداً ، والفشل يركز حول ذاته ، ويفقد صديقًا كل يوم .

● ● ●

الدين : للحياة

يقول الأستاذ فتحى رضوان : أراد بعض الذين لم يقرأوا القرآن أو الذين قرأوه ، دون أن يتدبروه ، أو الذين قرأوه وتدبروا معانيه ، وأدركوا آياته ومراميه، ولكن لمرض فى قلوبهم ، نسبوا إليه ما ليس فيه ، أولئك جميعًا أرادوا أن يصوروا الدين الإسلامى بأنه ذهول عن حقائق الدنيا ، التى لا فرار منها ، ولا فكاك من أسرها ، فى حياة الآدميين ، وأنه دين روحانى فقط . والروحانية عندهم، قرين الغيبوبة ، يفر بها الإنسان المغلوب على أمره ، من متاعب جوعه وفقره ، وآلام عجزه وضعفه ، إلى عالم يتخيله ، هو عالم الآخرة ، يعوض فيه عن الجوع ، بأنهار من عسل مصفى ، وأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن

لم يتغير طعمه ، ويعوض عن حرمانه وهوانه ، بولدان مخلدين ، وحور عين ، ويعوض عن خوفه وقلقه ، عن حياة لا خوف عليهم فيها ولا يحزنون .

أما الحقائق المادية للحياة ، من سعى فى الدنيا ، يؤدى إلى جمع المال : وإحسان توزيعه ، وسد حاجة المحتاجين بالطعام يأكلونه ، وبالكساء يرتدونه .

وسرعان ما احتلت الملابس الأوربية أجسامنا .. والأثاث الأوربى بيوتنا والعادات الأوربية فى الأكل والنوم ـ أحوالنا .. أما تألق الذهن .. وجودة التفكير .. وإطلاق القوى البشرية من مرقدهـا لتسعى وتربح .. فذاك شىء آخر .. ومن السهل على القردة أن تقلد حركات إنسان ما ..

أفتظنها بهذا التقليد السخيف تتحول بشرًا ؟ ؟

ولقد رأينا المسنِّين من الرجال . والأحداث من العيال يأخذون عن أوربا الكثير من مظاهر المدنية الحديثة . وهى مظاهر نبتت خلال حضارة الغرب .. كما تنبت (الدنيبة) خلال حقول الأرز .. إنها شىء آخر غير حضارة الغرب التى ارتفع بها واستفاد منها ..

فهل هذا الأخذ الغبى رفع خسيستهم أو دعم مكانتهم ؟

كلا .. ما زادوا به إلا خبالا ..

والواقع أن اليابان نهضت نهضة كبرى فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد ..

والصين نهضت نهضة أشمل وأخطر فى منتصف القرن العشرين ..

وكلتا الأمتين حرصت على تقاليدها الخاصة فى اللباس والطعام وما إليها ..

وعبَّتَ من مناهل المعرفة الحقيقية ما غير حالتها تغييرا تامًا .

أما نحن .. فقد هجرنا الموضوع إلى الشكل .. بل تخبطنا فيما ندع وننقل على حساب ديننا وتاريخنا .. فلم نصنع شيئًا(١) .

(١) عن كتاب « الإسلام والطاقات المعطلة » للأستاذ محمد الغزالى .

وبالمسكن يأوون إليه ، وتطيب نفوسهم فيه ، بعد عناء المجاهدة ، من أجل الرزق والعزة ، فوقف على جماعة من أقوياء المجتمع تنتهى إليهم السلطة ، وتسلم لهم مقاليد التجارة والصناعة والزراعة ، ويجمعون بين جاه الدنيا : مناصب الرياسة والسيادة ، وجاه الدين : أحباراً وكهانا وسدنة للمعابد .

ثم يقول :

وليس ثمة شيء أبعد من الحق والحقيقة من هذا الافتراء ، فالعرب أمة ، لم تكن تنعم فى أرضها بمصادرة الثروة الميسرة ، ولا السخية ، فأرضهم جدب ، وماؤهم غور ، لذلك كانت التجارة ، أصل موردهم الأول ، ينتقلون بين الدول الغنية بما تنتجه تلك الدول ، من نفائس الضاعة ، وخيرات الزراعة ، وتجنى من وراء هذه الوساطة ، ما يوفر لها الرزق ، وما يحقق لكبار التجار العيش الناعم ، والفراش الوثير ، فيهيئونهم للرياسة والسلطان ، لا بما بين أيديهم من مال فحسب، بل لما تتجه لهم التجارة ، من الاتصال بالأمم والشعوب ، ومعرفة أحوالها ، والوقوف على خبايا السياسة ، وخفايا الحكم ، والاقتراب من ذوى السلطة من الوزراء وأعوانهم ، فيقتبسون من خبرتهم ، وينقلون عنهم أساليبهم فى الإدارة ، وفنونهم فى الاقتصاد ، فتأتى للعرب ، فى بلاده القاحلة والمعزولة عن الناس من المعرفة ، ما لم يتأت لغيره من الدول التى تتكون مجتمعاتها من المدن ، لا من الواحات التى يتجمع حولها رعاة الأغنام ، كما كان الحال ، فى شبه الجزيرة العربية ، ولما كان القرآن الكريم قد جاء فيه قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ [إبراهيم : ٤] ، فقد تحتم أن يكون الرسول ، قادراً لا على مخاطبة القوم الذين أرسل إليهم بلغتهم فقط ، لا أن يكون فوق ذلك مبينًا ، فصيحًا ، ليفهموا عنه ما يقول ، وليتأثروا بما فهموه من قوله ، بل إن مقتضى هذا الشرط اللازم توفره فى الرسول ، أى شرط قيام وسيلة التفاهم المشتركة بين المرسلين والذين أرسل إليهم ، أن يكون مدار الحديث بين الطرفين ،

أموراً تشغل بال أهل الرسول وعشيرته لأن اللغة ليست مجرد ألفاظ وأصوات تسمع ، بل أن معانيها هي جوهر هذه اللغة ، وهي الغاية منها ، ولولا دواعي المصلحة المشتركة بين الأقوام لما نشأت لغة من اللغات .

ومن هنا كان حديث الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إلى أهله وعشيرته الذين يعيشون على ما تدره التجارة من رزق ، والذين يتأثرون بدواعي اتساعها ، ويسر سبلها ، أو ما يعترض طريقها ووسائلها من الصعاب والمتاعب . . كان غير قليل من حديثه ، وغير قليل من آيات القرآن ، في شئون المال والتجارة ، وتدبيرهما ، وتتبع كل عنصر من عناصرهما ، جمعا وإنفاقا ، وشحا وسخاء ، وأخذا وعطاء ، وحلالا وحرامًا ، وبيعا وإيجاراً ورهنًا ، وبدلاً ، وتبرعًا وعوضًا . ومن هنا كانت سورة قريش ، من أوائل السور ، وكانت جماعا لما تقوم عليه حياة هذه القبيلة ، التي أتقنت التجارة ، وأصبحت مكة عاصمتها ، ملتقى الطرق التجارية العالمية قبل بعثة رسول الله ، بعهود . قال الله تعالى : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤] ا . هـ .

● ● ●

شاهد من التاريخ

كان من صور وجود الداعي في وجدان المجتمع أن كان للعالم صنعة اشتهر بها . . ولم يكن ذلك مما يخل بمركزه :

وفي كتاب « صناعات الأشراف » تقرأ عنه كثرة كاثرة من الصحابة والتابعين ومن الأئمة : كأبي بكر ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو ابن العاص ، الذي كان جزاراً . كما كان عمر بن الخطاب « سمارا » .

ومن التابعين : سعيد بن المسيب. والذي كان يتاجر في الزيت . وأبو حنيفة الذي كان يتاجر في القماش .

وكان له ديوان مالـــى يوزع رواتب شهرية على كثير من فقراء العلمـــاء . ولا ننسى « الليث بن سعد » رضى الله عنهم أجمعين ، والذى كان دخله الصافى ثمانين ألف دينار من الذهب فى السنة .

ولم تجب عليه زكاة قط ؛ لأنه كان لا يستبقى فيها ما يحول عليه الحول .

وبهذه الحرف كان لهم حضور فى وجدان الأمة . . بالدخول فى عمقها فى صحبة احترام لتقاليد المجتمع . ما لم تكن إثمًا .

وبها بقى للعالم آثاره الاجتماعية . فوق آثاره الدينية : بحيث يكون مصلحًا اجتماعيًا إلى جانب كونه واعظا دينيا .

ذلك بأن التقاليد الاجتماعية :

١ ـ تعبِّر عن مزاج الأمة ومواريثها وتاريخها .

٢ ـ تميز شعبًا عن شعب .

٣ ـ نسيج المجتمع . ومجموعة الخبرة المعاناة .

٤ ـ تبقى حاكما نفىء إليه .

ولكن البعض يتسرع فى رفضها . مع أنها « عُرف » اعترف به الفقهاء ما لم يحل حرامًا أو يحرم حلالاً .

ألا وإن تنوعها يجعل من الشعوب طاقة أزاهير، ولا تفاضل بين عادات وعادات ، إلا بمدى قربها من هدى الله عز وجل .

ويذكر التاريخ : زبيدة بنت جعفر : زوجة هارون الرشيد :

١ ـ أنفقت من مالها كثيرًا .

٢ ـ وشاركت فى انتشار الإسلام .

٣ ـ وكان لها مائة جارية . كلهن يحفظن القرآن الكريم .

٤ ـ ولما قُتل ابنها « الأمين » رفضت فكرة الثأر . فكانت لها حركتها المباركة

في المجتمع .

وكان عبد الله بن المبارك يحج سنة ويغزو سنة ، فإذا أراد أن يحج بعث من ينادى فى الناس : إن ابن المبارك يريد الحج فمن يجب أن يصحبه فليأت إليه . فيجيئه الناس أفواجًا ، فيقول لهم : نجعل نفقتنا شركة ، فإن البركة فيها أكثر ، فيعطيه كل منهم ما معه من النقود فى صرة يصرها ، يكتب عليها اسمه ، ثم يذهبون معه فكلما نزل منزلاً أعد لهم أطايب الطعام ، ومن ذلك الطعام الفالوذج، يأكلونه ويأكل هو من زهده ، على غناه ، طعامًا دون ذلك ، ثم إذا أنهوا حجهم قال لهم : انظروا ماذا تريدون أن تهدوا إلى ذويكم وإلى أصدقائكم لأشتريه لكم ، ثم أحاسبكم عليه . فيشترى كلٌ ما يريد . حتى إذا ما رجعوا إلى بلادهم ، وكانت بلده فى أطراف بلاد الأفغان اليوم ، أقام وليمة كبيرة ، ثم أعاد لكل منهم صرته التى فيها نقوده ، وكانت السفرة كلها على حسابه .

ومن طريق خبره أنه نزل مرة منزلاً ، فرأى بعدما نام أصحابه شابًا يأتى إلى دجاجة ميتة كانوا قد رموا بها فيأخذها فدعاه وسأله ، فتردد الشاب واستحيا ، وامتنع عن الجواب . فلما ألح عليه علم أنه هو وأخت له لا يملكان شيئًا ، وأنهما احتاجا حتى حلت لهما الميتة ، فلذلك أخذ الدجاجة .

فدعا عبد الله بن المبارك وكيله ، وقال : انظر كم بقى معك من النفقة ؟ أى من نفقته هو لحجه فأمسك منها ما يكفى لعودتنا ، وادفع الباقى إلى هذا الشاب ، فإن إعطاءه خير لنا من حجة النفل هذه السنة .

ذكرت هذه الحادثة استطرادًا ، ليقرأها الذين يحجون فى كل سنة ، لاسيما من المقيمين هنا فى المملكة ، فيضيقون المكان على من يحجون حجة الفرض ، ويزيدون الازدحام ، ليعلموا أن لهم قدوة إن تركوا حجة النفل واستبدلوا بها عملاً آخر من أعمال الخير .

وأبواب النوافل التى توصل إلى الجنة كثيرة . ا ، هـ .

وفى قضاء حوائج المسلمين

كان ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ معتكفا . . وجاء رجل يزوره . . فرآه ابن عباس حزينًا كاسف البال . . فسأله عما به ولم يقطعه الاعتكاف عن تلمس حاله .

فقال له الرجل : علىّ دين . . أهمنى . .

فقال له : أفلا أكلم لك الدائن ؟

قال الرجل : نعم .

فلما خرج ابن عباس . . تعجب الرجل قائلا لابن عباس : أنت معتكف ؟!

فقال ابن عباس على الفور : سمعت صاحب هذا القبر . والعهد به قريب : يعنى أنه ما نسى قوله سمعته يقول : « **من مشى فى حاجة أخيه** ـ مشى وإن لم تُقض ـ **كان له مثل أجر من اعتكف عشر سنين**» .

• • •

من صور المروءة

المرأة التى كانت تهدى جارتها من الخبز الساخن . . وليس « البايت » البائر .

ومن بنى لكل عاجز داراً ـ قاعة ـ خاصة به . . ثم يزورهم كل أسبوع سائلا عن حاجاتهم حتى لا يحرجهم .

ومن قال : أهلا بمن يحولون أموالنا إلى الآخرة !

• • •

ابن خلدون

مع أن عمله الأساسى هو : الدعوة إلى الله ولكنه كان يمثل مصر فى مفاوضة التتار لما هاجموا الشام .

ولما زار « غرناطة » طلب منه أميرها المسلم أن ينوب عنه فى مخاطبة حاكم «أشبيلية » الأعجمى .

وقد أعجب به الحاكم الأعجمى وعرض عليه أن يكون مستشاراً له على أن يرد إليه أرض آبائه التى فقدوها من قبل .

فأشار عليه كطلبه . . ولكنه اعتذر عن قبول عرضه عودة الأرض إليه .

و قد كان للإسلام توجيهاته التى تجعل المسلم خيطًا فى نسيج المجتمع بالعين فى خضمه عن طريق ما ألف من عادات والتى هى :

مجموعة العادات والقواعد المتفق عليها المتعلقة بالسلوك الاجتماعى والخصال الحميدة وحسن الخلق واحترام النفس والغيرة وفن المجاملة واحترام المواعيد ومراعاة الأسبقية فى المناسبات الرسمية وغير الرسمية ، ولو كشفنا عن معنى كلمة إتيكيت فى القاموس لوجدنا « آداب السلوك » ولقد سارعت جميع الدول الأوروبية بتطبيق مبادئ الإتيكيت بهدف الارتقاء بالسلوك للوصول إلى أعلى درجات التقدم الحضارى وأن تطبيق مبادئ الإتيكيت دليل أكيد على احترام النفس البشرية وتقديرها تلك التى فضلها الله سبحانه وتعالى عن سائر المخلوقات فإذا ما ارتقت النفس البشرية أقامت أعظم الحضارات .

وقد سبق الإسلام إلى وضع قواعد الإتيكيت ، وقد أكد ذلك علماء الغرب وفلاسفته حينما أشادوا بعظمة الدين الإسلامى كدين وحيد يجمع بين الدنيا والآخرة وبين مطالب المادة ومطالب الروح دون تعارض ولا تصادم .

فالخصال الحميدة وحسن الخلق واحترام النفس والغير : صفات دعانا الإسلام إلى ضرورة التحلى بها عند التعامل كى نتجمل بمكارم الأخلاق مع كل من نلتقى بهم بصرف النظر عن اختلاف دينهم أو جنسيتهم للحفاظ على شخصيتنا الإسلامية الأصيلة .

* أما عن فن المجاملة : ومنها « مجاملة الجيران والضيوف وزيارة المرضى

وتقديم التعازى » فقد أوصى رسول الله ﷺ بضرورة مراعاة حق الجار وإكرام الضيف بقوله : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** » .

أما عن زيارة المرضى وتقديم التعازى فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يزور المرضى ويشهد جنائز المسلمين وتلبية الدعوات .

* **أما عن احترام المواعيد** : قال تعالى : ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا** ﴾ [النحل:٩١] لقد أكد الإسلام ضرورة المحافظة على المواعيد وعدم التخلف عنها إلا لعذر قاهر خارج عن الإرادة وفى حالة التخلف عن الموعد يجب الاعتذار .

* **أما عن مراعاة الأسبقية** : « العطف على الصغير ومراعاة حق الكبير » ، فقال رسول الله ﷺ : « **من لم يرحم صغيرنًا ويوقر كبيرنا ويعرف لعالمنا حقه فليس منا** » .

* **أما عن آداب الزيارة وضرورة الاستئذان** : فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾ [النور:٢٧ ، ٢٨] .

فمن آداب الزيارة ضرورة الاستئذان واختيار الوقت المناسب وتحية صاحب البيت .

* **أما عن المصافحة** : فكان من أفعال الرسول ﷺ ، إذا لقى أحدًا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخد بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها .

* **أما عن آداب الجلوس** : فلم ير أحد الرسول قط مادا رجليه بين أصحابه .

* أما عن آداب الطريق : فقال رسول الله ﷺ : « **ليسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير** » .

* أما عن عدم رفع الصوت عند التحدث : فقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان : ١٩] .

● ● ●

من آثار الانتماء

وبسبب من هذا الانتماء .. كانت للمجربين توجيهات تضيف إلى الداعية رصيداً من المريدين

● ● ●

فقالوا : كيف تكسب الآخرين ؟

التعامل مع الناس فن من أهم الفنون .. فإن كان من السهل أن تفقد احترام الناس .. فليس من السهولة أن تكسب حبهم .. وقال المتخصصون : أن هناك بعض القواعد التى تؤدى إلى كسب حب الناس :

* لكى تكون متحدثًا جيداً .. فعليك فى المقابل أن تجيد فن الإصغاء لمن يحدثك .. فمقاطعتك تضيع أفكاره وتفقد السيطرة على حديثه .. وبالتالى تجعله يفقد احترامه لك .. لأن إصغائك له يحسسه بأهميته عندك .

* حاول أن تنتقى كلماتك .. فكل مصطلح تجد له الكثير من المرادفات فاختر أجملها .. كما عليك أن تختار موضوعًا محببًا للحديث .. وأن تبتعد عما ينفر الناس من المواضيع .. فحديثك دليل شخصيتك.

* حاول أن تبدو مبتسمًا هاشًا باشًا دائمًا .. فهذا يجعلك مقبولاً لدى الناس حتى من لم يعرفوك جيداً . فالابتسامة تعرف طريقها إلى القلب ..

* ركز على الأشياء الجميلة فى من تتعامل معه .. وتبرزها فلكل منا عيوب ومزايا .. وإن أردت التحدث عن عيوب شخص فلا تجابهه بها ولكن حاول أن تلفته إليها بلطف كأن تتحدث عنها فى إنسان آخر من خيالك .. وسيقيسها هو على نفسه .

* كن متعاونًا مع الآخرين فى حدود مقدرتك .. ولكن عندما يطلب ذلك، حتى تبتعد عن الفضول .

* حاول أن تقلل من المزاح .. فهو ليس مقبولاً عند كل الناس .. وقد يكون مزاحك ثقيلاً فتفقد من خلاله من تحب .. وعليك اختيار الوقت المناسب لذلك .

ابتعد عن التلون والظهور بأكثر من وجه .. فسيأتى عليك يوم وتنكشف أقنعتك .

ابتعد عن التكلف بالكلام والتصرفات .. ودعك على طبيعتك مع الحرص على عدم فقدان الاتزان .. وفكر بما تقوله قبل أن تنطق به .

* لا تحاول الادعاء بما ليس لديك فقد تقع فى موقف لا تحسد عليه .. ولا تخجل من وضع غيرك فهذا ليس عيبًا .. ولكن العيب الزيف عندما ينكشف.

* اختر الأوقات المناسبة للزيارة .. ولا تكثرها .. وحاول أن تكون بدعوة.. وإن قمت بزيارة أحد فحاول أن تكون خفيفًا لطيفًا .. فقد يكون لدى مضيفك أعمال وواجبات يخجل أن يصرح لك بها ووجودك يمنعه من إنجازها.

* لا تكن لحوحًا فى طلب حاجتك .. ولا تحاول إحراج من تطلب إليه قضاؤها .. وحاول أن تجد له العذر فى حالة عدم تنفيذها وأنها لن تؤثر على العلاقة بينكما .

* حافظ على مواعيدك مع الناس واحترمها .. فاحترامك لها معهم ..

سيكون من احترامك لهم . . وبالتالى سيبادلونك الاحترام ذاته .

* ابتعد عن الثرثرة . . فهو سلوك بغيض ينفر الناس منك ويحط من قدرك لديهم .

عليك بالتواضع ـ بغير ذلة ـ مهما بلغت منزلتك ، فهو من أجمل الأخلاق . . فإنه يرفع من قدرك ويجعلك تبدو أكثر ثقة بنفسك . . و بالتالى سيجعل الناس يحرصون على ملازمتك وحبك .

● ● ●

اللين .. وليس العنف

فى كلمة « الرسول » و « الرسالة » معنى اللين . . وخذ على ذلك مثالا : فعندما ترى من يركب الشطط سبيلاً إلى تحقيق هدفه فإنك تقول له : « على رسلك » بمعنى : تمهل . . وأحسن الهوينى !

وإذن فمعنى « العنف » مستبعد ابتداء . .

ولما كان الداعية على طريق الرسول . . فإنه مأمور باللين طريقًا ممهودًا إلى قلوب المدعويين .

وهنا سؤال يفرض نفسه :

ولكن العنف موجود فعلاً . . فما هو السبب ؟ وهل إلى خروج من سبيل؟!

والجواب : هناك دول تتعقب الإرهاب إرادة تقليم أظافره الناشبة فى جسد الأمة . . بيد أنها لا تعرف الجذور . .

وقد تعرفها . . ولكن ليس لديها الحماس المطلوب للقضاء على الظاهرة واقعة تحت تأثير قوى عالمية شريرة لا تريد بنا خيراً . .

لأنها منطلقة من عادات خاطئة من مثل : عدم ضرب الطفل على كل خطأ يرتكبه . فراراً من تراكم العقد النفسية . . وكان من نتيجة ذلك : أن تربى

الأطفال هناك على فعل الشر . . وبلا مقاومة من الأسرة !

تُعمِّق ذلك فى أنفسهم أجهزة الإعلام : مرئية ومسموعة ، والتى تمده بالمشاهد الذى تنمى فيه نزعة العدوان .

هذه النزعة التى تتنامى حتى يكون من أمنيات الشاب أن يطبقها عمليًا.

ثم لا يقتصر الأمر على هذا . . ولكن طغيان المادية حمل الناس على التنافس والتهارش على حطام الدنيا . . إلى الحد الذى يرفع فيه السلاح أملا فى الحصول على مستوى مادى أرقى . . ولو خاض الفتى إليه بحرا من الدماء .

● ● ●

والحل

١ ـ ليس بالخطب وحدها . . لأن هذه الخطب لا يعدو أثرها جدران المسجد.

٢ ـ إقامة الحدود . . ردعًا لهذه النزعة العدوانية .

٣ ـ تحرير إعلامنا واقتصادنا من تحكم أعدائنا .

٤ ـ إقام الصلاة . . وإيتاء الزكاة .

٥ ـ إعداد الداعية الكفء القادر على التصدى لهذه الظاهرة . ومن يقفون وراءها . .بتصحيح المفاهيم المغلوطة هناك .

وليعلم الناس أنه : الترهيب . . وليس الإرهاب . . بمعنى أنه مجرد التهديد والتخويف . . ردعا حتى لا يكون قتال بالمرة .

ومنه ما حكاه القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام : ﴿ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا** ﴾[النمل: ٣٧] .

● ● ●

عندما يكون الانتصار العسكرى سبيلا إلى الانتصار الدعوى

إنه ليست بالإسلام رغبة فى الجراح ولا الخوض فى الدم المستباح . .

والحرب فى شريعة الإسلام ضرورة ـ ومن السموم الناقعات دواء ـ ولقد كانت غايتها فتح القلوب : فتحها لترى جمال الإسلام . . فلعلها أن تدخل فيه . . وباختيارها .

وهذا هو الذى حدث بالفعل : لقد انتصر المسلمون فى « القادسية » . . والتى هزم فيها الأكاسرة . . ثم كان انتصارهم فى « القسطنطينية » ، والتى أنهت الوجود « البيزنطى » فماذا حدث ؟ حدث أن المغول هبوا كالإعصار فدمروا ، لكنهم لما تذوقوا الإسلام . . اعتنقوه . . بل صاروا من جنده بل والدعاة إليه . .

وقد أسلم « بركة خان » زعيم مغول الغرب . وبعد موت « هولاكو » دخل أخوه فى الإسلام وصار اسمه « أحمد خان » مما حرّض كثيراً من أتباعه على اعتناق الإسلام . . بالإضافة إلى ابنه « قازان » والذى صار اسمه « محموداً » .

وبالإسلام : تحولت أفكارهم . وتوقفت حروبهم بل صارت لصالح الإسلام.

ودليل ذلك :حفيد « تيمور بك » فتح الله به الهند ، ثم رفع عليها راية الإسلام . . ومن ورائه ألوف التتار الذين دخلوا معه فى الإسلام وهكذا . . بالتسامح والحب قهر الإسلام التتار والصليبيين . وصارت قوتهم ذلك الضباب الذى بددته شمس الصباح .

إن الكون من فوقنا . ومن حولنا مسرح متراحب . . يسرح فى جنباته الجميع . . فماذا نرى فى الواقع ؟

١ ـ نرى نظامًا ما يسعى إلى فرض خططه المالية والاقتصادية .

٢ ـ ومن خلال ذلك يلح فى فرض أفكاره ومناهجه .

٣ ـ ثم فرض قيمه وأنماط سلوكه .

٤ ـ ثم ليصل فى النهاية إلى فرض هيمنته وسيادته ، ولا بأس أن يصل على جسر من النفاق

● ● ●

جيش الدفاع

وإزاء هذا النفاق .. فنحن مطالبون بإعداد الداعية القادر على تحدى هذا النفاق الدولى فماذا نرى ؟!

بعض الدعاة اليوم حرصوا على أن يحفظوا المتون : بمعنى : حفظ مسائل فى الدين جزئية . مع جهلهم بحقيقة الإسلام الجوهرية .

وبعض الدعاة :

وجهه : كأنه ورقة من مصحف ومنطقه : أرق من الماء . وأعذب من الجنى .

كادح إلى ربه كدحًا عبر مراحل هى :

سعى ، فوصول ، فمثول ، فلقاء .

وهناك دعاة : جهلوا أسلوب الدعوة : فأضلوا .. ولكن دون قصد وإن غيرهم ليضل .. عن قصد !!

ثم .. داعية مشدود الأعصاب : متعصب .. بينما دينه يدعو إلى التسامح . . بينما خصمه الماكر : يُظهر التسامح . . ويبطن الغضب .

من هدى السنة:

عاتبﷺ الرجل فى المسجد لما ناداه وهو يصلى فلم يجبه . . وكان شاهده : ﴿ ... إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

ولكنه ﷺ ذهب بوحشة الرجل لما مشى به فى المسجد : إيناسا له.

• • •

مما تجب معرفته

ليس حاسدًا من يريد أن يرتقى إليك .. ولكن الحاسد حقًا هو من يتمنى هبوطك إليه.

ومن الحسّاد من يغتابك .. والغراب أفضل منه : لأن الغربان تأكل الأموات، ولكن المغتاب يأكل الأحياء .

إن أكثر الناس لديهم رغبة فى الإصلاح وقليل ما هم أولئك القادرون على التنفيذ .

أن تقول .. ثم لا تفعل : فأنت فلاّح : يحرث ولا يبذر .. إنه من السهل أن تكون جميلاً ولكن من الصعب أن تكون كاملاً .

دفاع عن الداعية :

وأحيانًا : تخرج الفكرة من « بصيرة » رجل : تخرج : عميقة . خصبة . واسعة..

ولكن البعض يستقبل هذه الفكرة « ببصره » ومن ثم لا يستطيع استيعابها بالنظرة المجردة . ومن أجل ذلك .. قد ينكرها .. ويجهد نفسه فى مقاومتها.

فتجاوز عن الهنات .. منتفعًا بما فى نفس المخطئ من آيات بينات

ولكن بعض الدعاة قد يقع فريسة الحمق .. حين يشتد فيفر الصيد من بين يديه .. فكان هذا الرجل الذى قيل فيه : لا يغسل النهر خطاياه .. ولو غطس فيه الدهر كله !

وليذكر هؤلاء الدعاة أن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ولم يقل سبحانه إنا « فرضنا » الأمانة .

وإذن : فلا تطلق سهمًا يصعب عليك رده !

يقول عليه السلام : « **فإن لم يستطع فبقلبه** » ، وهو دور إيجابى .. وليس سلبيا .. كما يظن المتسرعون .. وإنما معناه : أن يظل إحساسك بوجود المنكر حادًّا وأن تظل رغبتك فى إزالته مشتعلة .. أن تظل حاضرة . بل وملحة : تؤرقك بحيث لا تهدأ حتى يزول .

• • •

الحقيقة .. من القرآن

قبل أن يذهب موسى عليه السلام إلى ربه . كان هناك إعداد له : ﴿ **ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ** ﴾[الأعراف:١٤٢] ، بدليل أنه لما أراد « الرؤية » لم يجب إلى طلبه ؛ لأنه لم يكن مستعدًا لها .

ومن أجل ذلك قالوا : كانت الهجرة إلى المدينة بالذات لأن الناس هناك كانوا مستعدين لها .

ثم . وبدليل قوله عز وجل : ﴿ **تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ** ﴾[المائدة:١٠٦] .

• • •

من مسئوليات الداعية

إذا أراد الإنسان أن يرتفع .. فعلى عمد ثلاث :

١ ـ أن يعتقد أنه ملك يمشى على الأرض .

٢ ـ وأن أمته أشرف الأمم .

٣ ـ وأنه نازح إلى عالم أرقى .

وأعداؤنا يحاولون تحطيم هذه القواعد فى أنفسنا بمختلف المذاهب .. فلنحذرهم .

إن الداعية موضوعى :

أ ـ لا يتعصب . ب ـ يعود للحق إذا وضح .

جـ ـ لا يعمم الحكم . د ـ منصف.

من هدى السنة :

كان ﷺ يثنى على صحابته كل بما هو أهل له . . وكان مديحه أوسمة يضعها على صدورهم . . وهى أوسمة باقية . . وليست كأوسمة الدنيا .

* * *

آثار إهمال الدعوة

إهمال شعيرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : إن غياب هذه الشعيرة يعنى: ضياع الدنيا . وضياع الآخرة معا . . يقول ﷺ : « **لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم : ولتأطُرنّه ـ تجبرونه ـ على الحق أطرا. أو ليضربن الله بعضكم ببعض ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم** » .

من أسباب نجاح الدعوة :

١ ـ اتفاق العلماء والأمراء .

٢ ـ تحقيق بعض النجاح أوّلا ؛ لأن ذلك يشجع على الاستمرار.

٣ ـ وفى هذا الجو : تتهيأ البذور فى الخفاء للنماء .

من أسباب تراجع الدعوة :

١ ـ الاشتغال بالمصالح الخاصة.

٢ ـ الفهم الضيق .

٣ ـ الشكوى من الأقوى .

والعلاج هو : نقد الذات : بحثا عن أسباب التخلف ، بدل التباكى : نقول

«نقد الذات » و « جلد الذات » ثم التعاون على ما نتفق عليه . ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه .

والانتقال من خطاب « التدمير » إلى خطاب « التنوير »

• • •

إلى كلمة سواء

بعض المغرضين يتهم المسلمين بأنهم :

إرهابيون . متخلفون وبلا حضارة .

مع أن حضارتهم بنيت على حضارة الإسلام .

ومن الحق أن يقال : أن رواج هذه التهم راجع إلى أننا باختلافنا . . ضعفت قوتنا حتى صرنا قابلين للاختراق . .

ومن صور اختلافنا قول أحدهم : فلان . . تاب من « الوهابية » ورجع إلى «بوذيته » ؟!!

فشت الجهالة واستفاض المنكر فالحق يهمسُ . والضلالة تجهر !!

وهكذا أعداء الحق . . يمارون ومن مرائهم : أنهم يرسمون من آرائهم حدوداً للحقيقة . . وهم أحوج الناس إلى التعلم: لقد جعلوا الحسَّ مقياسًا .

ويعني ذلك : أنهم لا يدركون من المعقول خلف السطور شيئًا ، وهو فرار من مسئولية الإيمان . . لأن الإيمان مسئولية .

إن اللصوص . . يضعون ميثاق « شرف » ! لا يخونونه ، واللص وهو يدير مفتاح الخزينة ليسرقها يقول : بسم الله، فأجدر بحراس العقيدة أن يكونوا أوفياء . .

لكن بعضهم يؤثر أن يؤتى الإسلام من قبله . . وهو يظن أنه يخدمه . .

ومنهم ذلك الذى شنع بصورة فتاة من أجل كشف رأسها ـ ساعة واحدة ـ ليلة الزفاف .. وكانت قبلها « محجبة » وبعدها محجبة !! ولكنه المزاج الدموى يسول لصاحبه أن يفتح النار .. على هذه الفتاة بالذات .. لأن أباها « شيخ كبير »!

• • •

من أخطاء المنهج

من مظاهر خطأ المنهج :

أ ـ أن نتصور أن تطبيق الشريعة يعنى : إسقاط كل المذاهب بمعنى أن من ليس معنا فهو علينا .

مثال :

والواقع غير ذلك : فقد يكون لدى « الآخر » حسن ظن بنا ، فهو معنا وإن لم يكن علينا ، قال « ابن مقرِّن » لقومه : يا قوم ما سمعنا عن محمد إلا خيراً ، ولا سمعنا من دعوته إلا إحسانًا ، فما لنا نبطئ عنه . والناس إليه يسرعون .

وقد كانت هذه السَّنة ضعيفة بالغيث .. واستحيى الرجل أن يفد على الرسول ﷺ بيد فارغة ، فجمع من بيوت إخوانه غنيمات .. وساقها .

ولقد سُرَّ ﷺ سروراً عظيمًا : فقد كان الوفد يضم : أحد عشر أخا للنعمان مع أربعمائة فارس ..

ثم كان لهم فى الجهاد قدم صدق : ففى فتح مكة ؛ كان النعْمان صاحب لواء « بنى مزينة » وكانوا ثلث الجيش .

وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه .. وقفوا معه وقفة صامدة ضد المرتدين ؛ كان النعمان .. على ميمنة الجيش ، وكان أخوه عبد الله على ميسرته ، وأخوه «سويد» على الساقة ، ولقد أبلوا جميعًا بلاء حسنا .

وفى خلافة عمر رضي الله عنه : كان النعمان هو المتحدث باسم الوفد العسكرى فأحسن عرض القضية .. وذلك بعد أن استأذن من رفاقه ليكون المتحدث باسمهم .

• • •

من المفارقات العجيبة

أن الجماعات الإرهابية هناك .. فى أرض « الديمقراطية » من مثل :

١ ـ منظمات العمل المباشر .. فى فرنسا .

٢ ـ الألوية الحمراء .. فى إيطاليا .

٣ ـ الجيش الأحمر .. فى اليابان .

وهم يقولون : « إن الديمقراطيات لا تتحارب » .

ونقول : إن الفعل فعلهم أعلى صوتا من قولهم .

فالحرب العالمية : الأولى والثانية .. كلتاهما دارت رحاها على أرض أوروبا «الديمقراطية » ؟!.

• • •

والحق غير ما يهرفون

عندما تراجع الخطر الشيوعى .. ظهر « الخطر » الإسلامى .. والذى جمّع كل الأعداء علينا ولقد سوّل لهم وأملى لهم :

أولاً : تفوقهم العسكرى .

وثانيًا : تقدمهم العلمى .

وثالثًا : ما رأوا من سلبياتنا .. والتى أطمعتهم فينا .. فامتدوا فى فراغنا .

وصار المنطق عندهم هو : أن الحقيقة هى : ما يخرج من فم البندقية ! فصار

تكييف القضية على النحو الآتى : العنف . . والعنف الآخر ، وليس الرأى . . والرأى الآخر !!

إن الأمر بالقتال فى القرآن : « قاتلوا » لا يجعل من الجهاد فى الإسلام إرهابًا . . وقتلا للأبرياء والأقباط المسالمين ، وإنما مجرد ردع وتخويف .

• • •

وهذه آثار فأسهم

طاغية يدعى نابليون بونابارت ، تصوره كتب التاريخ عبقريا لامعًا وقائدًا ملهما بالرغم من هزائمه المخزية فى مصر وروسيا وترافالجار وووتولو ، و بالرغم من أنه تركهم يمسكون به ويحبسونه كجرذ ضئيل فى مصيدة حقيرة فى مكان لا يليق بنشال . هذا المأفون أراد أن يتزوج أخت قيصر روسيا ألكسندر الأول ، ولكن الأخير رفض وتحالف مع أعداء نابليون الإنجليز . وهكذا جَنّدَ الإمبراطور العظيم جيشًا من نصف مليون من شباب فرنسا وإيطاليا ، وانتهت به عبقريته التاريخية إلى أن يعود بحفنة منهم لا تجاوز أربعة من كل مائة ! يعنى أهلكهم من الجوع والبرد والجراح المميتة وعاد يجر أذيال الخيبة ولا يخجل من أن يظل تاج الإمبرطورية على رأسه .

هل كان هذا زمنا سحيقًا ؟ أبدًا ، حدث هذا منذ أقل من مائتى سنة وفى القرن الذى يسميه علماء التاريخ والحضارة « عصر التنوير » أو على وجه الدقة ، بعد انتهائه بسنوات قليلة .

ولا ننسى أنه بعد مائة سنة من ذلك دخلت شعوب أوربا ـ التى كانت آنذاك قد تربعت حضارتها على عرش المعرفة والتنوير ـ فيما أسموه الحرب العظمى ، كانت الفيران تهاجم آلاف الجرحى فى خنادقهم وتفترسهم وهم لا يزالون أحياء ، وكانوا يموتوا وعيونهم تعبر عن الهلع من هول ما هم فيه .

كل هذا من أجل أطماع الحكام ، فما الفرق بين هذا وبين ذبح الأطفال قربانا

للحكام المتألهين ؟ ثم بعد تلك الحرب بعقدين من الزمن رأينا الفاشيين من الألمان واليابانيين يعبرون عن تفوقهم بالاستهانة بكل ما نؤمن له من خير وعدالة وقيم حقًا ، ماذا فى إبادة الضعفاء والأذلاء والمتخلفين ؟ ألن يكون هذا هو الطريق إلى عالم أكثر قوة وتقدمًا ؟ ليس هناك جديد فى هذا . . ففى محاورات أفلاطون ، نجد السوفسطائى ثراسيما خوس يقول : « إننى أعلن أن القوة هى الحق ، وأن العدالة هى ما يحقق مصلحة الجانب القوى . إن مختلف أشكال الحكومات تسن القوانين ديمقراطية ، أرستقراطية ، أوتوقراطية طبقًا لما ترى أنه يحقق مصالحها . وهى تفرضها على الشعوب بوصفها هى العدالة ، وتنزل العقاب بمن يخالفها بأن تصفه بالظلم والافتراء » .

من حق الفرد المفكر ، مثل نيتشه أن يرى أن العدالة ليست سوى منطق العبيد، وأن الضعفاء والعجزة هم الذين يشغلون أنفسهم بها ، إلا أن أناسًا عاديين ، مثلى ومثلك ، تثور نفوسهم وتضطرم جوانحهم لما حدث لابن المقفع ، وللمصير التعس الذى لقيه شباب أوربا على أيدى مخلوقات تمشى على قدمين ، مثل نابليون وموسولينى وستالين ، كما أن المفكرين : من أفلاطون إلى روسو ولوك وكانط ومور ، قد شغلوا أنفسهم بقضية الأخلاق والعدالة . وقد رأى أفلاطون أن جميع أفعال البشر تأتى من ثلاثة مصادر : الغريزة ، والعاطفة ، والمعرفة ، وأن أهم ثلاثة أشياء فى حياتهم هى : العدالة ، والجمال ، والحقيقة (وكم يتفق هذان التصنيفان !) وأراد أن يضع تعريفا للعدالة ، فهى عنده « أن يؤدى كل فرد ما عليه ويأخذ ما يستحقه » حقًا مسألة غاية فى الوضوح والبساطة! والآن ، وبعد انقضاء ما يقرب من خمسة وعشرين قرنًا ، نجد الفيلسوف الأمريكى جون رولز يقدم تعريفًا للعدالة قد لا يضيف كثيرًا ، وإن كان هذا يأتى فى بداية مؤلفه الضخم « نظرية فى العدالة » ، وقد لا يكون الإنصاف أن نغفل التعريف عن هذا السفر الضخم:

« العدالة هى أولى فضائل المؤسسات الاجتماعية ، وهى بالنسبة لها ما تمثله

الحقيقة بالنسبة إلى المنظومات الفكرية النظرية ، مهما تتصف بأنها جذابة واقتصادية ، تكون جديرة بالرفض أو بالتعديل إذا كانت غير صادقة ، وبالمثل فإن القوانين والمؤسسات تستحق الرفض أو التعديل إذا كانت غير منصفة . إن لكل فرد حقه فى ألا ينتقص منه أو يعتدى عليه ، وهو حق يتأسس على العدالة ، ولا يجوز لشيء أن يتخطاه بما فى ذلك حيز المجتمع ككل » . .

حسنًا ، تعريف مقنع ، لولا أنه يستخدم كلمة « العدالة » مفترضًا أننا نعرف مضمونها . . فإذا لم نكن نعرفه فإنه يلزمنا تعريفها ! وهو ـ على أى حال ـ يسرع فيضيف أن الاتفاق ـ بدرجة أو أخرى ـ على مفاهيم العدالة قد لا يكون كافيًا ، فهناك « مشكلات اجتماعية أسياسية » مثل « التنسيق » (وهو ما يستخدمه أفلاطون أيضًا فى حديثه عنها) و«الكفاءة» و«الاستقرار» ونراه محقًا فى هذا تمامًا، فالمساواة بين جميع الناس أفرادًا أو جماعات قد تخل باستقرار المجتمع وبكفاءته طبعا ، وهو يمضى فيقول إنه لا يكفى للمجتمع أن يكون جاهدًا فى تحقيق خير أفراده ، بل يجب أن تتوافر فيه خاصيتان هما :

١ ـ أن يكون كل شخص راضيًا عن مبادئ العدالة نفسها المقبولة من الآخرين ومدركًا لها .

٢ ـ ثم أن تكون المؤسسات الاجتماعية الأساسية عاملة على تحقيق هذه المبادئ ومعروفًا عنها أنها كذلك . . حسنا وما المبادئ ؟ إنه يأتى بمبدأين :

الأول :أن يكون لكل شخص الحق نفسه فى الحريات الأساسية وعلى أوسع نطاق يشمل هذه الحريات ، والثانى ، أن تكون حالات عدم المساواة مرتبة ، بحيث يكون من شأنها تحقيق خير الناس جميعًا ومرتبطة بالمراكز والمواقع التى هى متاحة أو مفتوحة للجميع .

لا نظن أن مركز أبى جعفر المنصور أو نابليون كان متاحًا لغيره فى زمانه ، وقد نستطيع أن نخلص من هنا إلى ضرورة عدم انفراد شخص واحد بالسلطة ،

وفى الزمن الذى نعيشه الآن قد أصبح واضحًا أن المشاركة فى صنع القرار لم تعد عملاً يصلح له أو يقدر عليه فرد واحد بعد أن اتسع نطاق المعارف والخبرات إلى حد ضرورة الأخذ بالآراء العديدة والمعلومات وإدخالها فى الحاسوب وإعادة التأمل فى النتائج ، قبل أن نرسل الحملات على طريقة نابليون فى مصر وروسيا ، ونعود بالخيبة نفسها ، ليس هذا جديدًا على كل حال ، بل إنه إذا كان دبشليم الملك يستشير بيدبا الفيلسوف فمن باب أولى أن يحاكيه حكام زماننا . الديمقراطية إذن ليست قضية عدالة فحسب ، بل هى قضية علمية وتقنية فى المقام الأول ، سننقل كلمة واحدة أخيرة عن الدكتور رولز قبل أن نمضى فى طريقنا نحن :

« إن هدفى هو أن آتى بمفهوم للعدالة يهيئ بديلاً لمذهب المنفعة يكون منظوميًا بدرجة معقولة ، هذا المذهب الذى ساد الفكر السياسى الأنجلو سكسونى زمنًا طويلاً ، والسبب الأساسى فى سعيى لإيجاد هذا البديل هو شعورى بما يتصف به مذهب المنفعة من الضعف وعدم الكفاية كأساس للديمقراطية الدستورية . وأنا لا أرى بصفة خاصة أن النفعية تصلح لأن تهيئ إقرارًا نافعًا للحقوق والحريات الأساسية للمواطنين بوصفهم أفرادًا أحرارًا ومتساوين ، وهو أكثر الأسس التى تقوم عليها المؤسسات الديمقراطية أهمية » ، ثم « ونحن أحيانا ننسى أن كبار مفكّرى النفعية مثل هيوم وآدم سميث وبنتام وستيوارت مل ؛ كانوا منظرين اجتماعيين واقتصاديين فى المقام الأول ، وأن التعاليم الأخلاقية التى جاؤوا بها تأتى فى الإطار الذى يخدم أهدافهم التى هى أوسع نطاقًا منها » ، ثم « النتيجة النهائية هى أننا كثيرًا ما نبدو مجبرين على الخيارين ـ النفعية والحدس ـ كأساس نبنى عليه مفهومنا وممارستنا للعدالة » .

هذا هو شأن الفلاسفة كما نعرف ، إنهم يهيئون لنا آفاقًا من المتعة الفكرية لا حدود لها ولا نهاية نستغرق فى المتعة والصفاء و «الحدس» ولكننا لا نخلص من هذا إلى « منفعة » عملية ، وهم صادقون مع أنفسهم ومعنا ، فهم لا يزعمون أبدًا أنهم حلالون للمشكلات ، بل على العكس ، وظيفتهم هى إثارتها وإشعارنا بها .

من هذا الغموض ـ بصفة خاصة ـ قد يمكننا أن نحط على أرض الواقع كالمظليين أو هواة « الغوص من السماء » ، داعين الله أن نقف على أقدامنا سالمين نوعًا بدلاً من : « ما العدالة ؟ » ، قد يكون أفضل أن نتساءل : « لماذا نريدها؟ »، ثم ـ وهو الأدهى ـ « كيف نحققها ؟ » ، وهنا لابد أن نسأل أنفسنا ، « ومن نحن ؟» الذين نريد أن نحققها ؟ نحن الذين نضع الدساتير ، أو نطالب بها ، وليس الذين يأتون من غياهب الاضطرابات والقلاقل ، وأحيانا من أعماق الوحل وأغوار الجهالة .

● ● ●

مسئولية الداعية

من السلبيات :

أ ـ عدم مراعاة الأولويات .

ب ـ والإسراف فى مدح الإسلام .. حتى حسب الأعداء أنه من المستحيل التقاؤهم مع الإسلام فى أفقه هذا العالى .. مع أنه إنسانى النزعة .

ومن معانى ذلك : أن الخلل قد يكون عندنا نحن : فقد لا يستطيع الداعية أن يثبت جدارته لعجز أو تشويش . وقد يستطيع إثبات ذلك .. لكنه عاجز عن حُسن عرض قضيته .

فإن سلم : فأثبت وجوده فكان قدوة .. وأظهر حقائق الدعوة .. تمّ له ما أراد .

وهذا بعض ما يشير إليه قول النعمان بن مقرّن الآنف : والذى واصل حديثه مع قومه قائلاً : أما أنا .. فقد عرفته ، وسأغدو إليه إذا أصبحت : فمن شاء منكم أن يكون معى فليتجهز .

وتأسيسا على ذلك : فالداعية مطالب بما يلى :

أ ـ تأمل الخريطة العالمية .

ب ـ أين موقعنا من هذه الخريطة .

جـ ـ إذا كنا تقدمنا زمنًا . . فما هو السبب ؟ وكذلك : سبب تأخرنا .

د ـ الوعى بما يحدث من حولنا . . فراراً من العزلة التى تهدم الجسور بيننا وبين بقية الشعوب . فلا يكون هناك تواصل . ولا جسور ممتدة .

● ● ●

لا ثأر فى الإسلام

وذلك واضح من قوله عز وجل على لسان يوسف عليه السلام : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩] .

ذلك بأنه : ﴿ لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] .

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

[ولا يزول اليقين بالشك والحق لا يزول بالظن]

ولكن هذه القاعدة معرضة للضياع فى زمان تداخلت فيه الخطوط . واختلطت الخيوط .

يقول ابن القيم : « اعلم أن الشريعة : عدل كلها . وقسط كلها ورحمة كلها، وإن كل مسألة خرجت من العدل إلى الظلم . ومن القسط إلى الجور . ومن الرحمة إلى ضدها : فليست من الشريعة . وإن أدُخلت فيها بالتأويل » .

أما بعد :

فإلى : حرية الفكر ، لا حرية الكفر !

من الجلاد . . إلى الجدال . . إلى الأشواق . . لا الأشواك .

● ● ●

شهادة الواقع

مدخل :

ومالنا نذهب بعيداً . . والواقع شاهد برفض الإسلام فكرة العنف . . وكيف دخل الناس فيه أفواجا . . وتحت راية السلام . . وبلا إكراه .

• • •

بيعة العقبة ودروس فى الدعوة .. بلا سلاح

بعد البيعة الأولى أرسل ﷺ « مصعب بن عمير » ، وكان من بركاته أن لم يبق بيت فى المدينة إلا وفيه مسلم .

وفى الموسم التالى : جاؤوا سبعين رجلا وامرأتين . .

تعليق :

كان القوم يشكلون « قوة ضاربة » تغريهم كثرتهم بالعزلة وترك من جاء ليحج معهم ولكن الذى حدث هو :

١ ـ اندمجوا فيهم .

٢ ـ حددوا مكان اللقاء وهو : العقبة .

٣ ـ وحددوا الزمان أيضًا : جوف الليل .

٤ ـ ثم ساروا واحداً واحداً واثنين اثنين حتى لا يلفتوا النظر .

٥ ـ وقبل أن يتحركوا : تظاهروا بالنوم . . خداعا لمن معهم من المشركين.

٦ ـ فلما غط المشركون فى النوم . . تسللوا كأنهم « القطا » يعود إلى عشه. . فى هدوء .

٧ ـ جاء ﷺ ومعه عمه العباس ـ وكان مشركًا ـ فبين لهم مسئوليتهم وخطورة الوضع .

قال الوفد :ائذن لنا يا رسول الله أن نميل على قومنا بسلاحنا . . فرفض ﷺ . . مع حاجته إلى ذلك قائلا : «**لم نؤمر بقتال** » .

الداعية : كحّال : أم طبيب عيون ؟!

• • •

مسئولية الكلمة

ليس كل ما يُقرأ يقال . .

وليس كل ما يقال . . جاء وقته . .

وليس كل ما جاء وقته . . حضر أهله . . فقدر لكلمتك . . وقتها . . وأهلها . . كما تقدر لرجلك قبل الخطو موضعها . .

قال مالك : « خَرَجَتْ منى أحاديث . . لوددت أنى ضُرِبتُ بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها » [١] .

وكان الشافعى يقول :

أأنثر دُرا بين سارحة النَّعم ؟!! أأنظم منثوراً لراعية الغنم ؟!!

قال ابن عباس لرجل سأله عن معنى آية : « وما يؤمنك أنى لو أخبرتك بتفسيرها كفرت » ؟

لا يريد الكفر بالله ـ ولكن يريد : جحدت ما أقول وأنكرته [٢] .

• • •

(١) تاريخ المذاهب (٣٨٠) لأبى زهرة .

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٣٧) .

الفصل السادس

من وسائل الدعوة الحوار

تمهيد فى سنّة الاختلاف :

التنوع ظاهرة كونية : إن من القوانين الراسخة : « قانون التنوع » وهو باق. . ماضٍ حكمه فى المجتمعات البشرية .

إن لكل منطقة ظروفها . . وثقافتها . . وعقائدها التى تفرض عليها تطوير أسلحتها للدفاع عن مصالحها .

ومن أجل ذلك كان لابد من الاختلاف : الاختلاف الإيجابى ، والذى يعنى اختلاف التنوع والتكامل ، وليس اختلاف التضاد والتعاند .

يقول أحد الكاتبين : أنت وأنا صديقان اختلفنا . وعندى أسباب وجيهة وعندك أيضًا . ورأينا أن التباعد أسلم . فابتعدنا . . وظللنا نتباعد حتى رأيتك صغيرًا ورأيتنى ضئيلا . ونحن ما نزال صديقين . . وكلانا حزين على هذه الجفوة والفجوة .

وحزننا على ذلك معناه أننا نريد أن نعود كما كنا . فليس بين الأصدقاء إلا الاتفاق والاختلاف . والاتفاق أقوى . والمحبة قادرة على تذويب العيوب . ولا أحد يخلو من العيوب . وسوف تبقى الخلافات والاختلافات والعيوب . . فالصداقة الحقيقية هى التى بين اثنين رغم العيوب . . فماذا تعمل ؟

أن نتقارب من جديد. . وأن نقترب وأن نعيد حكاية كل ما حدث بيننا . وإذا أعدنا ذلك ، فمعناه أننا عدنا إلى بعضنا البعض . . فإذا عدنا اتخذت كل الأشياء حجمها الصحيح ووزنها الحقيقى ومعناها النبيل . فكيف عدنا ؟ عدنا لأننا استمعنا إلى بعضنا البعض .

سمعتك تقول . . وسمعتنى أقول . سمعتك تفسر وسمعتنى أبرر . ورأيتنى بعينيك لا بعين غيرنا ، ورأيتك وسمعتنى مباشرة لا عن طريق طرف ثالث . هل أنت غلطان ؟ نعم . هل أنا غلطان ؟ نعم . فأنت غلطان وأنا غلطان .

وبعد هذه التصفية السريعة الصادقة النبيلة ، نعود صديقين . فالحياة بلا أصدقاء صعبة . ومن الممكن أن يكون له ألف صاحب وعشرة أصدقاء أو حتى صديق واحد صادق صدوق . هذا الصديق يكفى . . كأنه سرير واحد ومخدة واحدة وجانب واحد . صدقنى : إن صديقًا واحدًا كثير جدًا . فإن أسعدك القدر بصديق واحد فأنت غنى مليونير . فالأصدقاء ـ فى هذا الزمان لا يقدرون بثمن والفلوس ـ لا تشترى قلبا، إنها تشترى عقلا وجسدًا . . مليون عقل وجسد ، ولكنها تعجز عن شراء قلب . والحب يكون بين القلوب ، والصداقة بين العقول، والمنفعة بين الأجساد !

فإذا أنت أحببت صرت غريبًا بين الناس : تكره العذاب وتشتهيه ، تعبد الحرية وتقدس القيود . . فالحب يجعلك المواطن الوحيد فى دولة شمولية . . لأن الحب هو المستبد العادل . ا. هـ .

• • •

كيف نكون .. مع الاختلاف .. متفقين؟!

الخلاف .. والاختلاف

وفى حفل العشاء الختامى لأحد المؤتمرات العلمية دارت مناقشة حادة بين أحد المدعوين العرب وأحد الزملاء ، ترك الضيف العربى المكان على إثرها غاضبًا وكان الخلاف حول رأى اجتهادى للمرحوم الشيخ محمد الغزالى كان قد دونه فى أحد كتبه تذكرت على إثر هذا الحادث مقالا فى صحيفة الشرق الأوسط للكاتب اللبنانى محمد السماك « المختلفون فى الاجتهاد أفضل من المتماثلين بالإكراه » . فقد كان يحمل هذا المقال دعوة إلى تفهم حيثيات الاختلافات الإنسانية وضروراتها

المجتمعية ، فالإسلام له موقف واضح مع الاختلاف معه والاختلاف داخله ، فمع اختلاف الألسن والألوان كان من طبيعة رحمة الله اختلاف الشرائع والمناهج وهو ما أكدته الآية ٤٨ من سورة المائدة : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة:٤٨] . فإذا كان هذا هو موقف الإسلام من الاختلاف داخله ؟ بمعنى الاختلاف الناشئ عن تعدد الاجتهاد فى فهم النص الواحد ، أن مجتمعاتنا تفتقر إلى اكتساب سمة عدم تحويل الاختلاف إلى خلاف فإن الاختلاف لا يعنى بالضرورة أنه يجب أن يؤدى إلى المخالفة . إننا نحتاج إلى أن نرتفع بمجتمعاتنا إلى المستوى الذى نعرف فيه كيف يكون الاتفاق مع الاختلاف وكيف تكون وحدة المختلفين فى الاجتهاد أفضل وأجدى وأغنى وأجمل من وحدة المتماثلين بالإكراه .

● ● ●

معارك المثقفين فى نظر الأدباء

معارك المثقفين : قد تصيب بجراح .. ولكنها أبداً لا تقتل .

قد تُشعل النار .. ولكنها أبداً لا تحرق ..

ففى هذه الحروب : يكون الطعن بالكلمات .. والذبح بالحروف والألفاظ .. كل طرف لديه ترسانة من الصور الخيالية .. والمحسِّنات البديعية . يصوبّها بدقة نحو الطرف الآخر .

ثم يتلقى ضربات مماثلة : من السجع . والطباق . والجناس !

وتنتهى المعركة فى كثير من الأحيان .. دون منتصر ولا مهزوم .. ليكتشف الجميع فى النهاية أنها كانت بلا سبب .. وبلا هدف سوى استعراض مذاهب الخطابة .. وإحياء ذكرى سوق عطاظ [1].

---

(١) الأهرام : أنيس منصور

يختلفون .. وهم مؤتلفون

معن بن عديّ :

لما مات الرسول ﷺ بكاه الصحابة قائلين : ليتنا متنا قبله حتى لا نفتتن بعده . .

ولكن « مَعْنًا » قال : ولكنى رغبت فى أن أعيش بعده حتى أصدقه حيًا وميتًا ! !

إنها وجهة نظر مختلفة . . لكن القلوب مؤتلفة (١) .

• • •

اختلفوا .. لكنهم ائتلفوا!!

قال رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه : ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين أحب أن أكون من المقربين . .

فقال ابن مسعود : ولكن هناك رجل ـ يعنى نفسه : يود لو مات . . لم يبعث !!

وانتهى الحوار مؤكدًا أن الموقفين ـ على اختلافهما ـ يصدران من مشكاة واحدة . . فكلا الرجلين مشغول بالآخرة !

وقد اختلف ابن عباس وزيد بن ثابت رضى الله عنهما . . إلا أن أحدهما كان يجلّ الآخر . . رغم بعد المسافة بين الرأيين .

فقد كان ابن عباس يقول : الجد كالأب : يخرج الإخوة من الميراث .

وكان زيد لا يسقطهم . ومع ذلك تعايشا . . « إنها قلوب شاء الله تعالى أن تتلاقى رماحهم » .

---

(١) ذهب رجلان للإسكندر ليحكم بينهما فقال : إن حكمى لن يرضى أحدكما فاذهبا . . وليقصد كل منكما الحق . . ويطلبه فهو وحده الذى يقضى بينكما ويغنيكما عنى !!.

ولكن النور ظل ينير قلوبا عجزت الفتنة أن تغشاها .

لقد استمعوا .. فوعوا ما استمعوا :

ومِنَ الذى استمعوه قوله ﷺ : « **اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإن اختلفتم فيه فقوموا** » . متفق عليه .

ومن معانى ذلك : إذا اختلفتم فى المعانى .. فقوموا .. إلى أن تزول الحدة ويذهب الانفعال . ثم يكون الحكم عندئذ صائبا .

● ● ●

لماذا اختلفوا .. ولماذا ائتلفوا

أما اختلافهم فكان لأسباب منها :

أ ـ اختلاف التربية .

ب ـ والنشأة .

جـ ـ والطباع .

وأما ائتلافهم : فلأن هدفهم واحد .. وكل جهد لأحدهم يصبّ فى هذا الهدف الواحد محققا غاية كل الأطراف المعنية .

وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف:٦٧] ، فالمتقون يد على من سواهم .

فإذا اختلفوا فسرعان ما يأتلفون .. ومن قريب : ذلك .. بأن الهدف واحد والمهم أن يتحقق .. لكن لا يهمنا على يد مَنْ تحقق ؟!

● ● ●

من معانى اختلاف الصحابة

إنه وبعد وفاته ﷺ . . كان اختلافهم أمرًا متوقعًا . .وذلك بأن الرسول ﷺ كان عظيمًا . . وعندما يموت العظيم فإنه يترك من بعده فراغًا لا يملأ بسهولة . .

فإذا كان العظيم هو محمدًا ﷺ فإن الفراغ يكون أكبر . . ومن ثم يكون ملؤه أصعب . . فإذا تصورت أن من أصحابه من كان يظن أن الرسول لا يموت ـ كعمر رضي الله عنه . . إذا تصورت ذلك . . تبين لك كيف كان الخلاف من بعده متوقعًا . .

لكنه الاختلاف الذى لا يفسد للود قضية .

● ● ●

من صور اختلاف الصحابة

روى علماؤنا عن الزهرى : أن عمر رضي الله عنه استعمل قدامة بن مظعون على البحرين فقدم الجاورد على عمر فقال : يا أمير المؤمنين إن قدامة شرب فسكر فقال عمر رضي الله عنه : من شهد معك ؟ قال : أبو هريرة . فدعا أبا هريرة فقال بم تشهد ؟ فقال لم أره شرب ولكنى رأيته سكران يقىء ، فقال عمر رضي الله عنه لقد تنطعت فى الشهادة . . ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم . فقال عمر: لقدامة إنى حادك ؟ فقال : لو شربت كما يقولون ما كان لكم لتجلدونى . فقال عمر رضي الله عنه : لِمَ ؟ قال قدامة : قال الله عز وجل : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا** ﴾ [المائدة:٩٣] ، قال عمر رضي الله عنه : أخطأت التأويل إن اتقيت الله اجتنبت ما حرم عليك .

لا بأس من الاختلاف . . ولا بأس من الاتفاق

فقد اختلفوا . . لكنهم فى النهاية اتفقوا . . على بعد ما كان بينهم . . ففى تاريخنا الإسلامى ما يعرف :

بشدائد عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، ورخص عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

فالاختلاف وارد ما دامت زوايا الرؤية مختلفة .. وما دام الباحث لا يتبع هواه . ولا هوى غيره من حزب أو جماعة ..

العالم المتبع أهواء الجمهور أشد خطرا على الدين من العالم المتبع هوى السلطان : فإن متبع السلطان سرعان ما ينكشف أمره .

أما الآخر : فهو فى ظاهره : متحمس للدين .. فلا يكتشف إلا بصعوبة والعامة بالذات لا يكتشفون أمره ويقعون فى أسره .

٢ ـ صبيغ وفكره وحبسه وضربه وعزله وإذلاله :

عن نافع : قدم المدينة رجل فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وأعد له عراجين النخل فقال : من أنت ؟ قال أنا عبد الله صبيغ قال : وأنا عبد الله عمر فضربه حتى دمى رأسه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى ثم نفاه إلى البصرة (١) وفى رواية : « وكتب إلينا عمر: لا تجالسوه فلو جاء ونحن مائة لتفرقنا » . وفى رواية أخرى « فلم يزل صبيغ وضيعًا فى قومه بعد أن كان سيدا فيهم » (٢) ، وهذا الحكم المعتدل من عمر والمتمثل فى ضربه ومنع الشباب من مجالسته ونبذه ، يدل على مدى عناية الراشدين بالفكر السليم ، وأن من جاء بفكر مشوه غريب لا يسامح .

٣ ـ قصة الجوينى مع العلم وعودته لدين العجائز بعد فكر مختل :

عن الفيروز آبادى (عن الجوينى قال : قرأت خمسين ألفا ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم وعلومهم ،وركبت البحر الخضم وغصت فى الذى نهى أهل الإسلام كل ذلك فى طلب الحق وكنت أهرب فى سالف الدهر من التقليد والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز فإن لم يدركنى الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز) (٣) .

---

(١) الدارمى (١/ ١٩٨)

(٢) مجمع الزوائد (١/ ١٩٨)

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧١) .

المتعالون بالمعرفة يقصدون ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل :

قال القرطبى عند قوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ [آل عمران:٧]قال : متبعو المتشابة لا يخلو أن يجمعوه طلبًا للتشكيك فى القرآن وإضلال العوام كما فعلته الزنادقة والقرامطة ، لاعتقاد ظواهر المتشابة كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم وصورة مصورة .

والسائل إن كان يبغى بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير ، وإن لم يكن مقصده فقد استحق العتب ، إذ أوجد للمنافقين الملحدين فى ذلك الوقت سبيلا إلى أن يقصدوا ضعفة المسلمين بالتشكيك فى القرآن ، ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ [آل عمران:٧] طلبًا للشبهات واللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم ويردوا إلى زيغهم[١] .

• • •

آخذون بالرخصة .. وبالعزيمة

وذات يوم : كان الصحابة رضوان الله عليهم معه ﷺ فى سفر ، وكان منهم الصائم .. ومنهم المفطر .

ثم كان يوم حارّ : فقام المفطرون بخدمة الصائمين .. فقال ﷺ : «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**» !!

ثم جاء من بعدهم رجال على سمتهم :

أيضًا : اختلفوا .. لكنهم ائتلفوا .

كان مالك وأبو حنيفة يريان : أن الرضاع قليله .. وكثيره يحرِّم .. لأن القرآن علق التحريم بمطلق الرضاعة .

---

(١) تفسير القرطبى (٤/ ١٥) .

وكان الشافعى وأحمد يريان : خمس رضعات مشبعات .

وكان أحمد يرفض هدايا الولاة .. وكان غيره من الفقهاء يقبلها بحجة أن «الجندى » حارس الوطن .. وهو حارس الحق .. فله فيه نصيب .

وكان بعضهم يقبل منصب القضاء من والٍ غير عادل : إحقاقًا للحق .. وكان غيره يرفض ذلك .. ومع كل هذا فقد تعايشوا أما غيرهم : ﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فليست مشكلتهم الجهل : فقد سلحهم الله عز وجل بهذه المدارك .. فما أكثر الآيات المرئية من فوقهم ومن تحت أرجلهم .. ولكنهم لا يبصرون ..

ودلائل الهدى تناديهم ولكنهم لا يسمعون . ولا يبصرون.

وفوق ذلك فهم يملكون قلوبًا .. ولكنها خربة .. ليست مهيأة لفقه ما يبصرون وما يسمعون .

ألا إن مشكلتهم هى التجاهل وليس الجهل .. هؤلاء الذين يجدون ما يقولون.. لكنهم لا يجدون ما يسمعون .

ومع وضوح هذه الحقائق : لكن بعض الناس : يلغى مداركه .. التى هى منافذه لتلقى المعرفة ..وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥] .

فليس العيب فى الآيات.. فالآيات واضحة لائحة ولكن العيب فيهم هم .. وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الأعراف :١٧٩].

وقد تظن الخلاف للوهلة الأولى سطحيًا .. ولكن يروعك ـ بقليل من التأمل ـ ما وراءه من علم : وخذ اختلافهم حول « السواك » مثلا : لقد تساءلوا: هل هو تطبيب ؟

إذن . . فاستعماله « باليمين » .

أم هل هو إزالة للأذى ؟

إذن . . فاستعماله « بالشمال » .

وعندما يكون التركيز على « جذور » القضية . . تتضح أبعادها . . ثم ومع وضوح الرؤية . . يكون الائتلاف بعد الاختلاف .

أما حين تكون النظرة سطحية . . فلسوف يكون « حوار الطرشان ».

• • •

خلاف يفسد قضية الود

على مستوى العالم الإسلامى هناك اختلاف :

١ ـ اتجاه روحى .

٢ ـ اتجاه مادى .

٣ ـ انتماء للوطن وللقومية .

٤ ـ قوى خارجية تعمل فى الظلام .

٥ ـ ثم صحوة إسلامية تطلب القدوة الحسنة .

وفى هذا الجو المشحون بالتوتر تجاهد الدعوة جهاداً كبيراً لتطبيق الإسلام : ومع خلوص النوايا . . لكن هناك عقبات :

١ ـ إحياء النعرات العرقية والمذهبية من مثل : الكردية . والفرعرنية . والأشورية . والسنة والشيعة ، والزيدية والعلوية . . ثم العلمانية .

ومع هذا . . فمازالت الدعوة تشق طريقها منطلقة ، من قاعدة تقول : ليس بالعلم وحده تكون الحضارة . . بل بالإنسان الذى هو العامل الأساسى . . ولا يتم له ذلك إلا بالدين . .

الدين بحقائقه الثابتة . . بعكس العلم الذى يمكن غدا أن يكون ظنيا .

وليس معنى ذلك أننا نريد حكومة إلهية . . وإنما نريدها حكومة إنسانية : تجتهد، وتخطئ . وتصيب. . ذاكرين عتابه سبحانه وتعالى للرسول مسدداً خطاه:

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ [الأنفال: ٦٧] ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ [الإسراء: ٧٤] ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [عبس: ١] ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

إنها حكومة: توزع السكان بالعدل . والركاز بالعدل . حتى لا يكون فقر ولا انفجار .

إنها السلطة التنفيذية . . التى يزع الله بها ما لا يزع بالداعية . . ذلك بأن الداعية مرشد . . وعند ذلك تنتهى مهمته .

• • •

نفثة مصدور

ثم خلف من بعدهم خلف . . لا يزالون مختلفين . . وفى كل ناحية .

حتى انعقدت سحب من الأوهام . . أمطرت القلوب المجدبة . . فأنشأت ناسا متحاربين كأنما دينهم الاختلاف . . مع أنه : دين التوحيد . . والوحدة .

لقد كسبوا المعرفة . . وحرموا أخلاقها . وكسبوا الوسيلة . . وضيعوا الغاية ففاتت الفرائض . .

ويوشك الاختلاف أن ينأى بنا عن الدين مع ما تحمله الآيات من نذير مذموم: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

فهل ورثنا علل أهل الكتاب . . أم ورثنا « الكتاب » ؟!

قل معى هلك المتنطعون لماذا ؟

١ ـ يبالغون فى أمر . . على حساب آخر .

٢ ـ فيعطون الشىء أكثر مما يستحق .

٣ ـ فيختل التوازان . . والتوازن مطلوب ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٧] ، واتباع السنة يحقق هذا التوازن : لأنها تخلق شعوراً وجدانيًا بالألفة .

ثم التعاون . . الذى يشكلٍّ خط دفاع مانع من الانحدار ثم الانهيار.

وويل للمتنطع : إن فهم فهو الفهم المعوج ، والممارسات الخاطئة ، ووسوسة شياطين الإنس . . حتى وصل التعصب ببعضنا إلى أن يقول قائل: كذاب ربيعة . . أفضل من صادق مضر ؟! وهكذا :

قالوا . . بغير علم .

ثم أفتوا . . بغير نور .

وعملوا . . ولكن بلا دليل : يستغرق أحدهم فى جزئية تستغرقه . .وينسى الأصول الجامعة .

وما الظلمة التى يراها إلا ظلمة نفسه .

وهكذا : كلما ابتعدنا عن فقه القرآن . . كلما تغشانا الظلام . . فإلى مزيد من الوعى يكون نوراً بين أيدينا : نمشى به ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[هود:١١٨، ١١٩] .

والمعنى : ولو شاء ربك لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الإصلاح . . فهو قادر على أن يجعلهم كلهم مصلحين ، متفقين على الإيمان . . فلا يهلكهم .

ولكنه لم يشأ ذلك . بل شاء اختلافهم . . فاختلفوا «القضاعى » .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود:١١٨] والمراد : افتراق الناس فى الأديان . والأخلاق والأفعال «الرازى» .

﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ يقول القضاعى : أى الاختلاف . . بمعنى : أوجدهم من العدم وقدرهم .

وذلك : أنه لما طبعهم سبحانه على خلائق من الخير والشر تقتضى الاختلاف لتفاوتهم فيها . . جعلوا كأنهم خلقوا له . فجَرَوْا مع القضاء والقدر .

ولم يمكنهم الجرى على ما تدعو إليه العقول فى أن الاتفاق رحمة . والاختلاف نقمة .

حتى قال أحد التابعين : ما كان يسرنى أن الصحابة اتفقوا !!

يقول ابن تيمية : ولما ذكر الله خلافهم فى عدة أصحاب الكهف قال سبحانه: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف:٢٢] .

فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس مما أطلعه الله عليه فلهذا قال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ [الكهف:٢٢] ، أى : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته .

يقول الشاطبى فى الاختلاف : « إن اختلاف الأحكام . . عند اختلاف العوائد . . لا يعد اختلافا فى أصل الخطاب : لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدى لو فُرض بقاء الدنيا من غير نهاية » .

● ● ●

أهمية الحوار

تمهيد :

لأن الداعية مصلح اجتماعى .. فهو يخاطب القلوب .. وليس القوالب .. ولأنه يخاطب القلوب :

أ ـ فالعنف ليس من وسائله .

ب ـ ولا يكفى أن يبلغ الفكرة مجردة ، ثم يمضى .

إن وظيفته هى :

أ ـ الإقناع .   ب ـ ثم الاعتناق ..

ومن ثم كان فى مقدمة وسائله : الحوار .

الحوار الذى يقنع به المدعو إقناعًا يصل به إلى اعتناق ما دعى إليه .. بعدما صار جزءًا من كيانه يجرى فى دمه .

أما مجرد إيصال المعنى .. فهو إجراء متاح يستطيعه كل إنسان ..

وأما بالعنف فهو قادر على السيطرة على القوالب على الأجسام .. ولكن الباطن غير مقتنع به .. على ما قيل :

تلوا باطلاً .. وجلوا صارمًا   وقالوا : صدقنا ؟؟ فقلنا : نعم !!

أجل : نقول نعم .. لأن السيف فوق رقابنا ..

وأهمية الحوار شاهدها القرآن الكريم :

١ ـ فقد حاور الله عز وجل ـ وهو خالق ـ حاور المخلوق :

أ ـ الملائكة.

ب ـ وآدم .

جـ ـ والرسل .. وحتى : إبليس على ما كان منه من تمرد وعصيان .

ح ـ ثم كان الحوار .

د ـ بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه . وقومه . وولده .

بين : موسى وهارون عليهما السلام ، وبينه وبين « الخضر » .

وبين مريم ، وابنها عيسى عليه السلام .

وكان القرآن فى حديثه عن الحوار : شافيًا ، وافيًا ، كافيًا . . لكل من تدبره وأعاره كل مداركه .

ذلك بأنه : حوار العقول والقلوب . . حوار العقول . . بالبرهان . . لكن العقل وحده لا يكفى . . بل لابد من حوار القلب الذى هو مكمن الرغبة والرهبة . .

ومن أجل ذلك رأينا رسول الله ﷺ وهو الحريص على خطاب العقل لا ينسى هز القلب بعنصر التحذير أو التخويف .

وذلك قوله ﷺ : « **يا بنى كعب بن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار** » .

إن الحوار نوع من أنواع الاتصال الإنسانى . وهو أداة فكرية للوصول إلى أهداف المحاورين .

إن السيطرة الفكرية لمنهج معينّ على حساب المناهج الأخرى تدفع بالمجتمع إلى الانغلاق على نفسه ، مما ينتج عنه نمو اتجاهات معاكسة ، قد تكون متطرفة : تنمو وتكبر فى الخفاء ، دون مراقبة وتوجيه .

فالفكر الحوارى . . الذى يعترف بالتنوع والاختلاف من أجل التعايش والوصول إلى اتفاق حول المشتركات عبر الحوار . . وصولاً إلى أرضية صلبة تبقى الوطن شامخًا ، قادراً على مواجهة الضغوط الداخلية والخارجية لتأسيس قاعدة انطلاق حضارية » الرابطة (٤٦٤) .

ومن معانى ذلك : أنه لابد . . وقبل الدخول ساحة الحوار أن نكون أهلا لهذا

الحوار : بإصلاح أنفسنا . . بذكر عيوبنا . . ذلك بأن محاولة إخفاء عيوبنا لن يذهب بها من قبل خصوم لنا : لهم عيون ترى وآذان تسمع ، وأعصاب تحس ، وعقول تفكر .

ومن ثم فهم قادرون على كشف عيوبنا . .وعندئذ . . فلن يثقوا بنا . .

وكما يختار الإنسان أصدقاءه . . والفلاح بذرته ـ فإنه وبنفس الاهتمام يتخير أفكاره . .

واختلاف مشارب الباحثين . . وتنوع استعداداتهم . . واتجاهاتهم يتيح الفرصة لينتقى كل باحث ما يناسبه . . ليحقق أمله . . ويضيف إلى الحياة الفكرية جديداً . .

ولابد للباحث كخطوة أولى ـ أن يسائل نفسه على النحو الآتى ليتخذ بعد ذلك قراره الذى يطمئن إليه :

عليه أن يسأل نفسه أولاً قبل الدخول ساحة الحوار :

١ ـ هل أنا أحب ذلك الفرع من العلوم ؟

٢ ـ . . . وبالذات هذا الموضوع الذى وقع عليه اختيارى ؟

٣ ـ ثم . . هل المراجع متوفرة . . والحصول عليها سهل ؟

٤ ـ وهل يستحق الموضوع المقترح ذلك الجهد الذى سوف يبذل فى سبيل إعداده ؟

٥ ـ وقبل ذلك : هل ستسمح إمكاناتى بالوفاء له ؟

٦ ـ وفى مدة معقولة ؟

٧ ـ وما مدى إفادة الناس من وراء هذا الموضوع ؟

٨ ـ هل يضيف جديداً إلى المكتبة ؟.

وعلى ضوء الإجابات عن هذه التساؤلات يتحدد الموقف . . مضيًا فى التجربة. . أو عزوفا عنها .

طبيعة البشر

إن اهتمامات البشر تتعدد :

فمنهم من يروج سلعة .

ومنهم من يصحح فكرة . أو يحاول إقناع الآخرين برأيه .

والحوار فى طليعة الوسائل المحققة لهذه الحاجات .

وإذا كانت مهمة الداعية فكرية وجدانية .. فهو أحوج ما يكون إلى الحوار الذى يحقق به فوائد منها :

أ ـ إيصال الفكرة إلى المدعو . ابتداء ..

ب ـ ثم تنامى قدراته الحوارية كلما زادت خبراته .

جـ ـ القدرة على ضبط الأعصاب .. فى جو هادئ .. يرفض التعصب والإكراه . ليكون الولاء للحق وحده . ثم الاستسلام له طواعية . استسلاما نابعًا من أعماق الإنسان نفسه .. لا من خارجه ، وخذ على ذلك شواهد :

سمع جبير بن مطعم رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآيات : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ** ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] .

فقال : « كاد قلبى يطير ، وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى » .

أما الوليد بن المغيرة ، فلم يملك نفسه إثر سماعه لبعض آى الذكر الحكيم أن قال عنه : « **والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله، وأنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وأنه ليحطم ما تحته** » ، لكنه لم يلبث أن زعم أن القرآن الكريم ما هو إلا سحر يؤثر ، مدفوعا بالعناد والمكابرة والحرص على إرضاء قومه المشركين .

قال علماؤنا : تتعدد المشارب فتختلف المذاهب .

قال د/ محمد عنانى : « ترجمت للدكتور / مصطفى محمود ثلاثة كتب ».

ولما سئل : لماذا الدكتور / مصطفى محمود بالذات ، قال : لأنه كاتب عصرى :

أ ـ يخاطب غيره بلغته .

ب ـ وليس هو ممن يسمِّع ما يحفظ !

إنهم يحاولون سرقة الأضواء من الدعاة .. لأنهم عرفوا كيف يحسنون مخاطبة الغير باللغة التى يفهمها .

أجل : قد تتعدد وجهات النظر فى القضية الواحدة .. وذلك لسببين :

أ ـ اختلاف العقول .. واختلاف الأمزجة .

ب وفى نصوص القرآن والسنة ما هو ظنى الدلالة .. بمعنى : أن النص يحتمل أكثر من تأويل ..

وفى الحديث المتفق عليه : أن النبى ﷺ ، قال يوم الأحزاب : « **لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة** » .

فقال بعض الصحابة ـ لما أدركهم العصر فى الطريق : لا نصلى حتى نأتيها.
وقال بعضهم : بل نصلى : لم يرد منا ذلك.

فذكر ذلك للنبى ﷺ . فلم يعنّف واحداً منهم[1] .

والمهم هنا هو : أنه اختلاف وجهات النظر ، لكن القلوب لا تختلف.

وعلى هذا المحور يدور حديثنا عن الحوار كوسيلة من وسائل الدعوة :

أ ـ إن الحق واحد لا يتعدد .. أما الباطل فهو لجلج : متعدد المسارب مختلف الوجوه .

---

(١) فتح البارى (٨/ ٤١١) ، ومسلم كتاب الصلاة .

يقول عز وجل : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ...﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

إن الحق: صراط : لاحب وسيع : ثم هو مستقيم : قليل التكاليف : فوصولنا إلى الهدف عن طريقه سهل ميسور .

فى الوقت الذى يدور فيه المبطلون حول أنفسهم : تتوزعهم الشعاب .. فإذا هم تائهون .. راجعون إلى نفس النقطة التى بدأ منها المسير ..

ومن معانى وحدة الحق : أنه وإن كان واحدًا لا يتعدد ..ولكن ذلك لا يمنع من أن تتعدد زوايا الرؤية .. ومن أجل ذلك شرع الجدل .. والذى يصير حقًا لكل من مارسه متسلحًا بآدابه ، والتى منها :

أ ـ صون اللسان ـ والقلم عن التشويه .

ب ـ احترام الطرف الآخر .

جـ ـ ثم ترك الحديث عن عيوبه مما لا صلة له بموضوع النزاع .

د ـ احترام تجاربه .. وإن لم يكن مسلمًا لمجرد أنها إفراز بيئة غير إسلامية.

وإذا كان الالتزام بهذا الأدب واجبًا إذا كان المجادل مسلمًا .. فإن هذا الالتزام يكون أوجب . لو كان على غير دينى ؟!

والمسموح به فقط هو : وقف الحوار إذا تجاوز الطرف الآخر تجاوزا وصل به الحوار إلى طريق مسدود ! ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة: ١٥٠] .

● ● ●

التحدى الحقيقى

يقول بعض الباحثين : إن التحدى الحقيقى هو كيف ننزل القيم إلى الواقع ؟ هذا هو التحدى الكبير وما قلته لم يكن إضافة جديدة ، والعالم الإسلامى شهد مرحلة مثل هاته التى نمر بها اليوم فى بدايات القرن الأخير من خلال محاولات

التجديد - أعنى بالتجديد ليس فى الدين بل التجديد فى المسلمين . . وفيما أسميه الهندسة الاجتماعية الحضارية ، نحن الآن وبالخصوص فى العشر سنوات الأخيرة نشهد محاولات متعددة للانبعاث . . وهى محاولات مشجعة ترتكز على أساس التعددية فى الطرح والإعداد . وأظن أنها تعددية تمثل روح الإسلام والإرث الحضارى إنها «كنز» .

التعددية شيء جميل يجب المحافظة عليه بكل الوسائل فالإسلام جاء لاحترام الاختلاف ولولا الاختلاف لما كان هناك معنى للاجتهاد . . أى محاولة المقارنة واختيار الرأى الأصوب من عدة حلول ممكنة .

هذه التعددية شيء ضرورى وأساسى لصياغة العمل الإسلامى . . تعددية على أساس التسامح والقبول بآراء الآخرين وحقهم فى طرحها من أجل استقلال وتحريك كل الطاقات . . هاته الطاقات أكبر ذخيرة فى المجتمع . . من خلال دفعها فى اتجاه الخلق والإبداع والابتكار .

• • •

مراتب المتحاورين

يقول العلماء : واعلم أن أهل النظر على طبقات :

فقوم : حقهم الاجتهاد فى التعلم ممن فوقهم ؛ فهؤلاء يجب أن يكونوا سائلين لا مسئولين .

وقوم : توسطوا فى العلم ولم يبلغوا مبلغ الفتاوى .

فهؤلاء تارة يَسْألون ، وتارة يُسألون .

وقوم : تبحروا فى العلم ، وبلغوا مبلغ المقالة والفتوى .

فهؤلاء هم الذين لا يَسْألون ، ويجب أن يكونوا - أبدًا - مسئولين ؟

وقوم : دأبهم التطفل فى المناظرة : يستنكفون عن السؤال ؛ أو لقصورهم

فيه، ولم يبلغوا مبلغ أن يُسالوا ، وربما لا يفهمون أكثر ما يجرى ، ينتظرون فرصة أحد الخصمين على الآخر فيأخذ في الشغب والصياح ، إيهامًا منهم لمن حضر المجلس من العوام وأهل النقض - أنهم من جملتهم - وهم صفر من صناعتهم .فهؤلاء لا يُعَدُّون في جملة أهل الجدل والنظر [1] !؟ ا . هـ .

وعلى المحاور أن يتجاوز مراحل الدعوة هكذا :

قبل الدعوة : العلم ، والفقه .

وأثناءها : اللين ، والواقعية ، والموضوعية .

وبعدها : الثناء على المطيع . والتماس العذر للمخطئ

● ● ●

من ضوابط الحوار

قال الابن لوالده : يا أبت . . أراك تنهانا عن المناظرة ، وقد كنت تناظر ؟

فرد عليه أبوه قائلا : يا بنى : كنا نناظر . وكأن على رأس أحدنا الطير ، مخافة أن يزل صاحبه .

وأنتم تتناظرون ، وكأن على رأس أحدكم الطير . . مخافة أن يزل هو فيغلبه صاحبه !!.

وحتى لا تزل قدم بعد ثبوتها . . وحتى يحقق الحوار أهدافه . . فلابد من الالتزام بآداب وضعها الفاقهون حتى يبلغ الكتاب أجله :

ومن هذه الآداب :

١ ـ الإخلاص : فما دام الداعى يدعو إلى ربه . . فقد وجب عليه أن يكون ناصحًا أمينًا . . بمعنى أن تكون نصيحته خالصة لربه عز وجل . . وإخراج

(١) للحديث صيغ أخرى : رواه البخارى ، حج (٤٤) ، ومسلم : حج (٤٣٩) ، وابن ماجه : فرائض (٦) .

شخصه من معركة الرأى التى يجب أن يخرج منها الحق منتصراً .. مهما كان انتصاره على يديك .. أم على يد خصمك .

وفى هذا يروون عن الإمام الشافعى قوله : « ما ناظرت أحداً إلا وتمنيت أن يظهر الله الحق على لسانه » .

٢ ـ أن يكون الحوار مناوبة .. لا مناهبة .. بمعنى : ألا يستأثر طرف بالحديث .. ولابد أن يأخذ الطرف الآخر حظه فى الإبانة عن رأيه .

● ● ●

الخلاف والمحبة

يقولون : إن كثيراً من الخلاف فى وجهات النظر ـ حتى بين الزملاء والأصدقاء يذهب بالمودة والمحبة ، فاحرص كل الحرص ألا يقع هذا ، واخطب ود أخيك أو صديقك فى كل مناسبة تسنح لك.

زره فى بيته ، هنئه بالمناسبات قدم له هدية ، أثن على الجوانب الجيدة عنده واذكر مزاياه فى حضوره وفى غيابه .

إن المناظرة والمناقشة والحوار ـ فى غالب الأحيان ـ تؤثر على القلوب وتكدر الخواطر ، فتذكر ذلك جيداً وأنت تتحدث . فلا تخرج ـ ما أمكنك ـ معلنا الخصومة على أحد .

وتذكر دائمًا قول الشاعر:

واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية

وقول الشاعر الآخر :

فى الرأى تضطغن العقول وليس تضطغن الصدور

● ● ●

بالإقناع .. وبلا قناع

لقد اختلف الأنبياء طبعا . . بعد الاتفاق على التوحيد .

يقول عز وجل على لسان نوح عليه السلام : ﴿ ... رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦] .

وعلى لسان موسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨] .

وقال عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٣٦] .

وعلى لسان عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨] .

ومن هذه الآداب : « غض الصوت » .

يقول عز وجل : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٩] .

يحسن بالمحاور ألا يرفع الصوت أكثر مما يحتاج إليه السامع فذلك رعونة وبذاء ، والمحاور غير الخطيب الذى يقتضيه بعض مواضع خطابته أن يرفع صوته ورفع الصوت لا يقوى حجة صاحبه ، قط ، وفى أكثر الحالات يكون صاحب الصوت الأعلى قليل المضمون ـ ضعيف الحجة ، يستر عجزه بالصراخ على عكس صاحب الصوت الهادئ الذى يعكس عقلاً متزنا وفكراً منظماً وحجة وموضوعية.

وانظر إلى البحر : تجد الصخب والضجيج على الشاطئ عند الصخور حيث الماء ضحل لا جواهر فيه ولادرر . . وتجد الهدوء لدى الماء الأعمق حيث نفائس البحر وكنوزه ، والمثل الإنجليزى يقول : الماء العميق أهدأ .

وليس معنى ذلك أن تخفض الصوت لدرجة يعجز معها المستمع عن متابعة الحديث وإنما خير الأمور الوسط كما يقولون .

وقد وجد بالخبرة والتجربة أن الصوت المعتدل الهادئ المتأنى من غير صراخ أو صياح ومن غير إسرار وإخفات هو الأدخل إلى النفوس والأنفذ إلى الأعماق والأحفظ لجلال الكلمة ووقار المتكلم.

وكذلك من الأفضل ألا تجعل درجات صوتك على وتيرة واحدة لأن ذلك قد يجلب النوم للمستمعين ولكن يلزم أن تخفض الصوت وترفعه انفعالا مع الحديث فإن لقوة الصوت وخفضه دخلا فى تجديد الانتباه .

وحتى تتم الفائدة عليك ألا تسرد الكلام سردًا بل تجزئه وترتبه وتتمهل فيه ليفكر فيه سامعه . . وقد روى أن كلام رسول الله ﷺ كان فصلا يفهمه من سمعه وأنه إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لتفهم عنه ا . هـ .

● ● ●

أن تعيش للإسلام ولا تعيش به

يقولون : من شروط نجاح العمل الإسلامى تجريد الدعوة من « الغرضية » وتحريرها من إسقاط الهم الخاص ، ولا يكون ذلك إلا بالاحتكام إلى الإسلام بدلا من التحكم فيه . فبعض ممن ابتلى ببعض العادات السيئة أو الممارسات المكروهة بدلا من أن يعترف بضعفه أو تقصيره يلجأ إلى تبرير أعماله بالبحث عن سند شرعى لها . . ويضرب الأستاذ الطيب برغوث مثلا على ذلك بمؤمن لقى زميلا له فسأله عن شخص يعرفه الاثنان . فقال له : لقد انتهى فلان ! فظن السائل أنه قد توفى ، ثم بين سبب انتهائه بالقول : إنه اشترى سيارة !!! وأضاف : إن الذى يريد أن يعمل فى سبيل الله لا يهتم بشراء سيارة !! ثم جاءت فترة فإذا بصاحبنا هذا يقاطع المشى على الأقدام ويشترى هو الآخر سيارة !

وهناك من يلتجئ إلى البحث عن مبررات شرعية يغطى بها فشله ويسوغ بها

وضعه محتجًا بالظروف أو الحكمة .. وربما انجرف لاتهام من يأخذ بالأوجب والأفضل بالتعصب أو الانغلاق !

وقد يحدث العكس حينما يريد الصنف الموفق أن يكون كل الناس على شاكلته من الفهم والالتزام والعمل ، فينعتهم بالتسيب والميوعة ، أو بالضعف والانحراف !

كذلك سلوك بعض الجبناء الذين يستولى عليهم الخوف من كل شيء ، الفقر، المحبة ، الناس ، الأحداث .. وهم يريدون درء ما يضرهم مهما كان تافها، ولو كانت فيه مصلحة عظيمة للإسلام والمسلمين ، فيجهدون فى إثبات ما يبرر مواقفهم ، بل ويحاولون كبح جماح من يريد تقديم مصلحة الإسلام على مصلحته ، والعكس أيضًا موجود ، إذ هناك فئات تهوى المغامرة وتشنع بمن لا ينحو نحوها فيها .. وآخرون يسقطون همهم الخاص على الهم الإسلامى العام ، فينتصرون لأنفسهم حتى تدفعهم هذه الحالة إلى الخروج عن الجادة فتشيع الفرقة وتتشتت القوى وتهدر الطاقات ، وهنا يجىء سؤال : لماذا هذا التحكم فى الإسلام؟! ا . هـ .

١ ـ افهم جيدًا كل ما يقوله خصمك ، ثم لخصه بدقة وأمانة .. ثم قل له : ألست تقول كذا ؟ وذلك حتى لا يشوش عليك المبطل لدى الحاضرين.

٢ ـ إذا ألزمت خصمك .. فألزمه بما أنت متأكد من صحته تمامًا .. حتى لا تسقط .

٣ ـ لا تحاسب خصمك على زلل لم يقصده .. كل أولئك .. حتى لا تضر نفسك : وقد قالوا : « إن ما يقوله « بولس » عن « بطرس» يخبرنا عن « بولس» أكثر مما يخبرنا عن « بطرس » .

• • •

التسليم بالخطأ

والتسليم بالخطأ صعب على الإنسان الذى لم يعتد عليه ، خاصة إذا أخطأ أمام جمع، فإنه يشعر بالحرج والخجل الشديدين من خطئه ، والتسليم بالخطأ يحتاج إلى شجاعة أدبية ، وقوة نفسية ، ومجاهدة للنفس ، ولكن الإنسان متى اعتاده وجد له حلاوة قد تقارب أحيانا حلاوة الفوز والنصر .

والتسليم بالخطأ ـ بخلاف ما يظن المخطئ أول وهلة ـ يكسب صاحبه احترام الثاني وتقديره ، على عكس الإصرار على الخطأ الذى يفقده احترام الثانى له ، كما يفقده احترامه لنفسه ، وقد روى أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون** » (١) .

● ● ●

لا تغضب

إذا لم يوافقك صاحبك على رأيك فلا تغضب ، ولا تحاول أن تحمل الناس على ما تراه حقًا وصوابا ، إذ ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة:٢٥٦] ، فمن باب أولى أن لا يكون إكراه فى وجهات النظر .

كان الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أثبت الأئمة فى حديث المدنيين عن رسول الله ﷺ وأوثقهم إسنادا ، وقد ألف كتابه (الموطأ) وتوخى فيه إيراد القوى من حديث أهل الحجاز ،. كما نقل ما ثبت لديه من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وبوبه على أبواب الفقه ، فأحسن ترتيبه وأجاد تبويبه ، واعتبر (الموطأ) ثمرة جهد الإمام مالك أربعين عامًا ، وهو أول كتاب فى الحديث الصحيح والفقه ظهر فى الإسلام، وافقه على ما فيه سبعون عالما من معاصريه من علماء الحجاز .. ومع ذلك فحين أراد المنصور كتابة عدة نسخ منه ، وتوزيعها على الأمصار، وحمل الناس عليه حسما للخلاف، كان الإمام مالك أول من اعترض،

(١) أخرجه الترمذي ، وابن ماجه وأحمد والدارمى.

وقال : « يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم .. فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم » ، فقال الخليفة : وفقك الله يا أبا عبد الله [١] .

وعندما كان عمر بن الخطاب ﷺ خليفة ، كان عبد الله بن مسعود ﷺ عاملا له (أى واليا) ، وكانت وجهات نظرهما فى المسائل تختلف فهل حمل أمير المؤمنين عامله على رأيه ؟ لا ، وهل غضب منه لمخالفته إياه ؟ لا ، فقد ذكر ابن القيم أن ابن مسعود خالف عمر ﷺ فى حوالى مائة مسألة [٢] . فلماذا أغضب أنا وتغضب أنت . ونريد أن نحمل الناس على رأينا . وهذا ما لم يفعله عمر بن الخطاب والإمام مالك بن أنس ﷺ ؟

كان أحد المفتونين بالحياة الحديثة يتحدث عن تخلف الأمة . فقال فيما قال : إن الناس وصلوا إلى القمر ونحن لا نزال إلى الحجاب ، قال له أحد الحضور : وما شأن الحجاب بذلك ؟ قال الرجل : إنه تخلف يعوق مسيرة التنمية والتقدم . فقال له : طيب إن فى بلاد المسلمين أعداداً هائلة من النسوة خلعن الحجاب ومع ذلك لم تصلوا إلى القمر .

إن القاعدة فى دعوة الناس حاكمين أو محكومين هى الرفق لأن أسلوب التحدى ولو بالحجة الدامغة يبغض صاحبه للآخرين .. والأصل أن تكون لغة الحوار شدواً نتبادله لا صخراً نتقاذفه .

وحين يكون الحوار مع طاغية اشتهر بالظلم وليس همه من الحوار إلا الإيقاع بالخصم وكانت النتيجة معروفة سلفًا فإن بوسع المظلوم ـ وخاصة إذا كان من العلماء المتبوعين ـ أن يصدع بالحق ولا يرضخ للظلم حتى ولو كانت النتيجة أن

---

(١) حجة الله البالغة (٢٣٥) .

(٢) رواه أحمد والترمذى والحاكم ، وانظر كشف الخفاء للعجلونى (٢/ ٢٠٠) .

يلحق بفوافل الشهداء وحسبه ما ذكره رسول الله ﷺ : « **سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائز أمره ونهاه فقتله** » [١] .

والمخاطرة بالنفس والمال مشروعة فى إعزاز الدين والتمكين له ولا يستبين الحق إذا أجاب العالم تقية لأنه ممن يقفو على أثره خلق كثير .

• • •

لا أعلم

إذا وجهك مناقشك أو مناظرك بشىء لا تعرفه فلا تخجل من السؤال والاستيضاح ؛ لأنك إذا سكت فربما تحرج فيما بعد ، وتتهم بالجهل ، وبالتستر على الجهل ، واعلم أن هناك من الأئمة الكبار من كان لا يخجل من أن يقول لا أدرى ويتحرج من الفتوى بغير علم تام .

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى : أدركت فى هذا المسجد ـ مسجد النبى ﷺ ـ مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، ما منهم أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلا ود أن أخاه كفاه ذلك . وفى لفظ آخر كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ، ويردها الآخر إلى الآخر حتى ترجع إلى الذى سئل عنها أول مرة [٢] .

وروى عن الإمام مالك رحمه الله : أنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فقال فى اثنتين وثلاثين منها لا أدرى . وكان علماء السلف يقولون : إذا أخطأ العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله ، ويقولون : ينبغى للعالم أن يعلم جلساءه قول لا أدرى حتى يكون ذلك فى أيديهم أصلا يلجأون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى ، قال : لا أدرى » [٣] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (٢/ ١٢٠) .

(٢) إتحاف السادة المتقين للزبيدى (١/ ٢٧٩) .

(٣) أدب الاختلاف فى الإسلام ـ للدكتور / طه جابر (ص١٢٦) .

ذلك أن الشعور بالتبعة ويقظة الضمير عند العالم المخلص تجعله دائمًا حريصًا على التثبت والروية وعدم العجلة أو التسرع فى إصدار الأحكام أو الفتاوى حتى لا يوقع الناس فى فتنة يتحمل وزرها ويسائله الله سبحانه وتعالى عنها يوم القيامة.

ولا ينبغى أن يداخله أدنى شعور بالخوف من الناس أن يشيعوا عنه أنه سئل فلم يجب لأن كثيراً من المزالق يقع فيها العلماء بسبب ذلك .

روى ابن سعد عن نافع : « أن رجلا سأل ابن عمر عن مسألة فطأطأ ابن عمر رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته فقال له : يرحمك الله أما سمعت مسألتى ؟ قال : بلى ولكنكم كأنكم ترون أن الله ليس يسائلنا عما تسألوننا عنه ، اتركنا يرحمك الله حتى نتفهم فى مسألتك ، فإن كان لها جواب عندنا وإلا أعلمناك أنه لا علم لنا بها » .

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أى البلدان شر ؟ قال : « **لا أدرى** » فلما أتاه جبريل عليه السلام ، قال: « **يا جبريل أى البلدان شر ؟**» ، قال : لا أدرى حتى أسأل ربى عز وجل ، فانطلق جبريل عليه السلام ثم مكث ما شاء الله أن يمكث فقال : يا محمد إنك سألتنى أى البلدان شر فقلت لا أدرى وإنى سألت ربى عز وجل أى البلدان شر فقال : « **أسواقها**»(١) .

وكان الصديق رضى الله عنه يردد كثيرا إذا سئل فى أمر : « هذا رأيى ، فإن كان صوابًا ، فمن الله وأحمد الله عليه ، وإن كان ما قلته غير ذلك فمنى ومن الشيطان وأستغفر الله منه » .

ولا ننسى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو من جعل الله الحق على لسانه وقلبه وقف يخطب فى المسجد عن صداق النساء وضرورة تقليله فاعترضته

---

(١) أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى .

إمرأة بالآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٢٠] . فقال في شجاعة : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وليس من قبيل الإحساس بالضعف أن يقول المحاور بينه وبين نفسه وما أبرئ نفسي فأنا بشر أخطئ وأصيب بل وربما كان الانتصار على النفس والإنصاف منها خير دليل وأكبر شاهد على صدق صاحبها ، فالرجوع إلى الحق دائمًا خير من التمادي في الباطل . ا . هـ .

• • •

التواضع

كاتب سويسري ينشر بحثا يختمه بقوله مخاطبًا المسلمين إننا نطلب منكم ـ من المسلمين ـ بشكل خاص جدًا : نطلب منكم يا من تؤكدون بشدة القرابة القوية بين ديننا : أن تؤمنوا أن لدى الغرب شيئًا أكثر وأفضل .

أفضل من ثقافتكم : إنه كلمة الحياة : رؤية مملكة الرب ، وأمل لانهائي : أمل لا ينتهي .

نعبر عنه بكلمة واحدة ، وباسم واحد : إنه يسوع المسيح [1] .

ولقد تحددت هذه النزعة من المستكبرين قديمًا . . ومنهم الذين قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود:٢٧] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود:٢٧] .

الأمر الذي حمل ، الأنبياء على التواضع في مثل قوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود:٨٦] ، أي : لست عليكم بمسيطر .

أما بعد : فإننا نتساءل : ولماذا التواضع ؟!

---

(١) مجلة الأزهر ـ شوال ١٤٢٧ (ص ١٦٢٠) .

إن الرجل العامى يقف عند السطح ، ولا يغوص فى الأعماق .. وإذن .. فثقافته ضئيلة قليلة .. وقد يظن معها أنه فرغ من تعلمه بعد ما حاز العلم من أطرافه .. الأمر الذى قد يصيبه بلوثة الغرور .. فى الوقت الذى يبدو فى عين الآخرين صغيراً ..

ولكن الداعية يعرف من أسرار النفس .. وقوانينها .. ما يجعلها بحراً لا ساحل له .. ومن ثم .. يصغر فى عين نفسه ..؛ إزاء هذا البحر المتلاطم .. والذى أكد له أنه كلما ازداد علما .. كلما تأكد له أنه لم يحصّل شيئًا !!

ومن أجل ذلك .. يكون خلق التواضع نابعًا أساسا إلى جانب كونه خلقًا مرضيا يبدو نابعا من طبيعة الوظيفة ذاتها .

إن الداعية لا يكون مغروراً .. وإذا أحسن الداعية بمزية فيه .. فلا يمكن أن يكون بها مغروراً.. ذلك بأن القاعدة تقول: الخصوصية .. لا تقتضى الأفضلية.

● ● ●

التجرد من كل فكرة سابقة

ونقرأ فى ذلك من حوار الخليل إبراهيم عليه السلام : قال عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام: ٧٦].

فالخليل عليه السلام يفترض صلاحية ربوبية « الكوكب » ابتداء .. ويعنى ذلك التخلى مؤقتًا وفرضًا عن عقيدة التوحيد ..

فلما وصل الحوار إلى تقرير حقيقة التوحيد أخيراً .. أعلنها مدوية : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

أما دخول ساحة الحوار بما وقر فى نفس المحاور من عقائد وأفكار .. فإن ذلك مانع من الوصول إلى الحق المجرد .. وإنما هى الأفكار القديمة يدخل به الإنسان ساحة الحوار .. فإذا هى قيد يشل حركته .. فلا ينطلق فى الاتجاه

الصحيح !!

• • •

ضرورة البدء بنقاط الاتفاق

وذلك يحقق ما يلى :

١ ـ ثقة متبادلة .

٢ ـ إحساس بحسن نية الطرف الآخر .

٣ ـ حشد الطاقات لإظهار الحق .

إن المحاور الذى يبدأ بتقديم نقاط الاتفاق بينه بين الطرف الآخر ، إنما يبدأ فى الحقيقة بكسب ثقته ، ويبنى معه جسراً من التفاهم إلى الأمر محل الخلاف . يقول ديل كارنيجى[١] ما معناه : « دع الطرف الآخر يوافق فى البداية على الأمثلة التى تطرحها عليه ، ويجيب بـ (نعم) وحل ـ ما استطعت ـ بينه وبين (لا) لأن كلمة (لا) عقبة كؤود يصعب التغلب عليها ، فمتى قال أحد (لا) أوجبت عليه كبرياؤه أن يظل مناصراً لنفسه . . إن قول (لا) هو أكثر من مجرد التفوه بكلمة مكونة من حرفين . . إن كيانه بغدده ، وأعصابه ، وعضلاته ، يتحفز ليناصره فى اتجاهه إلى الرفض ، بينما لا يكلف قول (نعم) أى نشاط جسمانى) .

ويقال : إن سقراط ، حكيم اليونان وفيلسوفها الشهير كان يتبع هذا الأسلوب كان يبدأ مع الطرف الآخر بنقاط الاتفاق بينهما ، ويسأله أسئلة لا يملك الإجابة عنها بغير (نعم) ويظل سقراط يكسب الجواب تلو الجواب ، حتى يرى مناظر نفسه أنه مقر بفكرة كانت ينكرها قبل قليل .

الرجوع إلى الحق بعدما تبين :

كان المسلم يحب أخاه . . ويحب الحق أيضًا . . ولكن الحق كان أعز عليه

(١) كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس (ص١٥٣).

من أخيه ؟!

فإذا ظهر .. التزم به طائعًا .. ضاربا بقرابه الدم عرض الحائط ذلك : بأن الرجوع إلى الحق أولى وأجدى : ولنا فى السنة شواهد .. منها : قوله ﷺ : «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور .. ألا فزوروها .. فإنها تذكر الآخرة** » .

وهكذا وحّد الحق طوائف الأمة فكانت حضارة الإسلام .. تلك الحضارة .. التى رفرفت أعلامها لما كنا خلائف .. ثم توارت بالحجاب لما صرنا طوائف ..

الأمر الذى يفرض علينا عودا حميدًا إلى تاريخنا الزاهى نستمد منه عناصر قوتنا .. لقد كان « معاوية » رضي الله عنه .. فى دمشق ..

وكان « على » رضي الله عنه .. فى المدينة ..

ومع ذلك .. فقد تأتيه الأسئلة من « دمشق » فيجيب عنها .. بغض النظر عن الخلاف بينهما .

وفى هذا يقول عز وجل : ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**﴾ [التوبة: ١١٤] .

وقد أراد عثمان رضي الله عنه رجم امرأة ولدت لستة أشهر .. باعتبارها زانية . وراجعه علىّ رضي الله عنه مراجعة مدعومة بالدليل فقال له : كلا .. إن المرأة قد تلد لستة أشهر . مستدلا على ذلك : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾ [الأحقاف: ١٥] .

ووجه الدلالة : أن الله تعالى قال : ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

فإذا طرحنا الحولين أربعة وعشرين شهرًا من ثلاثين .. كان الباقى ستة .. وهى مدة الحمل .

وقد اقتنع عثمان رضي الله عنه .

● ● ●

موضوعية الحوار

ينبغى أن يتجنب الداعية الأحكام المطلقة . بحيث يكون موضوعيا فى حكمه . . فلا يتجاهل إيجابيات من يحاوره . .

وهذه بعض ملامح المنهج القرآنى فى الحكم على الآخرين . . أو . . لهم يقول الله عز وجل : ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة:٩٧] .

لكنه يقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة:٩٨] .

وعلى المحاور أن يركز على الفكرة المطروحة دون تعرض لشخص المحاور . . حرصا من المحاور المسلم على الطرف الآخر رجاء أن يجىء إلينا مسلمًا . .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يدعو من أدبر وتولى عنه سبحانه فكيف بمن أقبل عليه ؟!

والدعـــاة مطالبون أن يتخلقـــوا بأخلاق ربهـم سبحانه . . فيوسعوا من صدورهم . . لتسع العائدين من المعاندين .

● ● ●

العواطف .. لا المواقف

قالوا : [هناك من نجده يحرص على كسب المواقف مع الآخرين دون الاهتمام بكسب العواطف ، أى يهتم بالإقناع بوجهة نظره وإسكات المخالفين بحجته ، بينما الأسلوب الأقوم هو أن يحقق الكسب عن طريق احترام الغير ومراعاة مشاعره ، والداعية اللبق يأخذ دوره فى الكلام منطلقا من وجهات نظر الآخرين الصائبة ليؤكدها ثم يبنى عليها] ا. هـ .

إن الإسراف فى العواطف سبيل إلى الإسراف فى التقدير . . ومن ثم تفسد الأحكام على الناس وعلى المواقف .

● ● ●

مع الشيخ على الطنطاوى

يقولون : [أنا أدعو إلى مناظرتى كل مخالف لى ، على أن يكون فى رأسه عقل ، وفى يده قلم ، أو فى فمه لسان ، أما الذين حفظوا كلمات فهم يرددونها كالببغاوات ، لا يحاولون فهمها ، فلا شأن لى معهم ، ولا وقوف لى عليهم .

يقولون : « رجعية » فما الرجعية ؟ هى الرجوع إلى الماضى ، أى إلى أخلاقه وعاداته ؟ فما يمكن أن يرجع إلى زمان مضى ، فهل الرجوع إلى مثل أخلاق المسلمين الأولين نفع أو ضرر ؟ وهل يكون الداعى إلى تلك الأخلاق مصلحًا أو مفسدًا ؟ هذه هى الرجعية عندنا .

الرجوع إلى الدين . أفترجع فرنسا إلى دينها، أى إلى كاثوليكيتها ، ويظفر الحزب الدينى فيها بأكثر مقاعد المجلس النيابى ، فلا ينكر عليها أحد ، ولا يتهمها أحد بالتأخر ، ولا يصفها بالجمود ؟ (اذكروا أن المقالة منشورة سنة ١٩٤٦) ونطلب نحن العودة إلى ديننا الحق ، فيقول السفهاء إنا متأخرون جامدون؟

لا . هذا كثير . هذا كفر بالمنطق ، وتعطيل للفكر . هذا شىء نستحيى منه أن يكون فينا من يقوله :

ونحن إذ ننتقد شيئًا نبين أضراره ، فبينوا أنتم منافعه ، حتى إذا وجدنا المنافع أكثر أخذنا به ولو حملنا معه شيئًا من الضرر ، ونحن نعلم أنه ليس فى الدنيا خير محض ولا شر محض ، وأن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما فلذلك حرّما .

إنه لابد فى كل مناظرة من مبادئ يتفق عليها الطرفان ، ليعودا إليها ، ويرتكزا عليها ، وما المنطق إلا رد الفروع إلى هذه الأصول ، فإذا كان المتناظران مختلفين فى كل شىء . يرى هذا أن العفاف نافع فيقول الآخر بل هو ضار ، ويدعى هذا أن اتباع الدين واجب فيقول الآخر إنه ممنوع ، ويرى هذا العمل على

منع الفجور ويرى ذاك العمل على نشر الفجور ، فكيف يمكن أن يكون بينهما كلام ؟

فلنتفق أولاً على أصول : هل العفاف وقصر الاتصال الجنسى على المشروع منه خير أم هو شر ؟ هل قيام المرأة على تربية أولادها بنفسها ، وإخلاصها لزوجها وبيتها ، خير أم هو شر ؟ هل مراقبة الله وخوفه ، وتمسك كل امرئ بفضائل دينه ، خير أم شر ؟

هذه ثلاث مسائل أطلب الجواب عنها .

وإنه ليكون غروراً منى ، وازدراء للخصوم وللقراء ، إذا افترضت أنهم يرون هذه الأمور شرا ، فحاولت إقامة البراهين على أنها خير ، وأتعبت نفسى والقراء فى إثبات هذا الأمر الذى أظنه ثابتًا عند العقلاء جميعًا ، وإنى أؤجل هذا الإثبات إلى حين الحاجة إليه ، وأبنى المناظرة على هذه الأسس الثلاثة .

فتفضلوا قولوا : هل هذا الذى أوصلتمونا إليه يحفظ علينا عفافنا أم هو يضيعه علينا ؟ هل يعمر بيوتنا أم يخربها على رؤوسنا ؟ هل يرضى ربنا أم يسخطه علينا ؟ هل يجعلنا أمة قوية أم هو يذهب بقوتنا ؟

وإذا سلمنا جدلاً بأن من الخير مشاركة الطالبات الطلاب فى أفراح الجلاء ، فهل يشترط فى هذه المشاركة أن يكشفن سيقانهن وأفخاذهن ؟ وأن ينتخب لذلك الجميلات منهن لا النابغات ولا الذكيات ؟ وإذا لبسن الجوارب الساترة والثياب الطويلة أيبطل رواء الاحتفال وتذهب بهجته ؟ أم أنتم تريدون النظر إلى أفخاذهن بحجة المشاركة فى أعياد الجلاء ؟

وإذا حسن أن نقوى بالرياضة أجساد الطالبات فهل يشترط لهذه التقوية أن يختلطن بالرجال ؟

لا والله . أحلفها يمينًا غموسًا وأضعها فى عنقى .

إنكم لا تريدون الصحة ولا الرياضة ولا المشاركة بالعيد . إنما تريدون التلذذ

بمرأى أجساد بناتنا باسم العيد والرياضة والصحة . إنكم لصوص أعراض . ولكن ليس الحق عليكم . الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب . فنحن عميان لا نبصر ، خرس لا ننطق ، حمير لا نغار] ا . هـ .

• • •

إجمال هذه الآداب

اجتمع متكلمان . فقال أحدهما للآخر : هل لك فى المناظرة ؟

فقال على هذه الشروط : ألا تغضب . ولا تعجب . ولا تشغب . ولا تحكم . ولا تُقبل على غيرى وأنا أكلمك . ولا تجعل الدعوى دليلا . ولا تجز لنفسك تأويل مثلها على مذهبى . وعلى أن تؤثر التصادق . وتنقاد للتعارف وعلى أن كلامنا يبغى من مناظرته على أن الحق ضالته . والرشد غايته] .

من سمات المتقين : أنهم :

أ ـ ينفقون : يجددون الإيمان بالإنفاق . فالإيمان الجامد : ميت . . أو سوف يموت .

ب ـ يكظمون الغيظ . . ويعفون عن الناس . أنفسهم كالمرايا تعكس صفاء الحياة وجمالها . . ترى فى وجوههم من البِشر ما يُؤْذن بزوال القهر . . وبزوغ الفجر .

وقد تراهم متواضعين مخبتين . . يمشون على الأرض هونا . . ولكن همتهم هناك فى الأعالى تدور فى فلك الشمس ! فكن على سمتهم .

ولا تنفعل . . فإن الانفعال خطاب المغلوب وأنت الغالب . . بالحق .

وإذا كان الحق معنا . . فلنفكر بهدوء . . ذلك بأن أسلوب الهدوء وإن كان طويلا . . لكن الوصول عن طريقه ليس مستحيلا .

لا تخف . . لا من الرأى الآخر . . ولا تخف على رأيك .

وعليك بالحوار سبيلا إلى الفهم .. ثم إلى التفاهم . والذى تُذهب به سوء الظن .. حتى ترى الآخر .. ويراك ..

وعند ذلك .. سوف تتحول أفكارك إلى أسلاك كهربية .. تحدث التغيير المطلوب فى قلوب شانئيك .

• • •

مغزى الحوار

فى الحوار معنى « الحُسْن» لأنه مأخوذ من مادة « حور » .

قال الزمخشرى : [وحاورته .. راجعته الكلام .. يقال : وهو حَسَن الحوار] .

طبيعة الحوار :

لا يكون حوار حتى يكون بين أكثر من طرف .. وليس هو محاضرة أو خطبة .. ثم إنه : اعتراف بالآخر ..

هذا « الآخر » الذى يفيد القضية بحواره :

١ ـ قد يطرق أبوابًا لم تطرقها .

٢ ـ ويدخل بك أبعادًا .. لم تكتشفها .

٣ ـ والاستماع إلى الطرف الآخر .. يعنى : إقرارك بأن هناك رأيا غير رأيك .. وهذا بحد ذاته من أمهات الفضائل .. لأننا نتجاوز به الأثرة .. إلى التحلى بفضيلة الإيثار .

وإذا قالوا : كل ضدين مختلفان .. فلا يعنى ذلك بالضرورة أن كل مختلفين .. ضدان ! ألا إنه الحوار باللسان .. لا بالسنان .. حوار يشترك جميع الأطراف عن طريقه فى صنع القرار .

ثم هو شاحذ ملكة الابتكار .. فنحن لا نَسْمع الطرف الآخر فقط . وإنما نتجاذب معه بل ونشجعه .. أى : نتفاعل معه حول الفكرة المعروضة .. خروجا من مجرد التلقى السلبى .. والذى يثرى القضية التى ندور حولها بآرائنا .

يقول بعض الباحثين : [وإذن فالحوار تلاحم .. وتفاعل .. وليس مجرد التلقى لوجهة النظر الأخرى .. إنها عملية تفاعلية تكاملية .. بل مشروع قومى للشعوب .. كى تخرج من رتابة التلقى السلبى من الآخر ..

إلى جانب الفرار من تكدّس الأفكار .. ودرءِ كافة التوترات الاجتماعية والسياسية .. وتداعيات ذلك على الأمن القومى .

فلنكن مع الحوار تحت أشعة الشمس المشرقة . فى الهواء الطلق . لأن رفض الحوار يعنى : أنك مع خنق الأنفاس .. والعيش وراء الكواليس والغرف المغلقة . وأجواء الظلام . وأن تكون من دعاة تسطيح الأمور والوقوف عند القشرة البادية .

ويعنى أنك مع الحوار : أنك تريد بآرائك أن تكون فى المرتبة العليا . وأنك تبحث عن تكامل فكرتك ومشروعك .. ولا تريد فرضه على الآخرين بالقوة .

إن الذين يقفون ضد فكرة الحوار بحجة أن ذلك تنازل عن حقهم المشروع ولهؤلاء نقول : تذكروا أنكم لا تملكون الحقيقة كلها أبدا .

ومهما سعيتم .. فلن تنالوا هذه الدرجة من الكمال . وإذا ما افترضنا ذلك جدلا .. فإن ذلك لن يتحقق أصلا إلا عن طريق الحوار ؟! وبفضل تعلم فضيلة الاستماع ! وإن قولكم : إننا نخاف من أخطار الحوار . فإن قولكم هذا كمن يريد مَنْعَ التنفس عن الناس بحجة أضرار الغبار !

إننا بالحوار نحيا .. وفى غيابه نموت .. بالحوار نؤسس المجتمعات حيَّة .. وفى غيابه : تدفن المجتمعات وهى حية ! بالحوار : نحيى الميت من أطراف الجسم. وفى غيابه نطلق رصاصة الرحمة على ما تبقى من حياة فى جسم الأمة] .ا .هـ.

أما بعد :

فهناك الدرس الأعظم .. وهو الإيجاز والإعجاز القرآنى فى عرض القضية عرضا .. قد يكون الحذف واحدا من مظاهره .

قال عبد القاهر فى مقدمة باب الحذف : [وهو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ . عجيب الأمر . شبيه بالسحر .

فإنك ترى به ترك الذكر .. أفصح من الذكر . والصمت عن الإفادة .. أزيد بالإفادة وتجدُك أنطق ما تكون .. إذا لم تنطق . وأتمَّ ما تكون بيانا .. إذا لم تبن] (١) .

وبعد .. بعد !

فقد قال الشاعر العربى :

لا تحقرن الرأى وهو موافق   حكم الصواب .. إذ أتى من ناقص

فالدُّرُّ وهو أعز شىء يُقتنى   ما حط قيمته هوان الغائص

● ● ●

من ثمرات الحوار

١ ـ القدرة على الموازنة ثم الاختيار من خلال الآراء المتناظرة .

٢ ـ إنعاش غريزة حب الاستطلاع وخاصة لدى الأطفال الذين يحرضهم حوار الكبار على إفراغ ما فى جعبتهم من أسئلة .. بمعنى : انحلال عقدة الخوف .

٣ ـ إذا بدت المسافة واسعة ـ قبل الحوار ـ بين المتحاورين ، وبدا التقارب مستحيلا .. فإنها فى النهاية تضيق .. على نحو يؤكد إمكان لقاء المتباعدين على

---

(١) دلائل الإعجاز .

أرض مشتركة .

ولو بقيت المسافة واسعة بيننا : فلا تفاهم .. فلا ثمرة .. إلا الثمرة المرة وهى : اتساع شقة الاختلاف .. وتراجع الدعوة .

إن المدح بإطلاق .. ليس من الحكمة .. وكذلك الذم بإطلاق . إن للقمر : وجهه المشرق . وله فى نفس الوقت وجهه المظلم .

ومن أجل ذلك .. فقد تجاوز من قال :

وكل خير فى اتباع من سلف   وكل شر فى اتباع من خلف

أما بعد :

فإنه لم تذكر كلمة « العقل » مجردة فى القرآن الكريم ولكن الذى ذكر هو : التدبر ، والتفكر ، والتبصر ، والتعقل . وذلك .. تحريضا للمتلقى على التدبر والتفكر ليظل دائمًا : طموحًا مبتكرًا .. لا مجرد وعاء لحفظ الأفكار .

إنه من الأهمية بمكان أن تكون حراصًا على : كسب القلوب .. لا كسب المواقف .

● ● ●

نماذج وصــور

[ولعل من أفضل ما نسوقه مثلا للتحدى ما جرى للإمام أحمد بن حنبل فى محنة خلق القرآن فقد استدعى والى العراق إسحاق بن إبراهيم وجوه العلماء والفقهاء ليأخذ إقرارهم جميعًا ويبعث به إلى المأمــون ، فأقروا بما طلب إليهــم ماعدا أربعة أمر بهم فشدوا فى الحديد وفى اليوم التالى أجابه اثنان وامتنع أحمد ابن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما إلى المأمون فى طرسوس وفى الطريق عبر ابن جعفر الأنبارى الفرات وذهب إلى حيث كان أحمد بن حنبل وسلم عليه فقال له أحمد : يا أبا جعفر تعنيت . فقال : ليس فى هذا عناء . وقال له : أنت اليوم رأس والناس يعتقدون بك فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير . ومع هذا إن لم يقتلك المأمون تموت . ولابد من الموت فثق بالله ولا تجبهم إلى شيء قال : فجعل أحمد يبكى ويقول : ما شاء الله ما شاء الله ثم جاءهم الخبر بموت المأمون. ومات محمد بن نوح فى الطريق فاستراح وذهب إلى ربه راضيا مرضيا .

وفى سجن أحمد الذى طرح فيه ثمانية وعشرين شهرا بقى صامدًا فلم يغير رأيه ولم يبدل موقفه واشتدت عليه المحنة وبلغت أقصاها ودخل عليه عمه يقول : يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله وبقيت أنت فى الحبس والضيق . فقال أبو عبد الله : يا عم : إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل متى يتبين الحق ؟ فذكر له ما روى فى التقية من الأحاديث فقال : كيف تصنعون بحديث خباب ؟ « **إنه كان من قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه** » فيئس منه .

ثم قال أحمد : لست أبالى الحبس ما هو إلا ومنزلى واحد ولا قتلا بالسيف. إنما أخاف فتنة السوط وأخاف أن لا أصبر . فسمعه بعض أهل الحبس وهو يقول ذلك فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ما هو إلا سوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقى فلما سمع ذلك سرى عنه .

وعندما مثل بين يدى المعتصم ورفض الانصياع لرغبتهم فى القول بخلق القرآن وطال المجلس أمر المعتصم أن يأخذوه وتقدم الجلاد فلما ضرب أحمد سوطه قال: بسم الله ، فلما ضربه الثانى قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . فلما ضربه الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضربه الرابع قال : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . واستمر الجلد مائة وخمسين سوطا حتى أغمى عليه وعاد الإمام إلى بيته يقول : والله لقد أعطيت المجهود من نفسى ولوددت أنجو من هذا الأمر كفافا لا على ولا لى .

ولما جاء الواثق أصدر أمره لأحمد : (لا تجمعن إليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه) فأقام الإمام أحمد فى داره لا يخرج إلى صلاة ولا يشهد جنازة ولا يلقى درسا حتى مات الواثق .

وصارت مسألة خلق القرآن حديث كل الناس وتندر بها البعض .. ومن طريف ما يروى فى ذلك أن عبادة المضحك دخل يوما على الواثق فقال : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن ؟ فقال : ويلك القرآن يموت ؟ قال : يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت . بالله يا أمير المؤمنين بم يصلى الناس التراويح ؟ فضحك الواثق وقال : قاتلك الله أمسك .

ولما وصل الحال إلى هذا الحد خفف الواثق من غلوائه .

- وما أن تولى المتوكل الحكم حتى فك المسجونين وأكرم المتضررين ونهى عن القول بخلق القرآن ؟

وإليك مثلا آخر لحوار رائع بين الحجاج بن يوسف الثقفى بما اشتهر عنه من ظلم وبين العالم الجليل سعيد بن جبير وهو من التابعين وكان قد خرج على بنى أمية وانضم إلى الخارجين عليهم ثم قبض عليه وأدخل على الحجاج متهما بشق عصا الطاعة فسأله الحجاج متجاهلا : من أنت ؟

قال : سعيد بن جبير .

قال الحجاج متهكما : بل شقى بن كسير .

قال سعيد : أمى كانت أعلم باسمى واسم أبى منك .

قال الحجاج : شقيت وشقيت أمك .

قال سعيد : الغيب يعلمه غيرك .

قال الحجاج : بالدنيا نار تلظى .

قال سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا .

قال الحجاج : فما قولك فى محمد ؟

قال سعيد : نبى الرحمة وإمام الهدى .

قال الحجاج : فما قولك فى على : أهو فى الجنة أم فى النار ؟

قال سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها .

قال الحجاج : فما قولك فى الخلفاء .

قال سعيد : لست عليهم بوكيل .

قال الحجاج : فأيهم أحب إليك ؟

قال سعيد : أرضاهم لخالقى .

قال الحجاج : أيهم أرضى للخالق .

قال سعيد : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم .

قال الحجاج : أحب أن تصدقنى .

قال سعيد : إن لم أحبك لم أكذبك .

قال الحجاج : فما بالك لم تضحك .

قال سعيد : وكيف يضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار .

قال الحجاج : فما بالنا نضحك ؟

قال سعيد : لم تستو القلوب .

ثم أمر الحجاج أن يعزفوا بالعود والناى فامتعض سعيد ، وأمر بالخروج فخرج يضحك فاستدعاه الحجاج وسأله : لم تضحك ؟

قال : من جراءتك على الله وحلم الله عليك .

قال الحجاج : ويل لك يا سعيد

قال سعيد : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار .

قال الحجاج : اختر يا سعيد أى قتلة أقتلك .

قال سعيد : اختر أنت لنفسك فوالله لا تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة .

قال الحجاج : أتريد أن أعفو عنك ؟

قال سعيد : إن كان العفو فمن الله وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر .

وإلى هذا الحد يلتفت الحجاج إلى زبانيته فيأمرهم : اقتلوه . فيقول سعيد : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين .

قال الحجاج : وجهوه لغير القبلة .

قال سعيد : فأينما تولوا فثم وجه الله .

قال الحجاج : كبوه على وجهه .

قال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

قال الحجاج : اذبحوه .

قال سعيد : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، خذها منى حتى تلقانى بها يوم القيامة ، اللهم لا تسلطه على

أحد بعدى .

وينتهى الحوار وتصعد روح العالم الجليل إلى مولاها تشتكى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

ومن طرائف الأجوبة المسكتة : أن أحد الدعاة كان يحاضر فى جمع من النساء عن تعدد الزوجات فى الإسلام . وأفاض فى الحديث بموضوعية وإتقان واستيعاب واستعان بالأرقام والإحصاءات . وأورد الحجج العقلية والنقلية . لإثبات فوائد تعدد الزوجات إلا أن عددا من الحاضرات لم يقتنعن وأخذن فى اللجاج والجدل العقيم . فرأى المحاضر أن يسكتهن بطريقة أخرى . فقال لهن : فى الحقيقة أن المسئول الحقيقى عن تعدد الزوجات هو المرأة لا الرجل . فلما استغربن ذلك وأنكرن عليه . . قال لهن : لو أن كل امرأة رفضت أن تكون زوجة ثانية لما كان هناك تعدد زوجات .

وفى التاريخ أن رجلا ناظر مجموعة من الملاحدة الذين يقولون بالمصادفة وينكرون وجود الله عز وجل . فلما طالت المناظرة وكثر الجدل دعاهم إلى لقاء آخر لإكمالها على أن يكون هناك شهود يحكمون من تكون له الغلبة . ولما جاء موعد اللقاء الجديد . . جاء متأخراً ، والجميع ينتظر فأخذوا يلومونه . فقال لهم: دعونى أشرح لكم ما الذى أخرنى فلعل لى عذرا . تعلمون أنى أقيم فى الطرف الآخر من المدينة حيث يفصل النهر بيننا . وحين وصلت النهر لأعبره إليكم لم أجد سفينة تحملنى فكان هذا هو سبب التأخير .

فقال له قائل : وكيف جئت بعد أن لم تجد سفينة ؟

فقال : واتانى الحظ وأسعفنى المصادفة ، مر لوح خشب يطفو على النهر فتوقف أمامى ، ثم جاءت مجموعة ألواح أخرى التقت باللوح من جهاته الأربعة بشكل عمودى ثم قذف النهر بحبال غليظة التفت حول الألواح بإحكام حتى ثبتتها، وهكذا وجدت نفسى أمام سفينة صغيرة عبرت بها النهر إليكم .

قالوا له : ويحك ، أتضحك علينا ؟ إن هذا أمر مستحيل .

قال لهم : خسرتم وأقررتم على أنفسكم . أبت عقولكم أن تصنع المصادفة سفينة صغيرة ، وسمحتم لها أن تصنع هذا العالم المعجز ، وهو أعقد من السفينة وأحكم وأكبر وأتقن !!

ومن الأجوبة المفحمة ما يروى ، من أن شابا توجه إلى أحد الدعاة بالسؤال التالى :

أتسمح لى يا أستاذ ؟ لماذا أرسلت لحيتك ولا زلت فى ريعان الشباب ؟

فرد عليه الداعية قائلا ولم حلقتها أنت ؟

فأجاب الشاب : أنا حر .

فقال الداعية : وأنا لست عبدا .

فقال الشاب : لكن إرسال اللحية غريب بالنسبة لك .

قال الداعية : بل الغريب هو حلقها . أنا تركتها تنمو ولكنك أنت الذى يجب أن يسأل عن حلقها .

قال الشاب : ليس كل شعر الجسم يحلق ، ولا كله يترك .

قال الداعية : مثل ماذا ؟

قال الشاب : مثل شعر الرأس فهو يترك وغيره من الشعر غير المرغوب فيه يحلق .

قال الداعية : أنا اخترت أن يكون وجهى مثل رأسى .

فضحك الحاضرون وخجل الشاب وانصرف[1] .

● ● ●

---

(١) عبد البديع صقر ـ كيف ندعو الناس ص٧٣ .

من أقوال المجددين

كلّ من لا يتأمل ولا يتروَّى فى الجواب .. يأتى كلامه غالبا .. غير صواب.

كل من يتجادل مع أعلم منه .. ليُعرف أنه عالم .. يُعرف أنه جاهل !

لا حوار إلا باللسان فقط : فلا تضرب « المنضدة » بيدك » ذلك بأنه : حوار المناوبة .. وليس حوار المناهبة ! لا ينبغى أن يستأثر طرف بالكلام !

إن الإسلام حريص على نظافة البيئة .. حتى يثمر الإيمان ثمراته .. فى هذا الجو الطهور .

إنه حريص على نظافة البيئة المادية .. حفاظًا على الأجسام ..

وهو كذلك حريص على نظافة البيئة الفكرية من الشبهات ، حفاظا على العقول ..

وهو حريص أيضًا على نظافة البيئة الوجدانية حمايةِ للقلوب من القلق .. والكراهية ... ولكن بعض الدعاة لا يريدون الحوار .

وتتأمله .. فإذا هو كالطائرة المحملة بالصواريخ . ولكن الصواريخ .. مكدسة .. بينما هو لا يملك الطاقة لإطلاقها .. كما وأنه لا يقدر على تسديدها فى المرمى ؟!

وقد تسمع ضجيجًا .. لكنك لا تجد دقيقًا .. وكان عليه أن يتعلم من الطبيعة حوله ..

فالغيث : أهنؤه الذى يَهْمى وليس له رعود !

وقد يكون من قدر الدعاة أن ينالهم الأذى من هؤلاء .. فليكن .. ولكن.. لنتعلم من الطبيعة من حولنا :

يحمل النهر الماء العذب .. والصخور .. ثم يقذف بها فى البحر الذى

يفرزها . . ثم ليحول الرمال . . والصخور إلى لؤلؤ ومرجان . . وما شاء الله من معادن .

وهذا هو دور الداعية الذى يستثمر كل ما فى الموقف لخدمة الدعوة منحيًا هواه ومزاجه الخاص . . مستعينا بعلمه وخبرته .

فى أوائل القرن الماضى عبرت الغواصة الضخمة المحيط المتجمد ! ولما أنكر الناس على الملاح ذلك قال لهم : إن العلم يقول : كلما تجمد الماء . . قلّت كثافته . . ثم يرتفع إلى فوق . .

وقد هدانى ذلك إلى الانطلاق من تحت الثلج الطافى . . فوصلت إلى هدفى . . وهكذا . .

وإذا كانت أنثى العقرب . . وكانت أنثى العنبكوت . . وأنثى بعض الأسماك . .

إذا كان من شأنها أن تقتل الذكر فإننا فى الدعوة لا نريد قتله . . فليس ذلك من أهدافنا . . وإنما نروّضه !!

جاء فى الكفاية :

ـ يلزم الخشوع ، والتواضع ، ويقصد الانقياد للحق ، فيكون من جملة من ﴿ **يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ [الزمر:١٨] فإنهم الذين وصفهم الله سبحانه بالهدى من الله سبحانه ؟!

ـ ولا تعوّدْ نفسك الإسهاب والجدال بالباطل والمبادرة إلى كل ما سبق إليه الخاطر واللسان .

حتى إذا أورد ما أورده أو سمع ما سمعه ، يكون فى جميعه على التثبت والتيقظ .

ـ فإن الكلام إذا طال واشتمل على الغثِّ والسمين ، مجّته الآذان ، وملّته

القلوب .

ـ ولا يُسرعْ فى مكالمة من يستشعر فى نفسه منه العداوة والبغض إذا لم يأمن على نفسه بقدر الحَدِّ والرِّسمْ فى النظر باشتداد الغضب فيورثه تشوشَ الخاطر والعِيّ .

ـ واحذرْ الاعتماد فى كلامك على من تظن أنه معك أو يستحسن كلامك فى جملة الحاضرين فربما تبيّن لك خلافهُ فيضعف ذهنك وخاطرك ويذهبُ عنك كثير مما لا تستغنى عنه .

ـ والتقرب إلى الله سبحانه يجب أن يكون بحيث يمنعك عن الالتفات إلى الحاضرين خالفوك أم وافقوك فإنه سبحانه عند ذلك يكفيك المُهمّ ويعينك فى تقوية ذهنك . وتصفية فهمك وإمداد خواطرك والكشفِ عن الحق على لسانك .

ـ وإياك والكلام فى مجالس الخوف والهيبة فإنك عند ذلك فى حراسة الروح على شغل من حراسة المذهب ونصرة الدين .

ـ وتجنّبْ مَجْلس صَدْر لا يسوِّى بين الخصوم فى الإقبال والاستماع وإنزال كلٍّ منزلته ورتبته ؛ فإن الكلام بين يدى مثله : سخف ودناءة واحتمال الذّلِّ والصغار إذا رضيت به ومورث الغمِّ والغضب إذا لم ترض .

ـ وتوّق فى الكلام مجلس صَدْر هيبته تقطع خاطرك وتكدر قريحتك ؛ فلن تجتمع الهيبة وصحة القريحة فى قلب بمحال ؛ لأن الهيبة مقرونة بالخيبة ـ وله قيل : من هاب خاب .

ـ وتوقّ مجالس الصدور الذين قصدُهم بما يسمعون التلَهِّى لا تمييزَ الحق عن الباطل وابتغاء نصيحة الله ونصيحة رسوله فى الدين وتبيين الحق ومعرفته ـ فإن فيه أقل شىء : مجالسة من لا يَحْسُن بأهل العلم والدين مجالستُه .

ـ وإياك واستصغار من تناظره والاستهزاء به ـ كائنًا ما كان ـ لأن خصمك ـ إن كان ممن المفترض عليك فى الدين مناظرته : فهو نظيرك ـ ولا يجمل بك إلا

مناظرة النظير للنظير .

ـ وإن يكَ من تكلمه غيرَ أهلٍ لأن تناظره كان الواجب ألا تفاتحه بالكلام ؛ فإذا فاتحته ثم استصغرته واستخففت به لم يجتمع ذهنك ولا صفاء قريحتك ولا اشتد خاطرك ؛ فربما يتفق له لشؤم حالك عليك ما لا قبل لك به .

ـ وعليك بالمحافظة على قدرك وقدر خصمك وإنزال كل أحد فى وجه كلامك معه : درجته ومنزلته ؛ فتميِّز بين النظير وبين المسترشد ، وبين الأستاذ ومن يصلح لك .

ولا تناظر النظير مناظرة المبتدئ والمسترشد .

ولا تناظر أستاذك مناظرة الأكفاء والنظراء ؛ بل تناظر كلا على حقه ، وتحفظ كلا على رتبته .

ـ وكن مع خصمك مستبشرا مبتسمًا غير عبوس ؛ فتكون أنت وخصمك عند ذلك عن دواعى الغضب والضجر : أبعد .

ـ وعليك أن لا تفاتح بالمناظرة مَنْ تعلمه متعنتًا ؛ لأن كلام المتعنِّت ومن لا يقصد مرضاة الله فى تعرّف الحق والحقيقة بما تقوله : يورث المباهاة والضجر وحُزن القلب ، وتعدِّى حدود الله سبحانه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وإن لم تعلمه كذلك حتى فاتحته بالكلام ثم عَلمتَه عليه : وجب عليك الإمساك عن مناظرته ـ فإن رأيت نصرة دين الله سبحانه فى الإمساك عنه : زدت فى الحدِّ وبالغت فى التحرز عنه .

ولا تتركْ ما قدرت عليه من المضايقة ، ولا تتق شُنعة تجد إليها سبيلا إلا وقد ألحقتها به ؛ لأنك إن ساهلته فى شىء ربما يروج له كلام فى فصل فيضايقك ويشنِّع عليك بما يصعب عليك التقصِّى عن أمره ، وإزالة إيهامه .

ولأنك إذا ضايقته فى كل معنى وعبارة : ضُعف قلبه فى بُدوّ النظر ؛ فلا يروج له شىء بعدها .

وبمثله تُعامِل مَن قصده بالكلام : المباهاة .

وعلى العكس من هذا : تُعامل المبتدى المسترشد الذى قصْده التبيين والتعرف للحق ، حتى لا تدع من التلطف والتساهل والكشف والبيان والتقريب شيئًا إلا وتأتى به .

لأنه كلما بالغت فى المساهلة معه ازداد طمعا فى تفهم الحق وازداد حرصا ومواظبة عليه ـ إلى أن يوافقه الله سبحانه للهداية .

ـ وإن كان خصمك منتهيا عالما يقصد المناظرة ، واستبانة ما التبس ؛ فلا تعمّق فى العبارة ؛ فإنك تطوّل عليه وعلى نفسك الأمر ؛ بل تقصد بأسهل العبارات إلى نكتة الحكم ، وما هو المعتمد ؛ ليكون أبعد عن الاشتغال بما يعنيه .

ـ ومتى علم مِن خصمه قصدَ الحق وطلبَ الصواب والهداية ـ منّتهيًا كان أو مسترشدًا ـ مكنه من إيراد جميع ما يريد إيراده فإنه يجوز أن يكون موضع الالتباس عليه : ما يظنه أظهر الأشياء فسادًا ووهاء ، فإذا كشف من جميع ما يورده ، وضرب الصحيح من الفاسد : أوفيت حق الله سبحانه من جدالك .

ـ وعليهما جميعا أن يصبر كل واحد منهما لصاحبه فى نوبته وإن كان ما يسمعه منه شبه الوسواس ؛ لأنهما متساويان فى حق المناوبة ؛ فمن لم يصبر منهما لصاحبه : فقد قطع عليه حقه .

ولأن ما يظنه السامع وسواسًا ربما يكون هو موضع الالتباس والشبهة عنده ؛ فلابد من الصبر على سماعه ليصير عنده معلوم الأول والآخر .

ثم يتكلم فيه بعده على حقه وإن كان فيما يصح العلم صنوان كان فيما لا يفهم منه شىء بيّن فى نوبته أنه مما لا يلزمه الكلام عليه .

ومتى لم يصبر له خصمه بل داخله بالاعتراض أو الجواب فى نوبته احتمله ووعظه ؛ فإن أصرّ عليه : قطع مكالمته .

وإن حكم الجاهل من الحاضرين عليه بالانقطاع ؛ لأنه إنما افترض عليه الكشف عن الحق والأمر بالمعروف مع القدرة ولا سبيل إليه مع التقطيع ؛ بل يصح ذلك مع حسن الاستماع .

وهكذا يقطع مكالمته من يرى التعجب من كلامه ؛ لأن ذلك من عادة من لا يقصد الخير والتحصيل بالمناظرة .

ـ وعلى كل واحد منهما أن يُقبل على خصمه الذى يكلمه بوجهه فى خطابه المتكلم فى كلامه والمستمع فى استّماعه .

فإن التفت أو أعرض عنه فى الاستماع أو الخطاب وعظه ؛ فإن لم يقبل قطع مناظرته .

لأن ترك الإقبال وحسن الاستماع يشغل قلبَ المتكلم والمستمع ؛ فتنقطع عليه مادة الفهم والخاطر ؛ ولا تبالى بمن يحكم عليك بالانقطاع ؛ لأن أهل التحصيل يعلم ذلك ؛ ولا مبالاة بأهل الجهل والغباوة .

ـ ولا تكلم الأستاذ إلا على ضربين : الاسترشاد ، مع غاية الاحترام والتواضع وخفض الصوت وقطع اللجاج عند ظهور الرشد أو الضجر منه وتلاطفه بكل ما تملك وتعطيه مراده فى كل ما يطلبه عنك فى ذلك .

ـ وإياك أن تتعلق عند الاستدلال إلا بأقوى ما فى المسألة ، ولا يغرنك ضعف السائل ؛ فربما يكون فى الحاضرين من يُضَيِّق بقوته فى العلم عليك الدنيا .

وقد يتضح للخصم الضعيف عند التعلق بالشىء الذى لا يقوى فى الاحتجاج ما يَصْعُب عليك الخروج منه !

ولأنك إذا تعلقت بأقوى ما فى المسألة ، راح بعده ما هو أضعف منه - وإذا تعلقت بالضعيف : احتجت بعده إلى وضع القوى موضع الضعيف ؛ فيذهب عند ذلك رونق نضرة الحق وبهائها !

ولأنك إذا قدمت الضعيف : استرذل الحاضرون كلامك فيضعف خاطرك بعده عن إيراد ما هو أقوى منه - إذا لم يستحوذوا فى الأول كلامك ؛ فتترك جميع ما تقوله عندهم ؛ فلا تظهر نضرة الحق ؟

ولأنك إذا بَدَهْتَ الخصم بأقوى شىء فى المسألة : هابك فى الاحتجاج ؛ فتؤثر هيبته تلك فى تجنبه شبهته وتقوية بدعته .

- ولا تسامح الخصم إلا فى موضع يعلم يقينا أن المسامحة فيه لا تضرك - لأنه طالما قيل المسامحة فى المناظرة شؤم .

- وعليك بمراعاة كلام الخصم ، وتفهُّم معانيه على غاية الحد والاستقصاء ؛ فإن فيه أمانا من اضطراب ترتيب فصول الكلام عليك ؛ فيسهل عليك عند ذلك وضع كل شىء موضعه .

وفيه أيضًا أمان من تلبيس الخصم والذهاب عن تزويره ولا تمكنه من جمع القصور عليك فى الأسئلة والأجوبة ؛ فإنه يؤدى إلى انتشار الكلام، واختلاط مواضع النكتة ، والتباس موضع الحق بغيره .

وإن طوّل عليك كلامه بعباراته الطويلة - فلخصَّ من جميعها موضع الحاجة إليه فتحصره عليه - ثم تكلم فيه بما يليق به .

لأنك إذا فعلت ذلك زال ما أوهم به الحاضرين من إيراد العلوم الكثيرة ؟

وإذا لم تحصرْ عليه موضع الفائدة - موّه عليهم تقصيرُك ؟

ولأنك إذا أحصرت عليه فى كلامه ألفاظه ومعانيه وأخذت إقراره فى كل ذلك فقلتَ : ألست قلت كذا ، ومعناه كذا ؛ لم يمكنه الهرب مما يلزمه عليه من

كلامك ، ولا الرجوع .

وإذا لم تفعل ذلك ـ ربما ناكرك عند الإلزام ، فتسد مواضع الخلل حين تنبّه له عند الإلزام ؟!

ـ وإياك أن تلزم خصمك ما لا تتحققه لازما ؛ فإنه إذا انكشف لك وللحاضرين سقوطه عن فوره : سقطت عن أعين الحاضرين فتضعف عند ذلك عن نصرة الحق .

ـ ولا تقصِّرْ فى تنبيه الخصم وإعلامه ما ترى من مناقضاته فى كلامه .

وهكذا إذا رجع فيما سلَّم : نبهته عليه ؛ لأنك إذا لم تعامله بذلك تركت معظم المقصود من الجدل ، وعند ذلك لا تبين نصرتك للحق .

ـ ولا تُؤاخذ الخصم بما تعلم أنه لا يقصده من أنواع الزلل ؛ بل تعلم أنه يسبق اللسان ، ولما لا يخلو المتكلم منه ؟

فإن أشكل عليك قصده فى ذلك نبهته ؟ فإن قال هو لسبق اللسان ولم أقصده؛ تجاوزته ، وإن علمته مقصوداً منه وآخذته به ؟!

ـ وإذا موّه عليك فى شيء خرجت عن عهدته بتعبير عبارة أو تطويل كلام لم تغب بأن تعيد ما أجبت به أول مرة ، وتعرفه أن جوابه ما سبق ، ولم تأت إلا بتعبير عبارة عن معنى سبق الكلام عليه .

ـ ولا يهولنك إذا كان لك جواب واحد تعتمده فى سؤالات له كثيرة قوله لك : إلى متى تعيد هذا الكلام ، وقد سمعناه غير مرة ؟

بل تقول إذا قال لك ذلك : إن الكلام الواحد إذا أتى على إفساد معان كثيرة ـ أو على عبارت شتى عن معنى واحد : كان ذلك فى غاية القوة والصحة، لا وجه للعدول عنه إلى غيره .

ـ ولا توردْ فى كل موضع من الكلام إلا قدر ما يحتاج إليه .

وهو نصيحة المشايخ ـ يقولون لأصحابهم ـ اتفقوا فى المناظرات بالمعروف .

وإنما قيل ذلك ؟ لأنه ربما تورد ههنا كلاما لا تحتاج إليه فيفسده الخصم عليك فى غير موضعه ؛ لأنه فى غير موضعه فيصعب عليك العود إليه فى موضع الحاجة .

ـ ولا تقدمْ من الجواب عما لم يورد عليك سؤاله ؛ فإنه تنبيه منك للخصم على الاحتراز ما لولا جوابك لما تنبه له ؛ فيصعب عليك جوابه إذا أورده مع الاحتراز ، وما لا يفهمون كلام خصمك استعدت ـ وإن احتجت إليه مراراً كثيرة؛ فإن فهمته ، فذاك . وإن لم تفهمه وعلمت أنه مما يصح العلم به ؟ استمهلته لتتفكر فيه ثم تفرغ وُسْعك فى التدبر والتفكر فيه ؟ فإن فهمته واحتاج إلى الجواب؟ تدبرته ، وتفكرْ فى طلب جوابه محتسبًا ؛ فإنه لا محالة إن كان مما ألزمك غير حق : يحضرك الانفصال ، ويمدك الله بالتوفيق والنصرة لمعرفة فساده .

وإن آية بطلانه وإن كان حقًا صحيحًا ؟ فلا أنفة من قبول الحق والانقياد له بأحسن الوجوه ؛ فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

وليس للمجيب مع السائل إذا ألزمه منوالاً إلا أحد ثلاث : إما الانقياد أو الإسقاط أو الإعراض .

فأما الانقياد : فكل موضع ورد عليه ما يؤثر فى كلامه ودليله فعليه الانقيــاد لا محالة ؛ لأنه قد انكشف بسؤاله خطؤه فيما قال ؟!

وأما الإسقاط : فهو أن تبين خطأه فى سؤاله وتلبيسه والتباسه فالوجه فيه ـ على كل حال ـ إسقاط ذلك السؤال ؟!

وأما الإعراض عن مكالمته : فهو إذا عدل السائل عما يورد فى كلام المجيب ، أو ما يشتبه ويلتبس ، فلا وجه إلا الإعراض عن مكالمته لأنه إنما يجوز للسائل أن يورد من الكلام ما يقدح فى كلام المجيب أو ما يتوهم كونه فادحًا ، فيكون شبهة، ولا ثالث لهذين إلا المعارضة أو الاستعجال بما يعلم بنفسه بطلانه، وأى

ذلك كان فلا وجه لمكالمته .

- ومن أهل الجدل من جوّز أن يستعمل فى موضع الاعتراض دفع الخصم بالغلبة والصياح وإيراد النوادر .

وربما جوّز فى غير موضع الإعراض : تخجيل الخصم بالنوادر وقطع خاطره بالتهويل والصياح ، وليس ذلك من طريق أهل المروءة فى الديانة والتقوى فى طلب مرضاة الله سبحانه فيما يأتيه من تحقيق الحق وحل الشبه وتصفية دين الله تعالى عن الشوائب بطريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمجادلة بالتى هى أحسن .

بل ذلك من الجدل المذموم الذى ذمه الله سبحانه وذم صاحبه على ما بيناه قبل، وبالله التوفيق .

- وأحسن شىء فى الجدال : المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل ؛ فإن الأدب فى كل شىء حِلْيته !

فالأدب فى الجدل يزين صاحبه ، وترك الأدب فيه يزرى به ويشينه .

ومعظم الأدب فى كل صناعة : استعمال ما يختص بها ، والاشتغال بما يعود نفعه إلى تقويمها والإعراض عما لا يعود بنفع إليها .

فما يعود بنفع إلى صنعة الجدل : المحافظة من كل واحد من المتجادلين على مرتبته ، ويعلم أن مرتبة المجيب التأسيس والبناء فلا يتعدى عن هذه المرتبة إلى غيره ، ومرتبة السائل الدفع والهدم .

فحق المجيب أن يبنى مذهبه الذى سئل عنه على أساس قويم وأصول صحيحة من الأدلة وغيرها .

وحق السائل ومرتبته فى سؤاله إن رام تصحيحًا أن يكشف عن عجز المسئول من بناء مذهبه على أصل صحيح .

أو بيان عجزه عن الخروج مما ألزمه مما له من القول الفاسد ، ومتى تم للسائل هذا فقد استعلى ، ويكفيه عن الاشتغال بأمر زائد يدل على انقطاعه .

وإن تم للمجيب بما أقام من البرهان على ما ادعاه تعجيز السائل عن القدح فيما أقام بنقض أو معارضة أو اشتراك فيما أقام فقد استعلى المجيب وانقطع السائل، وحقٌّ على كل واحد منهما أن يحفظ نفسه عن حيلة صاحبه عليه بما نكشف عنه من بيان الحيل في بابه إن شاء الله عز وجل .

- وعلى المجيب أن يتأمل ما يورده السائل على كلامه ، حتى إن كان فيه شبهة توهم القدح فيما بناه ، وجب عليه الكشف بالجواب ؛ ليزول الإيهام .

وإن كان الشبهة مما لا يوهم ولا يبين منها هدم ما بناه : لم يلزمه الكلام عليه في حق الجدل ؛ فإن فعل وكشف عنه كان متبرعًا .

وعلى السائل أن يتأمل انفصال المجيب عما ألزمه على ما بناه ، فإن كان فيه ما يوهم تحقيق ما بناه أولا ؟ كلمه السائل ، وإن لم يكن فيه تحقيق ما بناه ؟ لم يلزم السائل الكلام علة ؛ بل له أن يسكت عنه ؟ فإن اختار الكشف عن تمويهه ، كان متبرعًا .

أما بعد (١) :

- فأول شيء فيه مما على الناظر أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه وطلب مرضاته في امتثال أمره سبحانه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعاء إلى الحق عن الباطل وعما يخبر فيه ، ويبالغ قدر طاقته في البيان والكشف عن تحقيق الحق وتمحيق الباطل .

ويتقي الله أن يَقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه ، والتكسب والمماراة ، والمحك، والرِّياء ! ويحذر أليم عقاب الله سبحانه .

---

(١) عن الكافية في الجدل .

ولا يكن قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة والقهر ؛ فإنه من دأب الأنعام الفحولة : كالكباش والدِّيكة .

ـ وقبل أن يشرع فى الكلام يبتدئ بحمد الله والثناء له ، والصلاة على رسوله، فيستعين بذلك على طلب الحق ، والتوفيق فى الإبانة عن الباطل وبُطوله، والكشف عن الصواب وحقِّه ؛ فإنه سيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وإن كان لا يتفق له ذكره باللسان ، فيقوله فى نفسه سرًّا .

ـ ويحذر رفعَ الصوت جهرًا زائدًا على مقدار الحاجة ؛ فإنه يورث الحِدَّة والضجر .

ـ ويتجنّب من أسباب الضجر والحدّة ؛ فإنه يُورث البلادة ، وإن كان يتوهمه جَلادة ، ويقطع مادة الفهم والخاطر .

● ● ●

فصل فيما يستعمل من ذكر الأمثال والحكم عند تعدى أهل الجدل بعضه على بعض

اعلم أنَّا قد ذكرنا : أن الاشتغال بما لا يليق بسيرة السلف ، ولا يحسن بالمناظر فى الجدل : حرام غير محمود .

وقد يضطر المتماسك إلى ضرب الأمثال ، وذكر النوادر أحيانًا ؛ وهو إذا رأى المُبطل الذى لا ينقاد للحق مقهورا للحق ؟ فله من ذلك ما لا يخرج عن الحد.

وقد ذكر الله سبحانه جملة من ذلك فى الرد على الكفار ، وبيان نقصهم وقصورهم عن أسهل شىء على الموفق .

فقال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

ـ وقد أورد كثير من مشايخنا من ذلك ما يدل على جوازه عند الحاجة إليه ـ ونحكى من ذلك قدراً لا يطول الكتاب بذكره ، ولا يخلو الكتاب أيضًا عن طرف منه ؛ ليكون الكتاب جامعا لكل فن .

ـ فمن ذلك أن يقول عند إرعاد الخصم وإبراقه ، ومدح مذهبه ، واستحسانه فى تعظيم ما يورده : مثل ما قال سبحانه : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

ومثل قول الراجز :

عند الرِّهان يُعرف المِضْمَار ويعرف السابق والخـوّار

ومن ذلك أن يقول عند وهاء ما ادعاه الخصم : حجة ، وبطولها مثل قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١] .

أو يقول : مثل ما قال سبحانه : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ

لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور:٣٩] .

أو يقول مثل ما قال سبحانه : ﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم:١٨] .

وإذا لم يسلم كلامه عن تهافت وتناقض إذا أصّل شيئًا رفعه فى الحال أو يمكن رفعه ببعض أصوله مثل ما قال سبحانه : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم:٢٦] .

وإذا رأى الخصم لا يلتئم له ما يرومه من الإلزام أو يتعذر عليه تحقيقه وتوجيهه قال مثل ما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١] .

ـ وإذا استبشر بعلة أو دلالة ظنّها قوية ، يظهر لك نقيضها أو دفعها بشىء تمثلت بقول القائل :

فيالها من علة ما كان أضعفها قد صيرتك أبا شِبْلٍ من النَّاسِ

ولا يستحقر أحدهما صاحبَه بما يقع له من الخطأ فى مذهب أو دلالة أو غير ذلك ؛ فإنه إذا اغتر بخطئه ربما أصاب فيما لا خروج له عنه .

واستحقارُ الخصم كاستحقار يسيرٍ من النار ؛ فإنه ينتشر من يسيرها ما يحترق به كثير من الدنيا .

والمحافظة على ما ذكرتُ من تقوى الله فى نظره : يغنيه عن كثير من النصيحة ويبلغه إلى أسهل الطرق فى الهداية إلى الحق ، إن شاء الله عز وجل .

ـ وإذا رأيت الخصم أصحابه قد عاونوه وتشاغبوا وتزاحموا وأورد كل منهم ما يظنه دفعا لما أوردتَه فكشفت عن فساد جميع ما أورده حتى سكتوا ـ تمثّلت بقول جرير :

لما وضعت على الفرزدق ميسمَى وعلى البعث الجيش جَدَعتُ أنف الأخطل

وإذا رأيتَ الخصم يتعمق ويدقق فلم يتحقق من تدقيقه ما يفهم ـ تمثلت بقول القائل :

ترك الواضح لا يبصره   أحد فى ظلمات فدخل

وإذا رأيته لا يمكنه الإفصاح والعبارة عما يختلج فى صدره من المعنى : قلت ما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ [الأعراف:٥٨] .

ـ وإذا قال ما يلجلج عنه لسانه : قلت : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ [الشعراء:١٣] .

﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ [القصص:٣٤] .

أو تمثلت بقول الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أنّ الحقّ تلقاه أَبْلَجَا   وأنك تَلْقَى باطلَ القول لَجْلَجَا

ـ وإذا رأيت نفسك منفردًا بين خصوم وكلهم مخالفوك ويقولون : غلبك بحشمة الكثرة فيهم : استظهرت عليهم بقوله سبحانه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩] .

وإن شئت تمثلت بقول الفرزدق :

إذا اجتمعوا عَلَيّ فَخَلِّ عنهم   وعن ليثٍ مَخالِبُه دَوَامِـــى

ـ وإذا رأيت الخصم يتعاظم بسمته وحسن لباسه وخمله : تمثلت بقوله سبحانه : ﴿ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف:١٨] .

ـ وإذا رأيت فى الحاضرين من يَتَسَفَّه . قلت : جوابُ الأحمق السكوت ؟! تمثلت بقول المتنبى :

وأَتْعَبُ من ناداك مَنْ لا تُجيبه   وأغْيَظُ مَنْ عاداك من لا تُشاكِلُ

ولو اخترت الرفق قلت : قال الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان:٦٣] .

وإذا رأيت من يعيب كلامك : تمثلت بقول المتنبى :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الجهل السقيـــم

ـ وإذا رأيت من يضحك عند كلامك : تمثلت بقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩] .

أو تمثلت بقول الشاعر :

ضحكتُ من الشيء مستعجبًا وشر الشدائد ما يُضحــك

ـ وإذا رأيته لا ينقاد للحق عند ظهوره : تمثلت بقول الله سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر: ١٧ ، ١٨] .

وقلت قوله تعالى : ﴿... سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١ ، ٢].

وإذا رأيته يُغالب بعد ظهور الحق ، أو يستهزئ ، قلت : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٦] .

وقلت قول عمر رضي الله عنه : الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل !

ـ وإذا رأيت الخصوم يغالبونك بعد ظهور كلامك : تمثلت بقوله سبحانه : ﴿ ...وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] .

وبقوله سبحانه : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥] .

وإذا رأيته يتكلم بما لا يستقر بعد فى قلبه أو لم يكن أحكمه : قلت : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وإذا رأيته يعاندك ويقول : هذا الذى تقول لا يساوى الإصغاء ، وأنك لا تفهم ما قلت .

قلت : هذا ﴿ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ٧] .

وإذا احتاج إلى جواب يطيل الفكر فى تذكُّره ، ثم أورده فى غير وقته :

تمثلت بقول الكُميَت :

* تنّبهَ بعد نومته نزار *

ـ وإذا علمت أنه فَهِمَ كلامك ولم يحضره الجواب .

ويستفهمك فيه ليتذكر شيئًا يجيبك به : قلت ما قال الله سبحانه : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ [الرحمن: ٣٣] .

ـ وإذا رأيته يكرر الفصل الواحد كثيرًا، قلت : صبر السوء سفر لا ينقطع.

ـ وإذا تهاون بكلامك وعَبَس ، أو أعرض عنك : قلت ما قال سبحانه : ﴿ **ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ** ﴾ [المدثر: ٢١ ـ ٢٤] .

ـ فهذه ضروب من الأمثال تستعين بها على دفع الخصم فيما يتعذر فيه رسْم النظر ، أو لا يقْصد بالمناظرة طلبَ الحق ، وابتغاء الرشد ؛ أو يقصد به التلهى والمباهاة ؛ فإذا أوردتَها أبرقته حرّا لخجله ؛ فيتجنب المقاصد الذميمة إن شاء الله عز وجل :

وإن شئت أن لا تقابله بشىء من ذلك عند تَعدِّيه فاختر السكوت والإعراض عن مناظرة مثله ، وذلك خير ـ إن شاء الله عز وجل ـ وبالله التوفيق .

والذى لابدّ فى الجدل من المحافظة عليه والتحصيل فيه : تحصيل المقالة والدلالة وما تبنى عليه الدلالة وهو أصلها والإلزام والانفصال .

فمتى كان المجيب والسائل على تحصيل ومراعاة فى هذه الجملة : لم يكن عليهما غيرهما .

ـ وذكرنا أنه لابدّ من المحافظة على الغرض المقصود دون الجدل فى المسألة وتحصيل النكتة التى عليها مدار المسألة .

ولا سبيل إلى هذه المحافظة إلا بمعرفة ما هو الأصل ، ومعرفة كيفية البناء على ذلك الأصل والفصل بين أصل يحتاج إليه لنفسه وما يحتاج إليه لغيره ليلحق كل فرع بأصله .

ولا سبيل إلى ذلك إلا بعد معرفة حقائق الأصول ليجمع إلى كل معلوم يحدّه ما هو منه ويميز عنه ما ليس منه وأن يفصل بين ما يُطلب فيه القطع وبين ما يكفى فيه غلبة الظن ، والذى عليهما فى الألفاظ : فما كان منها من باب الحدود: راعيا فيه ما يليق بالحقائق والحدود من الألفاظ على ما بيناه من صونها عن الاستعارات ، وألفاظ الشركة على وجه يوجز فيدل على المحدود وحقيقته .

وإذا صارا إلى تحقيق العلل بالألفاظ : لخّصا فيها ما لابدّ منه فى تحصيلها من الألفاظ .

وإذا صارا إلى التقسيم : اجتهدا فى تحصيل القسمة العادلة بلا زيادة ولا نقصان ولا تداخل .

- وعليهما أن ينصفا فى حكاية كل واحد منهما كلام صاحبه من غير زيادة ولا نقصان إلا فيما يرجع إلى تطويل وتكرير فى العبارة .

● ● ●

من شروط الحوار .. فى كتب التراث

الشرط الأول : أن يكون المتناظران على معرفة تامة بما يحتاج إليه كل منهما من قوانين المناظرة وقواعدها حول الموضوع الذى يريدان المناظرة فيه .

الشرط الثانى : أن يكون المتناظران على معرفة بالموضوع الذى يتناظران فيه ، حتى يتمكن كل واحد منهما من الإحاطة بعناصر القضية بكل جوانبها ، فإذا تكلم لم يخبط خبط عشواء ولم يناقش فى البديهيات بغير علم ، وإذا ألزم بالحق التزم به من غير مكابرة .

الشرط الثالث : أن يكون موضوع المناظرة مما يجوز أن يجرى فيه التناظر وتختلف فيه وجهات النظر ، فالمفردات والبديهيات الجلية لا تجرى فيها المناظرة أصلا .

الشرط الرابع : أن يجرى المتناظران مناظرتهما على عرف واحد ومصطلح متفق عليه ، فإذا كان كلام أحدهما جاريًا على عرف الفقهاء مثلاً فلا يجوز أن يكون كلام الطرف الآخر جاريًا على عرف النحاة ؛ لأن المناظرة فى هذه الحالة لا يكون فيها قاسم مشترك يجمع الطرفين ويحرر محل النزاع .

شروط المحاور :

أما المحاور فلابد أن تتوفر فيه الشروط التالية[1] :

١ ـ أن يتخلى عن النرجسية والأنانية ، لأن لجوء المحاور إلى رؤية الآخرين بمنظار معتم أو ضيق ، أو تجاهل رؤيتهم أحيانًا من خلال عدم الاعتراف بمهارتهم الفكرية إنما هى سياسة نرجسية ذميمة لابد من التخلى عنها ، ولا شك أن هذا المنظار الضيق يؤدى إلى ضعف الحوار واختناق مسيرته وغياب السجال والنقاش

---

(١) انظر : طه عبد الرحمن ، فى أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طـ١ (المغرب ـ الدار البيضاء : المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع ١٩٨٧م) .

العلمى عن واقعنا الفكرى .

إن ضوابط الحوار تقتضى وجوب التخلى عن النرجسية لأنها مرض نفسى غير مرغوب فيه ، كما أن من الضرورة أن يتخلى أطراف الحوار عن مبدأ تعظيم (الأنا) أو تضخيم الذات ، ليكون الحوار علميًا وفعالاً ، لأن الذاتية والنرجسية سياسة غير مجدية ، وليس هناك سبب منطقى يبرر اعتناقها من قبل فرد يحترم إنسانيته وشخصيته ويحترم شخصيات الآخرين .

٢ ـ أن يكون المحاور صاحب نظر وتفكير مستقل ، بحيث لا يكون مقلّدًا لغيره ، وفى هذا يقول الإمام الغزالى : « أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته ، وإدراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره . . فلا يسمى عالمًا إذا كان شأنه الحفظ من غير إطلاع على الحِكم والأسرار »[(١)] .

فالغزالى يعبر بهذا عن وجهة النظر الصحيحة فى الفكر الإسلامى للتعامل مع الطروحات الفكرية ؛ لأن تفاوت الأحكام عند عدم وجود النصوص أمر لا ينبغى التخوف منه ، بل من حقنا أن نستمد منه حرية عقلية وفكرية مطلقة ، ذلك أن الحكم الثابت بالنص لا مجال فيه للفكر والاجتهاد ولا مكان معه لحرية الرأى ، وإنما تتعدد الآراء وتتباين الطروحات فى الميادين السياسية والاقتصادية وأنواع المعاملات الأخرى التى أسهم فيها العقل البشرى بحظ وافر .

٣ ـ أن يكون المحاور سريع البديهة ، فإن من حسن المحاورة أن يكون المحاور ذواقًا للكلام ، مدركًا لأبعاده ، متجاوبًا مع العواطف ؛ لأن عدم التجاوب السريع مع الطرف الآخر قد يفوّت عليه الكثير من المعلومات التى ينبغى أن يتوقف عندها ويعالجها بلباقة وحنكة .

---

(١) الإمام الغزالى ، إحياء علوم الدين (القاهرة ـ دار الفكر العربى ـ ودار النيل ، بدون تاريخ) (١/ ٧٣) .

٤ ـ أن يحسن المحاور الاستشهاد بآيات القرآن الكريم فى الموضوعات الشرعية بحيث تتوفر لديه القدرة على فهم آيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ فإن ذلك مما يعينه على ظهور الحق ، خاصة فيما يتعلق بمحاورة غير المسلمين .

يقول الدكتور عناية الله : خرجت يوم الأحد من أيام سنة ١٩٠٩م ، وكانت السماء تمطر بغزارة ، فإذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جيتر ـ الأستاذ بجامعة كمبردج ـ ذاهبًا إلى الكنيسة ، والإنجيل والمظلة تحت إبطه ، فدنوت منه وسلّمت عليه فلم يرد علىّ ، فسلّمت عليه ثانية فلم يرد علىّ ، ثم سلّمت عليه مرة أخرى ، فسألنى ماذا تريد منى ؟

فقلت له : أمرين !

الأول : هو أن مظلتك تحت إبطك رغم شدة المطر ، فابتسم وفتح مظلته على الفور .

وأما الأمر الآخر : فهو ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العلم مثلك أن يتوجه إلى الكنيسة ؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال : أدعوك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى ، فلما دخلت غرفته وجدته منهمكًا فى أفكاره ، فبادرنى : ماذا كان سؤالك ؟

ودون أن ينتظر ردى بدأ يلقى محاضرة عن الأجرام السماوية ونظامها المدهش ومداراتها وجاذبيتها حتى أننى شعرت بنفسى تهتز من هيبة الله وجلاله ، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائمًا والدموع تنهمر من عينيه ويداه ترتعدان من خشية الله ، ثم توقف فجأة ، وبدأ يقول : يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى ، وعندما أركع أمام الله وأقول له :« إنك لعظيم » أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذه الدعاء ، وأشعر بسكينة وسعادة عظيمتين ، أفهمت يا عناية الله لِمَ أذهب إلى الكنيسة ؟

يقول الدكتور عناية الله : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانًا فى عقلى ، وقلت له لقد تأثرت جدًا بالتفاصيل التى رويتموها لى ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتابى المقدس ، فلو سمحتم لى بقراءتها ، فهزّ رأسه قائلاً : بكل سرور ، فقرأت عليه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٧، ٢٨] . فصرخ السير جيمس قائلاً : ماذا قلت ؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء ، مدهش وغريب جدا !! إن الأمر الذى حدثتك عنه كان نتيجة دراسة استمرت أكثر من خسمين عامًا من أنبأ محمدًا به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب منى شهادة أن القرآن كتاب موحى به من عند الله] [١] .

● ● ●

---

(١) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ترجمة ظفر الإسلام خان ،ط٧ (القاهرة : المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٣٧هـ ـ ١٩٧٧م) ص٢١٠ـ ٢١٢ .

من سلبيات الحوار

قد يستبدينا الحماس فى حوارنا . . وتحت وطأة موجاته المتتابعة تتداخل الآراء ويكفهر الجو . فلا تكون الرؤية واضحة .

وعندئذ . . يكون من الأنسب ألا يتوقف الحوار .

إن الأنسب ترك الأمور تجرى فى أعنّتها . . حتى إذا هدأت النفوس . . واستعدت للتلقى كان التدخل مناسبًا .

ذات يوم : حضر الغــداء . . ودخل البيت . . فاختلفت الآراء : آراء الشباب . . هل يقدمون الغداء . . أو الصلاة ؟

وانتصر رأى القائلين : الصلاة . . فلما صلوا وعادوا . . قال شيخهم الذى طاوعهم : فيم كنتم تفكرون فى صلاتكم ؟

- فى الطعام .

- ولو أكلتم . . فيم كنتم تفكرون ؟

- فى الصلاة !!

- وإذن فالبدء بالطعام كان أفضل !!

وقد تذكرت ما كان يفعله « أبو الدرداء » رضي الله عنه . . والذى كان ينجز كل حاجاته قبل الدخول فى الصلاة . . حتى إذا دخل فيها . . غاب عن الدنيا كلها . . أو غابت عنه!!

ب - نحن اليوم فى موقع المغلوب . . ولأن المغلوب مولع بتقليد الغالب فلنكن على حذر . . لاسيما إذا تصورنا أن خصوم الأمس كانوا سطحيين . . وكان تقليدهم ضحلا . . لكن الإسلام كان صاحيا .

أما اليوم : فخصومنا أيقاظ . . يفكرون بجد . . وخططهم مدروسة . .

وفكرهم مسموم .. ونحن أمامهم ضعاف ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] .

الحقيقة المرة :

وهناك حقيقة اجتماعية لابد من استيعابها .. وهى : ليس يخلو المرء من ضد .. ولو حاول العزلة فى رأس جبل .

وضدنا غير ماكر .. بدليل ما يروج له إعلامه : والذى يصور الإسلام هكذا: رجلا يمسك بإحدى يديه سيفا وبالأخرى مصحفًا ..

ثم يصور اليد الممسكة بالسيف لتكون : أطول .. وأضخم .. فماذا فعلنا؟!

على الداعية : أن يكون أسوة حسنة يصدق عمله قوله حتى يفر بدعوته من التناقض الذى يربك المدعو فلا يتعاطف معه . وهذا ما نعاه تعالى على اليهود فى قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] ثم فى قوله تعالى موضحًا سمة من سمات المجتمع اليهودى : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٩] .

فإذا كان الداعية واحدًا ممن عاتبهم الله تعالى فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢] ماذا يحدث ؟

هنا يبدو الداعية لتناقضه شخصية غير مرغوب فيها .. وبالتالى سوف يعرض عنه.

قد يموّه الداعية .. ليرسم لنفسه صورة غير حقيقية وأنه يملك من المواهب ما يجعله أجدر باحترام الناس .. ليقعوا فى شَرَكه المنصوب .

ولكن الآيات الكريمة تردعه .. ليتعامل مع الناس بما يملك فعلا من مواهب.. مجردا نفسه من كل إضافة وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] .

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... ﴾ [الأنعام: ٥٠] .

فالرسول ﷺ مأمور بإعلان أنه بشر يوحى إليه .. لا يملك طاقات خارقة تحقق أمانيهم .. لأن ذلك كله إلى الله تعالى .

ويعنى ذلك أنه يضع حدًا لأمنياتهم الموغلة فى الخيال .. ليتعاملوا معه .. ولا يحملوه ما لا يطيق ..

ـ يجب أن يكون الداعية منفتحًا على الناس .. مهما كانت عقائدهم وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ... ﴾ [التوبة: ٦] .

فمن حقه أن يعلم حقيقة ما يدعى إليه .. ثم تكفل بإفهامه .. فإن قبل فبها .. وإلا .. فحسابه على الله .. لا عليك .

وهذا الحق المكتسب .. بسبب أنهم لا يعلمون .. وواجبنا أن نحبط عذر الجهل .. حتى نعرّيهم أمام أنفسهم .

● ● ●

ومن سلبيات الحوار : الكبر

يقول العلماء :

[الكبر بطر الحق وغمط الناس ، وذلك فى حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** » ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسن؟ قال : « **إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس** »(١) .

قال الحافظ المنذرى : بطر الحق هو دفعه ورده على قائله ، وغمط الناس هو

---

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) .

احتقارهم وازدراؤهم (١) .

وهو المعنى الظاهر للكبر عند الغزالى ، الذى هو ثمرات الكبر ، والأعمال التى تنتج عن الكبر الباطن ، والمعنيان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر .

وهذا الحديث الشريف يفيد أن الكبر ليس بلبس الثياب الجميلة ، ولا بالحرص على جمال المظهر ، فإن ذلك شيء حسن يحبه الله تعالى فى عبده ، إنما الكبر رفض الخضوع لأحكام الشريعة ، والتعالى على عباد الله تعالى واحتقارهم.

خطورته :

الكبر مرض فى القلب خطير ، وهو ذو أثر على صاحبه وبيل ؛ لأنه سبب الطبع على القلب ، كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر : ٣٥] .

فلا يصل الخير والهدى والنور إلى قلب المتكبر ، ويصرفه الله عن تدبر دلائل التوحيد ، وآيات الهدى ، ومواعظ القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

والكبر يحمل صاحبه على رفض الحق ، رغم وضوح الدليل وسطوع البرهان، ورغم اليقين التام بالحق ، كما قال تعالى : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [النمل : ١٤] .

ومن أخطر ما فى الكبر من الشر أنه يمنع صاحبه من دخول الجنة ، كما جاء فى حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** » رواه مسلم .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى (٣/ ٥٤١) .

قال الغزالى فى الإحياء : (وإنما صار حجابًا دون الجنة ، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هى أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ؛ لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ، ولا يقدر على التواضع ـ وهو رأس أخلاق المتقين ـ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز ، ولا معنى للتطويل ، فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه) ا.هـ [(١)] .

ويضاف إلى ما ذكره الغزالى أن الكبر فيه منازعة لله عز وجل فيما هو من صفاته الخاصة به جل وعلا ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [الجاثية:٣٧] . أى الكبرياء له وحده كما يفيده تقديم الجار والمجرور .

وعن أبى سعيد الخدرى ، وأبى هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : «**العز إزارى والكبرياء ردائى فمن ينازعنى عذبته**» [(٢)] .

لذلك كان حريًا بكل مسلم أن يبتعد عنه . وجدير بالدعاة على وجه الخصوص الحذر منه أشد الحذر ، ليسلموا من العقوبة المترتبة عليه فى الدنيا والآخرة . فأما فى الدنيا فإن من عقوبة المتكبر الذلة والهوان ، كما جاء فى حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « **ما من آدمى إلا فى رأسه**

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٠) .

حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك ضع حكمته » رواه الطبراني [(١)] .

أما الخاضعون لجلال الله تعالى ، المتواضعون لعباده ، فإن الله تعالى يرفع أقدارهم بين الناس ، ويعلي مكانتهم بين العباد ، كما أفاده الحديث السابق ، وكما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله** » رواه مسلم[(٢)] .

ومن عقوبة المتكبر والمعجب بنفسه تعرضه للعذاب الأليم في الدنيا ، بمثل ما قص علينا القرآن الكريم ، من أخبار المتكبرين في الأمم الغابرة ، وهو في آيات القرآن الكريم كثير .

• • •

آفة الكبر

قيل لأحد العلماء : في كم ألفت هذا الكتاب الضخم الفخم .. فأشار بأصابعه الثلاثة .. ثم أردف : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨] . فلم يكملها حتى هوت يده شلاء !!

وتلك عقبى الذين استكبروا : أن يحرقوا بنار الدنيا .. قبل نار الآخرة .

لكن : ما هي أسباب الكبر :

القوة .. أو الحسب .. أو الذكاء والعلم .

---

(١) المعجم الكبير برقم (١٢٩٣٩) ، قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٣٢) (رواه الطبراني ، ورواه البزار بنحوه من حديث أبي هريرة وإسنادهما حسن . والحكمة بفتح الحاء والكاف هي ما تجعل في رأس الدابة كاللجام ونحوه) اهـ . وانظر السلسلة الصحيحة للألباني رقم (٥٣٨) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٨٨) .

وكان على هذا الرجل القرآنى أن يردع نزعة الكبر فى قلبه بهذه الآيات .

أما القوة : فيردعها بمثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

وأما الحسب أو الجاه : فتمثل قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [المؤمنون: ١٠١] .

وأما الذكاء : فكان يكفيه مآل قارون : ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** ﴾ [القصص: ٧٨] .

● ● ●

من آفات الحوار

آفة الحوار هى : إحساس المحاور بالغرور .

وقد كان جل المستشرقين كذلك بالإضافة إلى سبب ثان هو : اعتقاد المستشرق ببطلان دعوى الإسلام .

ومهما حاول أن يكون منصفا . . فتلك المقدمة الخاطئة . . وهذا الغرور مانعان من الوصول إلى الحق .

ولكن الذى وصلوا إليه هو : التناقض : محمد صادق فى نفسه . . كاذب فى رسالته !!

التعصب : فهم يؤمنون بكل الأنبياء . . إلا محمدًا . . ويسوغ لأكثرهم الإيمان . . بألوهية عيسى !!

وحتى لا نخدم أعداءنا . . بالانفعال . . يقول أحد الكاتبين :

[جالت بخاطرى وأنا أتابع زيادة مبيعات كتاب تافه مثل « آيات شيطانية » وأحاول ملاحقة انتشاره فى الجامعات الأمريكية إلى حد قيام بعض أقسام اللغة

الإنجليزية والدراسات المقارنة فى الولايات المتحدة بتدريس هذا الكتاب . وكان أول ما فعلته محاولة قراءة هذا الكتاب !! وأقول محاولة لا أكثر فقد قضيت أسابيع أحاول تجاوز الصفحات الأولى منه ، وهى صفحات ما زالت بعيدة عن الجزء الذى يتبجح فيه الكاتب فى تطاوله على الإسلام لكننى فشلت فى تخطى الخمسين صفحة الأولى . فالكتاب من الناحية اللغوية والأدبية عمل ردىء . ينم عن خيال مريض ، وقدرة أقل من متوسطة فى التعبير . يحاول المرء فى أحيان كثيرة أن يربط بين الجملة والأخرى . بل حتى بين أجزاء الجملة الواحدة بلا جدوى . لم أقرأ فى حياتى شيئًا بهذه الركاكة . وقد أنتجت نفس القريحة المتوسطة المستوى أعمالا من قبل . ولم تنجح فى تحقيق أى نجاح فماذا حدث فى هذه المرة ؟ وهل يملك هذا العمل مقومات خاصة مكنته من تحقيق هذه الشهرة غير العادية للمؤلف المغمور ؟

ما حدث هو أن بعضنا للأسف الشديد لم يدرك أن قراراته لم تعد تؤثر فيه وحده نسى البعض آخرية الآخرين ، وهكذا كان الحكم الذى أصدره بعض المسلمين بإهدار دم المؤلف بداية لردود فعل متعاقبة ومتزايدة تؤكد حق الآخرين فى آخريتهم . لم يعد العالم كما قلنا جزراً منفصلة . بل قرية صغيرة متصلة الأطراف . وهكذا أدى الحكم المتسرع غير المدروس إلى عكس ما أراده أصحابه تمامًا . فقد أصبح صاحب الخيال المريض ، وصاحب الموهبة الفقيرة . والتعبير الركيك شهيداً من شهداء الرأى . وصاحب بيان يستحق التدريس فى الجامعات الأجنبية . وعلى درجة من التميز تؤهله للمقارنة بجيمس جويس وهمنجواى . بل إن بعض أساتذة الأدب فى الولايات المتحدة استغلوا بعض الآراء غير المسئولة فى العالم العربى وبدأوا مقارنة بين سلمان رشدى ونجيب محفوظ !! هل يمكن أن يصل بنا الأمر إلى هذا الحد !!

والغريب أن بعض القائمين على تدريس سلمان رشدى فى الجامعات الأمريكية يردون على الاحتجاجات العربية والإسلامية فى هذه الجامعات قائلين

بأن الكتاب تافه أو متوسط القيمة على أكثر تقدير ، بل ويعترفون صراحة بأنه لولا الضجة الإسلامية العنيفة لما شعر واحد بهذا الكتاب ولانضم لأعماله الأخرى في عالم النسيان . لكن الضجة الإسلامية هي التي أتاحت هذا الاستقبال الصاخب لعمل في مثل هذه التفاهة !! لماذ لم يأت رد فعل الأمة الإسلامية مدروسا وهادئًا وعاقلا مثل رد الأزهر الشريف في مصر !! لقد كان الرد رذينا يقوم بالتنبيه والتحذير والإدانة . ولكنه لا يريق دم أحد فيحوله إلى شهيد لحرية الرأي وهو شرف لا يستحقه هذا النكرة بأي حال من الأحوال] اهـ .

● ● ●

من صور الإنصاف

إن قيمة الإنصاف : صعبة المنال ! لماذا ؟ لأنك تكون قادراً على التنكيل بخصمك ماديًا أو أدبيًا : ومع ذلك .. تضغط على مشاعرك فتعطيه حقه فى الدفاع عن نفسه .. وربما أتيح لك أن تحكم لصالحه .. ولو أضر ذلك الحكم بوجهة نظرك .. اقتناعا منه بحقه فى الإنصاف : رغم أن الخوارج كفَّروا من سواهم .. بل واستحلوا دماءهم .. إلا أن المسلمين لم يكفروهم . وفى مقدمتهم الإمام على رضي الله عنه ، فقد سئل الإمام رضي الله عنه : أمشركون هم ؟ فقال : من الشرك فروا !

فقيل له :أمنافقون ؟ فقال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً ! فلما قيل له: فما هُمْ إذن ؟ قال : قوم بغوا علينا فقاتلناهم !

وهذا درس من دروس الموضوعية فى الحكم على الناس والأحداث ..

وهو : تنحية الهوى .. لتكون الكلمة الأخيرة للإنصاف : إنصاف الآخرين من نفسك ..

وإلا .. فإن الحكم بالهوى خارج بنا من دائرة هذا الإنصاف .. حتى إن من قال فى القرآن بهواه .. فأصاب .. فقد أخطأ ..

ولقد كان الإجماع على حب الإمام ـ رحمه الله ـ أمرًا مفروغًا منه .. إلا أن الشيعة كانوا يكرهونه ..

وذات يوم سمع الإمام ناسا يتكلمون فى علىّ رضي الله عنه .

فقال لهم : كفوا : لقد أكثرتم فى علىّ .. وعلى والله ما زانته الخلافة .. ولكنه زانها !!

فلما سمع بعض الشيعة ذلك قال : والله لقد أخْرَجْت نصف بغضى للإمام. بهذه الشهادة !!وإنها لشهادة حق .. لكن الميزان متقلب .. إنه الهوى

الدوار مع الزمان حيث دار الزمان ! ولكن الإسلام شيء غير هذا تمامًا . .

لقد حسم الإسلام قضية العقيدة . . حسمها . . ورفض أن تكون محل مساومة . .

أما فيما يتعلق بالعادات . . فقد كان مرنا . . حيث أبقى على الطيب منها . . فكان بذلك موضوعيا . . ولم يشطب على التاريخ الإنسانى كله بجرة قلم !

فلماذا لا نكون موضوعيين فى حكمنا على الجيل القديم . . وبخاصة العلماء منهم ؟

إن التملق مذموم . . لكنه مطلوب معهم حرصًا على عملهم . . ولله در ابن عباس لقد كان رضي الله عنه على سعة علمه ـ يذهب بطلب العلم . . فإذا وجد الشيخ نائمًا . . انتظره لدى الباب . . وفى مهب الرياح السافية . . حتى يأخذ حظه من النوم . . موفور العافية . .

هكذا كان ابن عباس . . فماذا تعلمنا منه ؟

ولقد أخذنا علمه النظرى . . أما هذا الدرس العملى . . فلم نلتفت إليه . . لأنه يصطدم بغرورنا ! !أو كما قال علماؤنا .

كان للإمام علىّ رضي الله عنه . . اهتمام خاص بالفلاحين . .

يظهر ذلك فيما كتبه لمن يتولى تحصيل الخراج منهم. « لا تروعنّ مسلمًا . ولا تجتازن عليه كارهًا . .

ولا تأخذ منه أكثر من حق الله تعالى فى ماله .

فإذا قدمت على الحى . . فانزل بمائهم . . من غير أن تخالط أبياتهم . .

ثم امض إليهم بالسكينة والوقار . .

فتسلم عليهم . . ثم تقول : عباد الله : أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم . فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟

فإن قال قائل : لا . . فلا تراجعه .

وإن أنعم لك فنعم ـ أى قال : نعم ـ فانطلق معه : من غير أن تخيفه . . أو توعده . أو تعسفه . أو ترهقه فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة .

فإن كان له ماشية أو إبل . . فلا تدخلها إلا بإذنه . . فإن أكثرها له .

فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه . ولا عنيف به .

ولا تنفرن البهيمة ولا تفزعها ؟!! ولا تسؤون صاحبها فيها »(١) .

إنه درس فى التمكين لخلق العزة . . وحتى تظل قامة العامل مشدودة ورأسه عاليا . .

إن الأذلاء . . من طول الانحناء لا يعرفون لون السماء . . وإذ يقول تعالى : ﴿ إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ...﴾ [محمد:٧] .

فإن من واجبنا أن نصرخ فى آذان العاجزين :

إن المسلم الذليل . . لن ينصر مولاه الجليل .

• • •

الخارجية .. الذكية

قيل : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج ، فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا : عاجلها بالقتل أيها الأمير .

فقالت الخارجية : لقدا كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج . قال : ومن صاحبى ؟ قالت : فرعون استشارهم فى موسى عليه السلام فقالوا : أرجئه وأخاه .

قال رجل خارجى للحسن البصرى : ما رأيك فى الخوارج ؟

---

(١) نهج البلاغة (٢٩٨، ٢٩٩) .

فقال : طلاب دنيا .

فقيل له : كيف وهم يمشون بين الرماح والمعارك مضحين بحياتهم وأهليهم ؟

هل يمنعك الحاكم من أن تصلى .. من أن تحج .. من أن تصوم ؟

لا ..

ما أراه إلا السلطان تحاربه عليه ، والسلطان هو الدنيا !

وتسعفنا الذاكرة هنا بابن عطاء الله رحمه الله .. والذى كان مثلا يحتذى فى هذا الباب : فقد كان رحمه الله يدرس الفقه المالكى فى الأزهر . ولكنه لم يكن متعصبًا :

كان من أمانته العلمية . وإنصافه : يذكر كل الآراء فى القضية .. وبعد ذلك يرجح ما يختاره .. ولو كان على غير مذهبه ..

وكان من آثار ذلك : أنه لما كثر ترجيحه لآراء الشافعية : عده العلماء فى طبقتهم (وترجموا له فى طبقات الشافعية).

يقول الله عز وجل : ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

يقول صاحب « التحرير والتنوير » : « وإنما قدم عليه قوله : ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ** ﴾ [آل عمران : ٧٥] إنصافًا لحق هذا الفريق ؛لأن الإنصاف مما اشتهر به الإسلام» .

ثم واصل تعليقه قائلا : « وإذا كان فى زعمهم أن دينهم يبيح لهم خيانة غيرهم فقد صار النعيُ عليهم . والتعبير بهذا القول لازم لجميعهم : أمينهم ، وخائنهم : لأن الأمين حينئذ . لا مزية له إلا فى أنه ترك حقًا يبيح له دينُه أخذَه . فترفَّع عن ذلك . كما يترفع المتغالى فى المروءة عن بعض المباحات » .

ولنا هنا تعقيب .

السياق العام هنا يشى بعدم استوائهم .. بل هناك فيهم أمناء ؟ وإذن .. فدعوى التسوية بينهم : الأمين والخائن .. فيها نظر !!

ذلك أن السياق ينصفهم :

١ ـ بتقديم النموذج العالى وتأخير النموذج الردىء.

٢ ـ وقبل ذلك يشرفهم بأنهم أهل الكتاب .. فهم أقرب إلينا رحمًا .

يقول صاحب « المنار »: [وانظر كيف أنصفهم الكتاب : فبيّن أن منهم الوفى والخائن . ولا يكون أفراد جميع الأمة خائنين . وناهيك بأمة منها السموءل] .

وتقديم المسند فى قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران: ٧٥] فى الموضعين للتعجيب من مضمون صلة المسند إليهما :

ففى الأول : للتعجيب من قوة الأمانة مع إمكان الخيانة . ووجود العذر له فى عادة أهل دينه .

وفى الثانى : للتعجيب من أن يكون الخوّن خلقًا لمتبع من كتب الله .

وهو نفسه يقول فى نفس الموضع : [وقد ذكر الله هنا : أن فى أهل الكتاب فريقين : فريقًا يؤدى الأمانة تعففا عن الخيانة ، وفريقًا لا يؤدى الأمانة . متعللين لإباحة الخيانة فى دينهم .

قيل : ومن الفريق الأول : عبد الله بن سلام . ومن الفريق الثانى : فنخاص ابن عازوراء . وكلاهما من يهود يثرب .

والمقصود من الآية : ذم الفريق الثانى إذا كان من دينهم فى زعمهم : إباحة الخوْن].

يقول الرازى : « الآية دالة على انقسامهم قسمين بعضهم أهل الأمانة وبعضهم أهل الخيانة » . ا . هـ .

المغزى

[فليس هناك شر محض . ولا خير خالص : فمهما استشرى الشر ، فإن فيه لُمعًا من الخير لا تكاد ترى . ومهما صفا الخير فإن فيه غشاوات من الشر لا تكاد تبين] ا . هـ .

واليهود وإن كانوا الشر كله من الرأس إلى القدم : ففيهم الضالون ، وفيهم المؤمنون ، كما يقول الله تعالى : ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وفي تعليقه على قوله تعالى : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ... ﴾ [آل عمران:١١٣] ، يقولون: « استئناف قصد به إنصاف طائفة من أهل الكتاب بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعمهم. تأكيدًا لما أفاده قوله: ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

فالضمير في قوله : ﴿لَيْسُوا ﴾ [آل عمران:١١٣] لأهل الكتاب المتحدث عنهم آنفًا . وهم اليهود » .

ثم قال : « . . وعدل عن أن يقال » منهم ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران:١١٣] إلى قوله : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... ﴾ [آل عمران:٧٥] ليكون هذا الثناء شاملاً لصالحي اليهود . وصالحي النصارى . فلا يختص بصالحي اليهود .

فإن صالحي اليهود قبل بعثة عيسى كانوا متمسكين بدينهم مستقيمين عليه ، ومنهم الذين آمنوا بعيسى واتبعوه .

وكذلك صالحو النصارى . قبل بعثة محمد ﷺ كانوا مستقيمين على شريعة عيسى .

وكثير منهم أهل تهجد في الأديرة ، والصوامع . وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية . . ومعنى قائمة: أنه تمثيل للعمل بدينها على الوجه الحق»ا . هـ.
ومعنى : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [المؤمنون:٦١] ، أي : يرغبسون في الاستكثار منها . ا . هـ.

وقد تعجب من الفريقين على سواء مع أن الأمناء أولى بالإعجاب والخائنون أجدر بالتعجيب ؟!

● ● ●

ومن الإنصاف

يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] .

ويقول عز وجل بعد ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة: ٥٧] .

ويقول عز وجل : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا... ﴾ [المائدة: ٨٢] .

ومع ذلك ينصفهم : إزاحة .. للعذر . وإزالة .. للشبهة .

يقول عز وجل : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣] .

إن المسيحية : دين المحبة . والإسلام دين الرحمة :

رحمة النفس : « إن لبدنك عليك حقًا » .

رحمة بالزوجة : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] ..

رحمة بالأولاد : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

رحمة بالوالدين : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤] .

● ● ●

شبهة مردودة

قال الفتى : قرأت فى كتاب « صيد الخاطر » لابن الجوزى تحت عنوان : «الحكمة فى الإبقاء على اليهود والنصارى » . . قرأت ما يمكن أن يكون اعترافا بأن الجزية المفروضة على أهل الكتاب . . إنما هى إذلال لهم .

وقلت للفتى : إليك ما كتبه الرجل فى صيد الخاطر . تحت هذا العنوان ليتبين الحق كما هو . . بعيداً عن تأويلات الجاحدين .

جاء فىُ كتاب « صيد الخاطر » ، يقول : « ابن الجوزى » تحت عنوان : الحكمة فى الإبقاء على اليهود والنصارى ، قال : تفكرت فى إبقاء اليهود والنصارى بيننا . وأخذ الجزية منهم ، فرأيت فى ذلك حكمًا عجيبة :

منها : ما قد ذكر : أن الإسلام كان ضعيفًا . فتقوى بما يأخذ منهم جزيتهم .

ومنها : ظهور عزه بذلهم ، إلى غير ذلك مما قد قيل .

ويبدو « ابن الجوزى » على غاية ما يكون التوفيق . حين يروى ذلك بصيغة التمريض [قيل] بما يشير إلى أنه غير مذعن لهذا الذى قيل : ذلك بأن الإسلام إنما هو باق لأنه عزيز بذاته . . بمبادئه . .

وليست عزته مخصومة من حساب جهة ما . .

وأن للجزية أسرارها . . وليس منها إذلال الإنسان .

وقد أكد ابن الجوزى ـ رحمه الله أن بقاءهم كان لحكم أخرى : قال : ووقع لى فيه معنى عجيب :

وهو : أن وجودهم . وتعبدهم ، وحفظهم شرع نبيهم ﷺ دليل على أنه قد كان أنبياء وشرائع .

وأن نبينا ﷺ ليس ببدع من الرسل : فقد اجتمعت الجن وهم على إثبات صانع . وإقرارٍ برسل . .

وإذن . . فإننـا لم نبتدع ما لم يكن . . ولعل مما يشيـر إلى هذا الإلزام قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٨ ـ ٥٠] ، وهم يصبرون على باطلهم . ويؤدون الجزية . .

فكيف لا نصبر على حق والدولة لنا ؟!!

وفى بقائهم : احترام لما كان صحيحا من الدين . . وليرجع متبصر . وليستعمل منكر .

ولعل مما يشير إلى هذا المعنى قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٨ ـ ٥٠] .

يقول الرازى : « إنه لا إنكار فى إنزاله . وفى عجائب ما فيه . . فقد أتينا موسى وهارون التوراة .

ثم هذا القرآن معجز : لاشتماله على النظم العجيب ، والبلاغة البديعة .

واشتماله على الأدلة العقلية . وبيان الشرائع : فمثل هذا الكتاب ـ مع كثرة منافعه ـ كيف عليكم إنكاره » ؟

والمعنى : « أنه لو أنكره غيركم لكان ينبغى لكم مناصبته . . فكيف يكون الإنكار منكم » ؟!

وإذن . . فالقرآن الكريم يحاكمهم إلى العقل . . العقل الذى آمن بموسى وهارون نبيا . . وبالتوراة رسالة . .

كيف ينكر أن يكون محمد رسولاً . . والقرآن رسالة ؟!

شهادة الواقع :

والواقع التاريخى شاهد بحسن معاملة اليهود : فبعد أن صالح ﷺ أهل

خيبر على شروط معينة جعل بعض الشباب المحاربين يقعون فى حرث اليهود ، ويأكلون من ثمره ، فاشتكى اليهود له عليه الصلاة والسلام .. فأمر بأن ينادى : الصلاة جامعة .

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال : لقد اشتكى اليهود أنكم وقعتم فى حظائرهم وقد أمّناهم على دمائهم وأموالهم التى فى أيديهم وفى أراضيهم ..

ألا إنه لا تحل لكم أموال المعاهدين إلا بحقها .

وأمر ألا يؤخذ شيء من بقول اليهود إلا بثمن.

يقول بعض الكابتين : ويقولون بعضهم إن ما يجب أن نسعى إليه ونبحث عنه هو التعايش السلمى بين الحضارات ، فلماذا لا نؤكد على الاحتفاء بكل الحضارات ؟ إن الحضارة ليست هى التسامح مع بعضنا البعض ، أو هى مناقشة الاختلافات فيما بيننا فقط ، بل هى الاعتزاز والتمسك بهذه الاختلافات وهى الاحتفال بأفضل ما يميز وتعتز به وتقدمه كل حضارة وثقافة .

ويكشف مفكرنا مخطط دعاة صدام الحضارات فيقول : إنهم يعتقدون أن كل ما يأتى من الغرب فهو عالمى ، أما الأفكار والثقافات الأخرى فغير ضرورية وزائدة عن الحاجة ولو ظلت فسيقع صدام الحضارات .

ولتجنب هذا ـ من وجهة نظرهم ـ يجب أن تكون هناك حضارة واحدة فقط فى العالم فكل شيء يجب أن يتخذ معياراً قياسيًا وفقا للممارسات الغربية ، على الرغم من أن هذه المعايير القياسية يمكن أن تتغير إذا ما تغير الغرب .. وهكذا فإن العالم المتعولم ـ كما يراه الغرب ـ سيتسق بأكمله وسينظر إلى التنوع فيه على أنه شيء عابر ، ولذلك يجب القضاء عليه ، بمعنى القضاء على كل الحضارات الأخرى.

وهنا يلقن مفكرنا محضير بن محمد دعاة صدام الحضارات درسًا بليغًا فى التاريخ ويؤكد أن جميع الحضارات تقوم وتنهار فبعد أن تبلغ الذروة منها وهذا ما حدث للإمبراطورية الرومانية وهو نفس ما حدث للإمبراطورية الإسلامية ، فعندما كانت الديانة هى دافعهم أرادوا أن يكتسبوا المعرفة ، فدرسوا أعمال الإغريق والرومان وترجموها إلى العربية واعتاد الأوروبيون أن يلتحقوا بالجامعات الإسلامية فى بغداد والعراق لأنهم عرفوا أنهم أرقى الشعوب وفى هذه مرحلة توقف المسلمون عن طلب المعرفة ، وهذا مثل الأغنياء الذين يسندون الأعمال الشاقة إلى الأجانب ، فإذا فعلوا ذلك وهنت عضلاتهم . .

وهنا يطالب مفكرنا محضير بن محمد عندما ترتقى شعوبنا وهو أمر حتمى فالشىء المهم هو أن يبقى الشباب منتبها وفعالا على الدوام والأهداف المتتابعة أحد الطرق لتحقيق ذلك فإذا تحقق هدف ظهر هدف آخر ، وعندما نظن إلا شىء بعد ذلك يلزم تحقيقه ، فسوف تموت إرادتنا ، فمن الضرورى إذن أن تسعى الدول وراء هدف بعد الآخر حتى يظل المجتمع حيًا ومنتبها .

ورؤية مفكرنا محضير بن محمد هنا تؤكد دروسًا مهمة لكل أصحاب الحضارات من أجل ازدهار عالمنا المعاصر ككل الذى يجب ألا يعمل فقط على أساس من الاحترام المتبادل بين أصحاب الحضارات المختلفة بل يجب عليه أيضًا أن يشجع قيام حضارة عالمية يدفعها احتفاء بالحضارات كلها وتحتوى على كل ما يميز جميع الحضارات .

وانسجاما مع دعوة مفكرنا محضير بن محمد لحوار الحضارات تأتى دعوته من أجل تفعيل دور حوار الشمال والجنوب وهو الحوار الغائب والمتعثر .

ويفسر مفكرنا خلفية تقسيم العالم إلى شمال وجنوب ويرجعها إلى العلاقات القديمة بين القوى الإمبريالية الغربية ومستعمراتها ، والمنتظر بعد حصول المستعمرات السابقة على استقلالها أن تكون علاقاتها بسادتها الاستعماريين

السابقين علاقة أنداد ، إلا أنها سرعان ما أدركت أن الحال ليس كذلك ، فكل ما حدث هو تغيير فى الاسم من كونها مستعمرات إلى كونها جنوبًا ، وأصبح السادة المستعمرون السابقون يسمون شمالا ، والضغوط القمعية الآن أقل مباشرة وتجرى باسم الديمقرطية وحقوق الإنسان إلا أن الأثر واحد . . ولابد من أن تخضع المستعمرات السابقة للشمال ، أى للقواعد والتنظيمات والسياسات التى يضعها الشمال من أجل مصلحة الشمال .

وهنا يتساءل مفكرنا محضير بن محمد : كيف ندير إذن العلاقات بين الشمال والجنوب ؟ كيف تحل المشكلات الناشئة عن هذه العلاقة غير المتكافئة فى سياق الحاضر؟

ويجيب مفكرنا على هذا التساؤل بتقديم عدد من الحقائق ، والوقائع الخطية التى تكشف الوجه القبيح لدول الشمال ونواياها الاستفزازية قديمًا وحديثًا فيما يلى :

أولاً : على مدى عدة قرون رأينا الأمم القوية تثرى نفسها بإفقار غيرها ، وهاهم يتحدثون عن لعبة حاصل الجمع صفر ، والتى يتحقق فيها مكسب أمة على حساب وخسارة الأمم الأخرى . وكانت عبارة « أنقرجادك » فى أيام الاستعمار قائمة إلى أيامنا هذه ، لقد استخلصوا موارد المستعمرات ليعودوا بها إلى عواصمهم وبعدما أصبح الاستعمار بغيضًا وغير محترم غيروا شروط التجارة، حيث اضطرت الأمم المستقلة حديثا التى كانت مستعمرات فى السابق ، إلى بيع أكثر منتجاتها الأولية ، حتى تتمكن من شراء الأقل والأقل من السلع المصنعة من الأمم المتقدمة .

والآن يطلب من الدول الفقيرة ألا تستغل مواردها لأنها تعرض مناخ العالم وجودة البيئة وصلاحيتها للخطر ، يطلب منها ذلك من أجل صالح الأثرياء . ويجب ألا تدفع أجوراً منخفضة ؛ لأن ذلك من شأنه أن يفقد العمال فى الدول

المتقدمة وظائفهم ، أى أن الدول النامية يجب ألا تستغل مزاياها التنافسية .

ثانيًا : يحب الغرب أن يستخدم عبارة « الملعب المستوى » ويتجاهل الحقيقة القائلة إن الملعب المستوى إذا لم تكن الفرق المتنافسة فيه تعامل بعدالة ، فهو بعيد عن النزاهة . وإذا أتيت بكبار يلعبون كرة القدم الأمريكية ضد أطفال صغار من الدولة النامية ، فلقد يفوز الأطفال ، فالملعب المستوى اختراع من الدول الغنية لتقنين المنافسة غير العادلة ، فالصحافة العالمية التى يتحكم فيها الغرب تحاول أن تبرر نزاهة الملعب المستوى ، وحتى الدول النامية عليها أن تستخدم وسائل الإعلام الغربية حيث إن وكالاتها لا تغطى أحداث العالم ، ونتيجة لذلك تذاع الأفكار المشوشة فى كل مكان ، وما حدث فعلا فى أثناء أزمة العملة فى شرق أسيا لم ينقل على النحو الصحيح . والسيطرة على وسائل الإعلام العالمية من قبل زمرة قليلة من أفراد من الغرب ثراؤهم فوق العادة هو وضع غير صحى وغير ديمقراطى .

ثالثًا : إن التعامل مع تجارة العملة وبوجهة نظرها فى الأفكار الجديدة مثل العولمة والعالم بلا حدود والنزعة الليبرالية والسوق الحرة وكل هذه الأمور التى يقال عنها تفيد العالم قاطبة يمكن أن تأتى بكثير من الأضرار ما لم يعاد توصيفها مع الأخذ فى الاعتبار مراحل تنمية مختلف البلاد وهذه الأفكار كما هى ابتدعتها وفسرتها الدول المتقدمة لصالحها الخاص ، ونحن معشر الدول النامية نطالب بالسماح لنا بإعادة تفسيرها ، لنضمن أن المكاسب سوف تقسم بالعدل بين الدول الغنية والدول الفقيرة .

ومن الواضح أن الدولة المتقدمة صدمت وغضبت من الاحتجاج العنيف ضد العولمة والتجارة الحرة فى اجتماع منظمة التجارة العالمية فى سياتل بواشنطن ولو حدث ذلك فى دول نامية لقالوا : إن هذا يرجع إلى الجهل المألوف ورد الفعل العاطفى للشعب فى تلك البلاد ولكن هذا حدث فى إحدى دولهم ضم كثيرًا من أبنائهم ولا يمكن تجاهل مثل هذه المعارضة .

وإلى جانب ذلك فكثير من ذوى النفوذ الضالعين فى الاقتصاديات والأنظمة الأخرى سلموا بأن التجارة الحرة والعولمة ربما لا يكونان أفضل الأمور فى العالم ، وربما كانت هناك أساليب أخرى للتعامل مع المشكلات الاقتصادية يمكن أن تنجح هى الأخرى .

ورغم خطورة مثل تلك التوجيهات والممارسات الخطيرة التى تمارسها دول الشمال ، فإن مفكرنا محضير بن محمد لم يفقد الثقة فى أهمية وضرورة تفعيل وتنشيط حوار الشمال والجنوب مؤكداً أن الدول النامية فى حاجة إلى الدخول فى مباحثات مع دول الشمال أى : الدول المتقدمة ، وبالتحديد مع دول مجموعة ال٨ وهى الدول الرائدة فى الصناعة وأنه عندما يوضع المخطط الاقتصادى العالمى الجديد يجب ألا يقتصر وضعه فقط على دول مجموعة ال ٨ أو مؤسسات «بريتون وددز » مثل صندوق النقد الدولى أو البنك الدولى أو بنك التسوية العالمية فلابد من أن يكون للدول النامية رأى فى تغيير النظام الاقتصادى والمالى العالمى حيث واجهت دول الجنوب المشكلات التى أفرزها هذا النظام .

ومن أجل مواجهة هذا النظام الاقتصادى والمالى الدولى الخطير يرى مفكرنا محضير بن محمد أهمية وحدة صف دول الجنوب . . ويقول :

هناك عدد كبير من الدول فى الجنوب ، وكل دولة منا هى دولة فقيرة ، وغير قادرة على التأثير فى السياسات الدولية بما يخدم مصالحنا . ورغم الضعف الذى قد تبدو عليه كل دولة منا وهى بمفردها ، فإن القوة الناتجة عن اتحادنا جديرة بالاحترام ، ولهذا فمن البدهى قول إننا إذا أردنا أن نكون مؤثرين يجب أن نعمل سويا .

اثنان لا ينامان . . المسجون . . والسجان !! إن القوى العالمية المهيمنة فى أزماننا الراهنة تعانى من الإسلام فوبيا . . أى الخوف من الإسلام . . ومن ثم نعقت فيها بوم الشؤم وصرخت . . تصارع حضارات . . بينما هتفت ضمائر

أحرار العالم من كل دين .. إن هى إلا اغتصاب الكرامات ..وانتهاب الثروات.. دعك ما فات .. وتخسر ما هو آت !!

مضيت أتأمل ضلالات هنتنيجيتون فى صدام الحضارات .. ترى أين حضارة الإسلام الآن ؟ وما الحضارة سوى الحضور المذكور فى الحياة اليومية لسائر البشر.. فى حين يعيش المسلمون أيامهم الآنية منذ أن يفتحوا عيونهم فى الصباح حتى يأووا إلى مضاجعهم فى المساء ـ يعيشون على أدوات هنتنيجتون المزعوم .. وجود قوتين متضادتين .. أو حتى متقاربتين .. يعمل حسابا لأيتهما ؟ ثم هل يعتبر الغرب ابتداء ممثلا لحضارة مسيحية حقيقية ورؤوسه يجهرون ويتباهون بتوجيهاتهم العلمانية ؟ .. ولا يقيمون وزنا لتعاليم المسيح سواء فى أنظمتهم الداخلية أو فى خلافاتهم الدولية .

لقد حذر كوفى أنان أمين عام الأمم المتحدة فى مناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر الإسكتلندى روبرت بيرنز الداعى إلى التعايش السلمى بين سوية البشر ـ حذر من إلقاء السمع إلى دعاة الفتنة والاحتزاب ضد الإسلام .. ومن النفخ فى أنوف ضعفة العقول من مشايعيهم الذين دأبوا من قدم على رميه افتراء بالجمود ومعاداة الغرب على نحو ما تشى به مقالاتهم ورسومهم الهزلية بصحافتهم عن جهلهم المطبق بحقيقة رسالته .. مؤكداً التداخل المتبادل المتواصل بين الحضارتين الإسلامية والغربية فى مناحى الآداب والعلوم والتجارة حتى أخريات الآباد .

إنما نصراء الفتنة لا يملون من التدثر بعباءة الأديان ليروجوا ما تسمو عنه من بذاءات وهزاءات .. ألم يغضوا الطرف عما ورد فى الكتاب المقدس « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » .. ألم يسلمونا آذانا غير واعية لما نزل فى القرآن الكريم ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٨٢] .. ما عاد منهم سواء من جاهر بالتطاول على الإسلام أو من ناور وتظاهر زيفًا بمودته .. ما عاد

هؤلاء وأولئك إلا ويرددون على قلب رجل واحد قاله شيشرون « تكلم السيف فاسكت أيها القلم » !! مختلفين وهم تربص أمة الإسلام بهم .. حتى حاكوا أشعب فى طرفته الذائعة وصدقوا أنفسهم ذاك الزعم!!

يخسأ متعصبو الغرب لو حدثتهم نفوسهم المريضة أنهم طالما جيشوا المسيحية فإنهم سيستميلون إليهم مسيحيى الشرق الذين هم فى حقيقتهم - والقول لمكرم عبيد - مسلمون هوية ارتووا من النبع الإسلامى بل وأضافوا إليه .. وما عهد الحروب الصليبية ببعيد .. ويخسر المعتدون أرواحهم وأموالهم كلما لفقوا الذرائع للعدوان على المسلمين غير معتبرين بتجربة فرنسا .. التى لم يجدها احتلال الجزائر عسكريا مائة وثلاثين عامًا عن الانسحاب منها مدحورا وعلى لسان وزير مستعمراتها لاكوست إقرار عجزه الشهير « وماذا أصنع .. إذا كان القرآن أقوى من فرنسا » ؟

ترى .. متى يكف طغاة الغرب عن ساقط القول .. ويلتفتون إلى الخطر الحقيقى الماحق الساحق لوجودهم .. إنه قادم من أعماقهم .. من انحلالهم .. خطر لا يعمى الأبصار .. لكن يعمى القلوب التى فى صدورهم .. فها هى كنيسة نيوهامشر الأمريكية تنصب مطرانا من الشواذ متجاهلة نواهى العقيدة المسيحية « الإصحاح الأول من الرسالة إلى رومية » .. مما دفع رئيس الكنيسة الأنجليكانية أسقف كانتربرى إلى سحب اعترافه بها .. وها هو الرئيس الأمريكى يعول فى كسب أصواته فى المعركة الانتخابية المقبلة على تعضيده حكمًا حديثًا صادراً عن إحدى محاكم ولاية ماسا شوستش بإباحة تزاوج الشذوذ !! .. هذه حضارة بهيمية باتت تفتك بها بضراوة سخيمة الإيدز .. وستلحق حتما بقوم لوط حيث خسفتهم أطلال سدوم ..إذ أتاها أمره تعالى فجعلها حصيداً .. ثم ماذا يدور فى مجتمعاتكم عيانا بيانًا الآن ؟ هل ما طلعت به صحف عشرة ديسمبر الفائت إرصاصات بداية النهاية ؟ عندما أعلن « أزمين ميفز » على شبكة الإنترنت أن ريقه يتحلب لالتهام رجل مفتول العضلات !! .. فكان أن سعى إليه

ضحيته.. ليمزقه إربا .. إربا .. ويودع الأشلاء ثلاجته فتغدو وجبته المفضلة اليومية.. حتى افتضاح أمره !! لم يحدث هذا فى أدغال إفريقيا السوداء .. بل فى برلين حيث وقف القانون الألمانى عاجزاً .. حال كونه لا يؤثم القتل بالتراضى.. ولا أكل لحوم البشر !!

وأخيراً .. لم نشغل بالنا بأخطار أقطار الغرب المحدقة بها والملفقة .. وقد شهد شاهدان من أهلها « يول أونيل » وزير الخزانة الأمريكية السابق و« ويسلى كلارك » الذى كان مرشحًا بالحزب الديمقراطى لانتخابات الرئاسة الأمريكية القادمة ـ شهدا بأن خطة غزو العراق وتوزيع حقول نفطه على شركات أباطرة احتكار البترول كانت مبيتة ومعدة من قبل أحداث ١١ سبتمبر المفترى عليها .. بزمان !!

يتعجب واحد من شعراء بلدنا .. نزار قبانى :

تذكروا دائمًا أن أمريكا على شأنها

ليست هى الله العزيز القدير.

أمريكا على يأسها لن تمنع الطيور أن تطير

وقد تقتل الكبير بأرودة طفل صغير!!!

• • •

من أساليب الدعوة

إنه الأسلوب « الميدانى » والذى به يكون الداعية سعيداً وليس الأسلوب المكتبى وكما قيل :

إن من الظواهر الفكرية المرضية التى يعانى منها كثير من الدعاة تصورهم الخاطئ عن شروط العلاقة بالمجتمع ، حيث يلاحظ بروز الدعوة إلى الانعزال بحجة تزكية النفس ، والمحافظة على الإيمان .. لقد فهم بعض الدعاة هذا المعنى

فهما خاطئًا ، وغريبا عن الفهم الإسلامى كما مثلته حياة النبى ﷺ الذى كان يمشى إلى الناس ، ولا ينتظر مجيئهم لأنه لو قعد واعتزل لما أحدث ذلك التحول الكبير ، وهل شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق وحثهم على الخير ، ونهيهم عن الشر، إن الاتصال بالمجتمع بشكل أو بآخر هو السنة الصحيحة وهو الأسلوب الأمثل ، أما العزلة لغير ضرورة فهى البدعة .

لذلك لابد للداعية من أن يتمرن على الأسلوب الميدانى ليعرف الحقيقة كما هى فى الواقع بدلا من المكتبية التى تحول دون معرفة الناس ، والإحساس بهمومهم ومشكلاتهم ، وبالتالى صعوبة فهمهم والتأثير فيهم .

وقد رأى علىّ رضي الله عنه عمر يهنأ بعيرًا أجرب من إبل الصدقة . . فقال له : هلا عهدت بذلك إلى عبد يقوم به . فقال : مَنْ ولى أمر المؤمنين فهو عبد للمؤمنين . يجب عليه ما يجب على العبد لسيده . .

فقال علىّ : لقد أتعبت من جاء بعدك !!

وليت شعرى . . إنه لموقف أبلغ من ألف خطبة وخطبة !!

● ● ●

من أساليب القرآن

١ ـ ضرب المثل : وذلك لحكم منها : تقريب المعانى بمساعدة المدعو على معرفة الحق محسوسًا : تراه العين . وتلمسه اليد . . فى وقت تتداخل فيه صور الباطل. . وما قد يترتب على ذلك من خنق الحق فى زحام تهريج الباطل .

٢ ـ تجنب التسرع فى الحكم : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء: ٩٤].

٣ ـ الاحتكام إلى النفس . . وما يترتب على ذلك من احترام اختيار غيره: ﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [النحل: ٧١] .

٤ ـ التكرار . . ومن مجالاته : القصة القرآنية . . والتى تكرر فى سور شتى

تكراراً لا يمنع من إضافة الجديد .

الملاحظة العلمية :

ومن فوائد الملاحظة العلمية : تتبع المشكلة لمعرفة جذورها : أسبابها .

● ● ●

عمرو بن العاص رضي الله عنه

السياسى .. الداعية

قبل إسلامه كان تاجراً يجوب البلاد . . وكان يجىء إلى مصر ، فرأى من خيراتها وتحكم الرومان فيها ، مما دفعه ـ بعد إسلامه ـ إلى أن يطلب من الفاروق فتحها . . فوافق . .

والتقى بـ « شماس » مصرى .

أ ـ فسقاه من عطش.

ب ـ وأنقذه من حية ـ قطاء كانت تقصده .

ولما زار مصر رد له « الشماس » الجميل : وكان ألفى دينار . . لأنه أنقذه من الموت مرتين . .

● ● ●

استطراد

ونسوق مثالا على ذلك ما حدث فى مصر ، إذ يرى بعض المؤرخين أن المصريين لم يتحولوا إلى أغلبية مسلمة إلا فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر رغم أن الفتح العربى الإسلامى لمصر تم فى سنة ٦٤٠ ميلادية ، وهذا دليل قاطع على تعايش الديانتين : الإسلام والمسيحية ، مئات السنين داخل آلاف العائلات ، وإن التحول إلى الإسلام قد تم بدون إكراه .

كان لدى المصريين شجاعة أدبية تجلت فى موقف المصرى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

١ ـ لقد رفض أن يستكين للظلم .

٢ ـ فضلا عن تنامى الإحساس بظلم الرومان .

٣ ـ وعدل الإسلام .

وأضاف المفكر المسيحى الدكتور إدوار غالى الذهبى أن النتيجة الحتمية لكل ما سبق هى أن تقوم علاقة المسلمين بغيرهم على القاعدة الذهبية الحكيمة التى وردت فى حديث نبوى شريف وتقول : « **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** » .

ويقول الدكتور إدوار : لم تكن هذه القاعدة مجرد شعار يرفع ، وإنما وضعها الرسول الكريم موضع التنفيذ والتطبيق الدقيق فى كافة معاملاته مع أهل الذمة . . وفى هذا الصدد ؛كتب الدكتور محمد أحمد الحوفى : كان عليه الصلاة والسلام يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم ، ويواسيهم فى مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التى يتبادلها المجتمعون فى جماعة يحكمها قانون واحد ، وتشغل مكانًا مشتركًا ، فقد كان يقترض منهم نقودا ، ويرهنهم متاعًا ، ولم يكن ذلك عجزًا من أصحابه عن إقراضه ، فإن بعضهم كان ثريا ، وكلهم يلتهف على أن يقرض رسول الله ، إنما كان يفعل ذلك تعليمًا للأمة وتثبيتا عمليا لما يدعو إليه من سلام ووئام ، وتدليلا على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم .

وكذلك كتب الإمام الشيخ محمد عبده يقول : إن المسلمين ظلوا يحفظون حرمة الأديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم : أن من رضى بذمتنا فله مالنا وعليه ما علينا .

● ● ●

دروس من قصة نوح عليه السلام

يقول الله عز وجل : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣] .

يقول الله عز وجل : ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٣٠، ٣١] .

من معانى الآيات الكريمة :

١ ـ تقليل من قوة الأشراف . إزاء قوة الله تعالى والتى لا تقاوم .

٢ ـ الآية تهدم الأسس التى بها يقدر الناس بها بعضهم بعض وهى : المال ، والكهانة ، والملكية .

ذلك بأن الناس يبذلون ولاءهم لواحد من ثلاث :

١ ـ غنى يرجون نفعه . ومدع العلم بالغيب . وملك من السماء ، وقد هدم كل هذه الأسس ولفت الأنظار لأسس التقدير الحقيقية وهى : الأسس النفسية . ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

٣ ـ تعليم لعدم البتّ فى الأمر بدون علم ويقين .

ومن دروس قصة نوح عليه السلام :

١ ـ دعاهم إلى الاستغفار : إلى التوبة وهو ينعم عليكم بأنهار . . لا نهر . وجنات لا جنة واحدة .

٢ ـ ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [نوح:٢١] : إشارة إلى أن اتباعهم لظاهر الحياة . . لا لأخلاقهم النفسية .

نذير : يبين موجبات العذاب لا مجرد مخوّف فقط .

٣ ـ ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [نوح:٢٦] قال ذلك بعد ألف سنة تأكد له فيها جحودهم .

٤ ـ أذهب الله عنهم النعم .. ثم علق رجوعها باستغفارهم وتوبتهم .

٥ ـ تسلية لرسول الله ﷺ .

٦ ـ إنما يأتيكم به الله إن شاء .

أى : يأتيكم الذى عصيتموه .. ومعنى ذلك أنه خارج عن قدرة البشر .

٧ ـ غريزة التقليد : ما سمعت بهذا ..

٨ ـ بشر منكم : وهو : احتقار لأنفسهم أن يكون مثلهم رسولاً نبيًا .

٩ ـ الالتجاء إلى الله تعالى فى نهاية المطاف .

وتذكر : خالد وعمرو رضى الله عنهما : أسلموا فى السنة السابعة للهجرة وبعد عشرين عامًا من البعثة .

فلابد من الصبر وطول النفس .. مهما عاند المكابر .. فلعله أن يكون على موعد مع الإسلام يومًا .

● ● ●

الاعتراف بالآخر

يقول أحد الباحثين :

على الرغم من أن الإنسان يعتبر سيد الأرض ، يسخر إمكاناتها لخدمته متطلعًا بغير حدود للتقدم العلمى ليحمله عبر أفاق الطموح غير المحدود ، فإن طفل الإنسان يولد ضعيفًا هشا لا يستطيع البقاء يوما واحدًا دون الاعتماد على غيره ، ليطعمه ويعتنى به ، وهو فى هذا يكون أضعف من طفل السمك ، وطفل الحشرات وطفل الهوام ، الذى يولد قادرًا على الاعتماد على نفسه دون حاجة

للآخر . . فيكون هذا أول درس للإنسان ، ليعرف أنه غير قادر على الحياة فى غيبة « الآخر » .

يبدأ الإنسان حياته طفلا متفوق الذكاء إلا أنه لا يستطيع أن يرى نفسه أو يتعرف عليها إلا من خلال مشاهدته للآخر فيرى كيف يلهو ويقفز ويجرى الآخر، فيتعلم كيف يحاكيه ، ويبدأ فى التعرف على نفسه بمقارنة نفسه بالآخر ، فيقلد ما يحبه من فعل الآخرين ، وينأى بنفسه عن محاكاة الآخر فيما لا يحبه من تصرفات ، فإذا رغب الإنسان امتهان مهنة كان معلمه فيها هو الآخر ودون الآخر لا تستطيع الأنا أن تتعلم حرفة يملك الآخر مفاتيح تفوقها ، وكل « أنا » تحتاج إلى « الآخر » ليقيمها ويعطيها درجات نجاحها ، فتعرف الأنا بهذا ترتيب موقعها من المجموع تفوقًا أو ما دون ذلك .

وتقف « الأنا » عاجزة مسلوبة الحيلة فى أكثر الأمور التى تخصها فى غيبة الآخر ، وخصوصًا فى مجال طب العيون والأسنان والأنف والأذن والحنجرة والجراحة وأمور الولادة . . أما وقد أصبحت « الأنا » صاحبة مهنة ولها حرفة ذات منتج على اختلاف مسماه إلا أنه من عجب أن « الأنا » لا تستطيع أن تحيا مستهلكة لإنتاجها فقط ، فلا يستطيع زارع القمح أن يحيا على القمح ، ولا زارع البطيخ أن يحيا على البطيخ ، ولا ناقل البضائع أن ينقل بضائعه فقط ، ولا مؤلف الكتاب أن يكون القارئ الأوحد لكتابه .

وفى هذا ، فإن إنتاج الأنا مقصود به التوجه للآخر الذى يقيمه ويشتريه .

وفى واقع الأمر ، فإن الآخر هو أكثر أهمية للأنا من الأنا ذاتها ، إذ أنه دون الآخر لا تتوافر لـ « الأنا » مقومات بقائها على قيد الحياة ، فلعلنا جميعًا كل فى أناته يتعامل مع الآخر من واقع هذه الحقيقة الثابتة ، فيقيم محاور الود والترحاب للآخر ، معترفا بفضله كمكون رئيسى فى قدر النجاح الذى على كل منا أن يحققه ليس من واقع القسمة والنصيب ، وإنما بفعل النسبة والنصاب لوسائلى

وأدواتى فى الاعتراف بفضل الآخر كمحقق رئيسى لنصيبى من النجاح . ا . هـ.

• • •

ماذا يريدون

إنهم يريدون : التباس الحق بالباطل : لفظ يحتمل الحق والباطل . فيمسك كل فريق بمعنى . . وكل يظن الحق معه . .

وواجب الداعية : فض هذا الاشتباك ليتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . .

«إن الاستشراق . والاستعمار ، والتبشير أشبه بالحلقات الثلاثة المتداخلة التى يتخذها « التعاون » شارة له دلالة على قوة التماسك » [١] .

ويفرض علينا الحق أن نكشف النقاب عن سبب الأسباب فى نظرة خصومنا إلينا وهو : سوء تطبيق الأحكام الإسلامية فرأى خصومنا الإسلام من خلال هذا العوج . .

لكن الإسلام شيء وسلوك أتباعه ليس حجة عليه .

إنهم يعملون فى صمت . وحكمة أما نحن : فمشغولون : بماذا ؟!! لا نملك إلا عقيرة نجأر بها . .

وصحيح أن لنا على ذلك ثوابا . . لكن ذلك الصوت العالى قد يصرخ فى ناحية . . وإن نجح فى لفت الأنظار إلى الخطر المحدق بنا : وهو تنبيه لأعدائنا . . ليعدوا العدة لضربنا !

• • •

---

(١) الإسلام والثقافة الغربية (١٠٦) ..

من إنصاف الحكام

وإذ يقول الصديق رضي الله عنه عندما ولى الخلافة : إن أحسنت .. فأعينونى . وإن أسأت فقومونى .

وكان يقول : اللهم إنى أعلم بنفسى منهم وأنت سبحانك أعلم بنفسى منى : اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفر لى ما لا يعلمون .

ولكن الفاروق عمر رضي الله عنه يقول لما قال له أحد السامعين : والله لو رأينا فيك إعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، ولما نهره واحد قال له عمر : دعه فليقلها : فلا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نسمعها .

ولقد كان فى ذلك مضرب المثل حتى قال : « رحم الله امرءا أهدى إلىّ عيوبى» .

فهو يعتبر النقد « هدية » ثم يدعو للناقد بالرحمة . ومن بعده جاء حفيده : عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .. والذى عيّن من يراقب أقواله وأفعاله .. ليلفت نظره إلى المرفرض منها .. والمفروض .. المرذول .. والمقبول .

ويعنى ذلك كله : إحياء روح النقد .. ليبحث الفرد عن السلبيات والإيجابيات تفنيدًا للأولى .. وتأييدا للثانية .

وبهذا يقع الحاكم بين واعظين : واعظ خارجى يتابع .. ويعاتب .. وواعظ داخلى وهو النفس اللوامة : التى تلاحقه : لم فعلت ؟! ولم لم تفعل ؟!

وهذا هو الفرق الهائل بين مجتمعين : مجتمع المؤمنين : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١] .

ومجتمع المنافقين : يأمرون المنكر وينهون عن المعروف .

وإذا وجد من الحكام ولو واحد فقط ـ من يكره النقد حتى قال : من قال لى : اتق الله .. قطعتُ رأسه !!

فإنه الاستثناء من هذه القاعدة العريضة . التى تفتح صدرها للنقد سبيلا إلى تصحيح الأقوال والأفعال . بدل أن تختفى روح النقد فتتراكم الأخطاء . . ثم يصعب تلافيها . . ثم يكون العمل . . فى الظلام . . بعد أن تعذر العمل فى النور !!

• • •

متى يتوقف الحوار

يقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة: ١٥٠] .

بمعنى أن الحوار إذا وصل إلى طريق مسدود . . . فليتوقف عندئذ فرارًا من الضرر والخطر كما أشرنا .

تحاور داعية يعمل مدرسًا مع زميل له شيوعى يهاجم حجاب المرأة بشدة ولما أحس الداعية أن التباين فى وجهات النظر أبعد من قضية الحجاب لأنه خلاف فى الأسس والمنطلقات ، رأى قفل المناقشة بطريقة حكيمة دون أن يظهر أن ذلك بسبب عجز .

قال له : أنت مدرس رياضيات فأرجو أن تجيبنى عن السؤال التالى : هل يمكن دراسة معادلة من الدرجة الثالثة ، أو حل مسألة رياضية معقدة دون الاتفاق على الأساسيات الأولى فى الرياضيات ؟ قال له : بالطبع لا .

قال الداعية : كذلك حالنا مع الإسلام . لا يمكن أن نناقش قضية الحجاب فى الإسلام إلا إذا اتفقنا على الأساسيات الأولى وهى الإقرار بأن الله موجود ، وأن محمدًا ﷺ صادق أمين وأنه بعث إلينا بالإسلام وكتابه القرآن فإذا أقررت معى بذلك كله . . كان بوسعى أن أناقش معك بقية الأمور ومنها الحجاب .

• • •

افتراء الخصوم

قد نوضح حقائق الإسلام من مثل السماحة والإنصاف . ووحدة الجنس البشرى . . فى محاولة لإزالة الشكوك التى ألصقت زورا بالإسلام فيتقدم المفكر الغربى بأنه أيضًا لديه قيم الديمقرطية والأمانة والنظام . . ثم يزعم بأنها أولى مما نقدمه نحن !!

وإذن . . فهو حوار الطرشان : من حيث لا اتصال بيننا . . كل يغنى على ليلاه .

مع أن ذلك جانب واحد من جوانب القضية وهو مجرد الدفاع عن الإسلام مما ألصق به زورًا .

● ● ●

حوار الصالحين

يقول أحد الصالحين كان لى صديق : أصلى ركعتين . . فيصلى أربعًا . . فأصلى أربعًا . . فصلى ستا ثم مات . . فرؤى يبكى فلما سئل عما يبكيه ، قال: كيف لا أبكى أخا سبقنى إلى الجنة ؟!

قال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله لأحد تلاميذه : (أصلحك الله لا تكونن منك العجلة ، وثبت فى الفتيا ، فإن أنكرت شيئًا مما أذكره لك فسل عن تفسيره إن كنت مناصحا ، فرب كلمة يسمعها الإنسان فيكرهها فإذا أخذ بتفسيرها رضى بها، ولا تكونن كالذى يسمع الكلمة فيكررها ثم يغتنمها إرادة الشين فيذيعها فى الناس ، ولا يقول عسى أن يكون لهذه الكلمة تفسير ووجه عدل لا أعلمه، أفلا أسأل صاحبى عن تفسيرها ؟ أو لعلها كلمة جرت على لسانه ولم يتعمدها فينبغى لى أن أتثبت ولا أفضح صاحبى ولا أثنيه حتى أعلم وجه كلامه) .

ومن موجبات الحذر أن تستوعب الموقف الذى أنت فيه فلا تسارع إلى

الحديث من غير ضرورة ولا تثير الحضور من غير حاجة.

يقول أبو عمرو بن العلاء : « ليس من الأدب أن تجيب من لا يسألك أو تسأل من لا يجيبك أو تحدث من لا ينصت لك » .

ومن حسن السمت وكمال الأدب ما أشار به إبراهيم بن أدهم : « الحزم فى المجالسة أن يكون كلامك عند الأمر والسؤال بالمسألة فى موضع الكلام على قدر الضرورة والحاجة مخافة الزلل فإذا أمرت فاحكم وإذا سئلت فأوضح وإذا طلبت فأحسن وإذا أخبرت فحقق واحذر الإكثار والتخليط فإن من كثر كلامه كثر سقطه» .

ورحم الله القائل :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

• • •

حوار الشطار

استأجر رجل حمالا ليحمل له قفصا فيه قوارير ، على أن يعلمه ثلاث خصال ينتفع بها ، ورضى الحمال بذلك ، وقال فى نفسه : العلم خير من المال ، فلما بلغ ثلث الطريق ، قال الحمال : هات الخصلة الأولى . فقال له : من قال لك : « إن الجوع خير من الشبع ، فلا تصدقه » ، قال : نعم . . ولما بلغ نصف الطريق قال : هات الثانية ، فقال : «من قال لك إن المشى خير من الركوب ، فلا تصدقه » . قال : نعم ، فلما انتهى إلى باب الدار قال : هات الثالثة ، فقال : «من قال لك إنه وجد حمالاً أجهل منك ، فلا تصدقه » .

فرمى الحمال القفص ، وضرب به الأرض ، فكسر القوارير جميعًا ، وقال : « من قال لك إنه بقى فى القفص قارورة ، فلا تصدقه أبدًا » .

وفى حوار بين « ديجول » و « ستالين » بعد الحرب العالمية الثانية حول من

المنتصر ؟

قال ستالين : فى نهاية الأمر .. لا ينتصر إلا الموت ..

وهكذا .. وفى الأقليات الإسلامية .. يثبت الداعية وجوده : بالحوار .. وليس بالسيف .

يقول الكاتب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات : الداعية الحق إذا دخل قرية أشرقت أرضها بنوره ، واهتز أهلها لمقدمه ، فيهرعون إليه ، ويعكفون عليه ، ويجدون فيه الدليل إلى الله ،فمصافحته عهد الله لا ينقص ، وإشارته كلام لا يرد، دعوته بركة لا تنقطع ، يعبر وهو صامت ، ويؤثر وهو ساكن ، والقوم من حوله مطرقون مستغرقون قد فرغت قلوبهم من مطامع الدنيا ، وخلت صدورهم من وساوس الشيطان . ا . هـ .

إن الداعية يقوم بعملية « إنزال من الخلف » : فبينما الأذكياء من حوله يشاهدون الحياة بأبصارهم .. فهو من ورائهم يرى أحداثها ببصيرته .. فى محاولة لحمايتهم من مآسيها كما نحمى حبات عيوننا .. وإذا بالكثرة المدلة بالقوة من حوله : إذا بها نمور .. ولكن من الورق !!

• • •

فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة